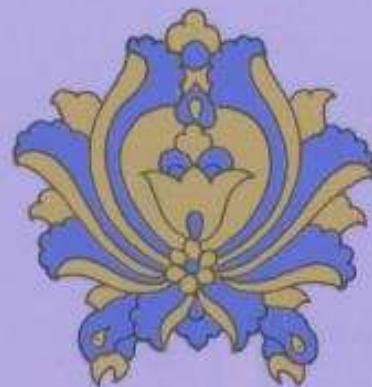


من نزل



فتح باب المرأة

بين التقاليد الركدة والوافدة

دار الشروق

مِنْ كُلِّ مَمْكُرٍ إِلَيْكُمْ كَذَلِكَ

فِي سَبَابِ الْمَرْأَةِ

بَيْنَ الثَّقَالِيدِ الرَّاكِدَةِ وَالْوَافِدَةِ

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

طلب جماعة من المسلمين المقيمين بإنجلترا أن تسمح لهم السلطات بإنشاء مدارس إسلامية خاصة !

وهذا طلب عادى ، وقد ألفنا في أرجاء العالم الإسلامي أن يقيم المهاجرون إلى بلادنا مدارس خاصة بهم يتلقون فيها تعاليم دينهم ويتقنون لغتهم إلى جانب المعارف المدنية العامة .

إلا أن نفراً من الإنكليز عارضوا الطلب ، وضاقوا بإنشاء هذه المدارس قائلين : إنها ستقوم على تفرقة عنصرية بين البنين والبنات !

وأتهموا الإسلام بأنه متحيز ضد النساء ، ومسقط حقوق المرأة ..

« غير أن حزب العمال البريطاني ساند الطلب ، وقال المتحدث الرسمي لشئون التعليم بالحزب «مستر جاك سترو» - كما ذكرت صحيفة «التايمز» - إن الذين يعترضون إقامة هذه المدارس مخطئون ، وربما غلبتهم نزعات عنصرية ، وأتهمهم بأنهم لا يعرفون الإسلام » ..

وفي مؤتمر عقد في لندن حول مستقبل التعليم الإسلامي في إنجلترا قال مستر جاك سترو : إن معاملة المجتمع الإسلامي للمرأة يجب أن تدرس دراسة عميقة ، وأن ينظر فيها إلى الأصول .. ! لقد سمعت مزاعم كثيرة بأن الإسلام ضد المرأة ، ويعتمد أصحاب هذه المزاعم على عدم وجود نساء يشتغلن بالدعوة الدينية ، أو يلقين دروساً بالمساجد ، وأن الرجال يحتكرون السيادة أو القيادة في هذا الميدان كما يحتكرونها في المجال السياسي .

قال : وهناك جهل شبه تام بدور المرأة في «اللاهوت» الإسلامي وفي تاريخ الإسلام

نفسه !! وعند التأمل نرى وضع المرأة المسلمة أهم من وضع المرأة اليهودية أو النصرانية في الأيام الماضية ..

«ثم إن النبي محمدأ أعطى النساء حق الإرث في كل الممتلكات قبل أن تفعل ذلك الحكومة البريطانية بثلاثة عشر قرناً ..».

الحق أني شكرت مثل حزب العمال على دفاعه الحسن ! وإن كانت الإذاعة البريطانية قد ردّت ذلك إلى التنافس الانتخابي وكسب الأصوات من حزب المحافظين ! .

وأعود أنا إلى الموضوع نفسه لأن الحديث فيه على عجل ، فقد تناولته بشيء من التفصيل في كتاب آخر^(١) .

الإسلام متهم بإهانة المرأة ، واستضعافها .. ! فهل في كتاب الله وفي سنة رسوله ما يبعث على التهمة ؟ القرآن بين أيدينا لم يتغير منه حرف ، وهو قاطع في أن الإنسانية تطير بجناحين ، الرجل والمرأة معًا وأن انكسار أحد الجناحين يعني التوقف والهبوط ! .
فلننظر إلى السنة ، ولنستعد ما التصق بها من الواهيات والمتروكات .

إن مصاب الإسلام في المتحدثين عنه لا في الأحاديث نفسها .
نبينا يوصي بأن تذهب النساء إلى المساجد «تقلاتٍ» أي غير متعرّضات ولا متبرجات .
ولكن «القسطلاني» في شرحه للبخاري يرى أن تذهب النساء إلى المساجد بشباب المطبخ .
وفيها روايحة البقول والأطعمة !!

وغيره يرى ألا تذهب أبداً ، فـأى الفريقيـن شـر من صـاحبـه عـلـى الإـسـلام . ؟
وفي البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام أجاز أن يسلم الرجال على النساء ،
وجاء فيه أن الرسول الكريم قال لعائشة : هذا جبريل يقرأ عليك السلام - وكان في
صورة رجل :

فجاء من يقول : ذاك عند أمن الفتنة ! أو ذاك مع النسوة المحارم أو العجائز أو الدسمات .

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه.

ومع ورود سنن سلام الرجال على النساء أو النساء على الرجال ، فقد كان جهد الشراح وقف العمل بها على أي صورة ، وكلما امتد الزمان زادت هذه الشروح قوة حتى ألغت الأصل المتبّع ، وأحلّت مكانه التفسير المشائم المغشوش ! .

وفي كل عصر توجد نسوة نوافع متقدمات فارئات فقيهات ، يستطيعن جعل بيتهن مساجد عامرة بالخير .

«منهن «أم ورقة» التي قال الصناعي عنها في الحديث رقم ٣٩٢ : أمرها النبي - عليه الصلاة والسلام - أن تؤمّ أهل دارها» .

وبعد أن حطّ عنها الغزو - وكانت تريد القتال في بدر - جعل لها مؤذناً يدعو للصلوة .
قال الصناعي : والظاهر أنها كانت تؤمّه ، وغلامها وجاريتها ! .

وذهب إلى صحة ذلك أبو ثور والمزني والطبرى ، وخالفت في ذلك الجماهير ..
والذى أميل إليه أن تلك حالة خاصة ، إذ كانت المرأة رضى الله عنها قد جمعت القرآن كله . والرجال وحدهم هم الأقدر والأولى بإماماة المساجد الجامعة ..
وأعود إلى التجربة الكبيرة التي سوف يمر المسلمون بها في الجلترا وغير الجلترا بعد أن يبنوا مدارسهم الخاصة ! ترى هل سيُلزمون الطالبات بال النقاب ؟

إذا حدث ذلك فسيكون قضاء على الدعوة الإسلامية والصحوة الإسلامية ، ولن يقبل رجل أو امرأة الدخول في هذا الدين ! .

إن الأوروبيين يعرفون ملابس الفضيلة في أزياء الراهبات عندهم وهذه الأزياء أقرب ما تكون إلى الحجاب الشرعي عندنا .

وإذا نحن التزمنا بهذا الحجاب أنصفتنا ديننا ، وأغرينا عشاق الفضيلة بالدخول فيه . ! .

أما إخفاء الأيدي في القفازات وإخفاء الوجوه وراء هذه الثُّقُب ، وجعل المرأة شبحاً يمشي في الطريق معزولاً عن الدنيا ، فذاك ما لم يأمر به دين ! .

بل ذاك ما يجعل كل التهم التي نفاهما عننا حزب العمال ترتد إلينا لظلم بها اليوم والغد ..

وأسائل القائلين بالنقاب : إنكم تعلمون أن مذهبكم رأى لم تجنب إليه كثرة المفسرين والمحدثين والفقهاء ، فماذا عليكم لمصلحة الإسلام أن تتركوه ترجحًا لمصلحة أهم وتجبها لضرر أفدح ؟

أعرف الدكتور عمر ناصيف رئيس رابطة العالم الإسلامي إنه من أنصبح وأتقى العاملين في ميدان الدعوة ، وأخبر الرجال بالعواقب التي تعرضها .

ألا يستطيع الرجل الذي إقناع المراجع الدينية عنده بموقف أرشد ؟ ثم تتعاون الجهدات بعد إذ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

فـ هذا العصر يوجد فتیان وشيوخ لهم أدمنعة مظلمة متحجرة ، يقولون : رأينا وحده ! ولا حياة لرأى آخر ولا مكان له ، إنهم طراز جديد من الخوارج القدماء !.

قصص على أحد طلبي الناهرين حواراً وقع بينه وبين متدين شديد الغلو يتمى - كما يصف نفسه - إلى الإخوة أهل الحديث ، سأله : أنت من يعلقون الصور على الجدران ، ويوافقون على نشرها بالصحف ؟ قال : نعم ! فرد عليه ، سيلحقك الوعيد الذي ورد في الحديث الشريف «أشد الناس عذاباً يوم القيمة المصوروون» لأنك تشجعهم وتناصرهم !.

قال له الطالب : رأينا أن الحديث في صانعي التماشيل لا فيمن يرسمون على الورق .

ولا أريد أن أدخل معك في جدال وإنما أريد أن أنهك إلى أن شرائع وشعائر إسلامية كثيرة قد تهدمت في هذا العصر ، والاتفاق على ضرورة بنائها من جديد ليس موضع نزاع ! فتعال أنت ومن معك لتعاون في إقامة الصرح المنobar ، ولنترك الشجار في الأمور الخلافية .. !.

فكان الجواب : ما نضع أيدينا في أيديكم ! وما نتفق في دينكم . بل أنت وأعداء الإسلام سواء ...

قلت لصاحبى بعد ما سمعت قصته : إذا كان الرجل مجتهداً مخطئاً أعباه التعصب .
فسوف يبصر يوماً ما ، ويرءوب إلى الحق ! إنما أخاف شيئاً واحداً . أن يتحوال هذا

وزملاؤه إلى جند للباطل من حيث لا يشعرون ..

إن لأعداء الإسلام في بلادنا رجالاً مكررة مهرة يوقنون بأن الجبهة إذا تحضّرت لأهل الوعي والفقه فهم متصررون حتماً ! ولذلك يفتحون ألف طريق لأولئك الغلاة حتى يسود صياحهم الساحة الإسلامية .

ويتأمل أولو الألباب فيما يقال ، ثم يقررون ترك الإسلام كله ..

كان التيار الإسلامي في الجزائر متقدماً ناضر المستقبل يوشك أن يغسل الأرض من أدران الاستعمار القديم ، الاحتشام حل محل التبرج ، والإطار الإسلامي أحكم الالتفاف حول التطوير الحضاري ، وقاده نحو الحرية والخير وسائر حقوق الإنسان ! .

فإذا صيحات مجونة تعلو بضرورة النقاب والجلباب والقشور التي يضيع معها اللباب ، وكانت التيجة أن أوجس أولو الألباب خيفة من الإسلام وصحته ، وهم معدورون ! وتقهقرت الصحوة الإسلامية عقب تلك الفوضى ..

وإذا تركنا إفريقية إلى آسيا وجدنا المرض نفسه والتائج نفسها ، فأغلب الأعاجم - وهم جمهرة المسلمين - يتبعون المذهب الحنفي ، أو الشافعى ، وهؤلاء الذين يتسمون بأهل الحديث يطيب لهم الطعن في المذهبين والتوهين للإمامين الكبيرين ومن ثم تقع الفرقـة والفتـن ولا مستقبل لدينـنا مع هـذه الفـوضـى العلمـية والخـلـقـية ..

إنـى أـنـصـح هـؤـلـاء الـذـين يـرـفـعـون رـاـيـة السـنـة - وـلـا سـنـة لـدـيـهـم - أـنـ يـتـقـوا اللهـ فـي أـنـفـسـهـمـ وـأـمـتـهـم .. يـحـبـ أـنـ يـحـمـعـوا وـلـا يـفـرـقـوا ، وـأـنـ يـمـهـدـوا الطـرـيـقـ لـعـودـةـ إـسـلـامـ بـدـلـ أـنـ يـضـعـواـ أـمـامـهـ العـقـبـاتـ ! .

إن جماعة المسلمين عاشت طوال القرون ، وهي تعرف الاختلاف الفقهي .

في هذا الكتاب خواطر مشورة جمعت بين العلم والأدب والنقد والتاريخ والفتوى الغابرة والمعاصرة ، لكنها جمیعاً تتصل بقضايا المرأة والأسرة والمجتمع الصغير ! .

وقد رأيت أن هذا الأسلوب أدى إلى مزاج طالب الثقافة في أمتنا ، وأدى كذلك إلى عرض الإسلام في ثوب جديد ..

قد يكون الفقه مجرد جافاً فلنضعه في هذا القالب لعله يكون أحسن مذاقاً ..

وهذه الخواطر وجدت طريقها إلى النشر في طائفة من الصحف . وكان من الخير أن
يضمها سفر وجيزة . لعل الله ينفع بها ويدعم الحق ويتوسّع دائرته ...

مُوسَى الْفَزَالِيُّ

الباب الأول

لنفهم الإسلام أولًا

- ١ - مصدر الاعتقاد الحق.
- ٢ - حسّنوا صورة المرأة المسلمة.
- ٣ - رهينة المحبسين : الجهل والفقر.
- ٤ - الإسلام يحمي الأسرة.
- ٥ - العلماء مسئولون.
- ٦ - غرور أصحاب الأديان.
- ٧ - لحساب من يتحدثون ؟
- ٨ - خطيبة الأصدقاء الجهلة.
- ٩ - الدور الغائب للمرأة.
- ١٠ - المساواة ثابتة في القرآن.
- ١١ - مراعاة الوظائف واجبة.
- ١٢ - لكي يتظاهر المجتمع.
- ١٣ - خطير القنبلة الجنسية.
- ١٤ - الإسلام في بلاد المهاجر.
- ١٥ - حوار مع ماركسي !

مصدر الاعتقاد الحق

عندما اتبع آيات الله في الأنفس والآفاق ارتبط بالواقع وأنأى عن الخيال ، وفي هذا الارتباط يستوي عندي الضخم والضئيل ! فللكبير جداً عظمته ، وللصغير جداً دقته ! .

الواحد الذي على يمينه عشرون صفرًا يمثل عدداً هائلاً في الصخامة فإذا كان هذا الواحد ذو الأصفار العشرين يمثل كسرًا عشربياً اعتمادياً كما يقال في علم الحساب بالأمر بالغ الصالة ..

ومن هنا فأنا أتعرف على آيات الله في عالم الكواكب ، كما أتعرف عليها في عالم الجرائم ، هذه ترى بمنظار مكابر وتلك ترى بمنظار مقرب ..

وربما تخيلت ما أراه من آيات بعد مرورى به ، كنت في الجزائر فشاهدت جبلًا يشبه حرف ألف ، كان صخرة شاهقة يرتد الطرف عن قمتها ، وتوهمت بأنه يريد أن ينقض !! .

وبعد ساعة من البعد عنه عادت صورته إلى خيالي فقلت : أما يزال يريد أن ينقض ؟ لا ، سيبقى كذلك حتى يأذن الله ، ويتحقق قوله : «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها رب نسفاً فيذرها قاعاً صفصحاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا» .

وكما سبح بي الخيال هنا يسبح بي الخيال وأنا أتصور الألوف المؤلفة من الشموس والنجوم الدوّارة في الفضاء البعيد ، إنها كشممسنا المألهفة تشرق وتغرب ونحن أيقاظ أو رقود ، قد تبلغ مليارات من الكواكب تجرى غير متوقفة ولا متعرضة ، هي كما وصفها

الله «والنazuات غرقا والناشطات نشطا والسباحات سباحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا» .

إنها مسخرة بأمر ربها ، دواره بإذنه وحده ، ويوشك أن يأذن لها بالتوقف والانطفاء ، متى؟ «يوم ترجم الراجفة تتبعها الرادفة» .

إن أمجاد الألوهية تذهل العقل ، ويزداد الذهول عندما أعلم أن المشرف على هذه السموات الواسعة مشرف في الوقت نفسه على حيوانات جرثومية تجتمع المليارات منها في ستيمتر ، أو مشرف على مليارات الخلايا في مخ واحد ، بين خمسة مليارات مخ بشري تسكن الأرض ! .

ذلك عدا كائنات أخرى يقول فيها جل شأنه «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون» .

إن القوانين التي تنظم الكون من الذرة إلى الجرة واحدة .

ففي النهر الذي تخيله من الشرايين الممتدة في كل جسم بشري لاتند قطرة واحدة من الدم السارى في العروق ، لاتند عن علم الخالق ومشيئته وقدرته وحكمته .

إذا تركت المادة إلى الفكر ، تكررت العبرة نفسها ، إن تيار الشعور الذي يهتر في بدني إدراكاً ووجوداناً وتزوعاً - كما يعبر علم النفس - ليس حكراً علىّ وحدي ، إنه يتنظم الخلائق طرراً .. وكل خاطر يساور نفس بشر ، وكل علم يحصله ، كتبه أو قرأه ، سجله أو لم يسجله ، ذكره أو نسيه ، كل ذلك يتنظم صفحة واحدة أمام رب العالمين ، جامعاً بين شتى اللغات وشتى الأزمنة «وكل صغير وكبير مستطر» يستحيل أن يغيب عنه ، أو يتم بعيداً عن سمعه وبصره وإحاطته !! .

أريد أن أقول للMuslimين : إن قرآنكم هو المصدر الأول للاعتقاد الحق ، وإن علوم الكون والحياة هي الشارح الجدير بالتأمل والمتابعة .. وإن العظمة الإلهية تزداد تألقاً في عصر العلم وإن التقدم العلمي صديق للإيمان ، وخصم للإلحاد ..

وأريد أن أحذر المسلمين من متسبين إلى العلم لا قدم لهم فيه ، فليس فرويد أو

دور كايم من العلماء ، إنهم مفكرون مرضى ضلوا السبيل ، وليس ماركس وأتباعه علماء ، إنهم كهان جدد ، استبدت بهم علل نفسية ، وما كانوا يستطيعون السير لولا الفراغ الذى أتيح لهم من قصور المتدلين وتفريطهم في جنب الله .

حَسِّنُوا صُورَةَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ

كنت في ملتقى الفكر الإسلامي عندما تحدث السفير الألماني عن الإسلام وقال للحاضرين يجب أن تصححوا أوضاع المرأة عندكم ! فإن صورة المرأة الإسلامية تنفر الأوربيين من الدخول في الإسلام !! .

قال لي أحد المستمعين : ماذا نفعل ؟ فقلت له : عندما يعرض التاجر سلعته فيضفي عليها صفات ليست لها فإنه يكون غشاشاً ، وعندما يعرضها وهو غير خبير بخواصها ، فتبدو للناس دون مستواها فإنه يكون مغفلًا ، وسيظلم بضاعته ويجرّ عليها الكساد !.

والرجل - بعد ما شرح الله صدره للإسلام - يقول للمسلمين : أحسنوا عرض دينكم ، ولا تصدّوا الآخرين عنه بسوء الفهم وسوء العمل ! لنفرض أن رجلاً كل رأسماله في السنة حديث الحاكم في المستدرك أن المرأة لا تتعلم الكتابة ، أو حديث صاحب الروايد أن المرأة لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، ثم جاء هذا المسكين ببضاعته المزجاجة أو أحاديثه الم موضوعة والمتروكة يعرض الإسلام على أهل أوروبا أو أمريكا ، هل يدخل في الإسلام أحد ؟ هل يحترم الإسلام رجل أو تخفي به امرأة ؟؟

إن بعض المسلمين يعرضون عليهم مزوراً دميم الوجه ثم يذمون الناس لأنهم رفضوه ، وعندى أن هذا البعض الجھول يجب سجنه أو جلده لأنه صاد عن سبيل الله ، فتأن عن الحقيقة التي صدّ بها صاحب الرسالة الخاتمة عليه الصلاة والسلام ..

إن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات ، وإذا كانت هناك فروق معدودة فاحتراماً لأصل الفطرة الإنسانية وما يبني عليها من تفاوت الوظائف ! وإلا

فالأساس قوله تعالى : «فاستجاب لهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضاكم من بعض» وقوله : «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيشه حياة طيبة ولنجزئهم أجراهم بأحسن ما كانوا يعملون» .

إن هناك تقاليد وضعها الناس ولم يضعها رب الناس دحرجت الوضع الثقافي والاجتماعي للمرأة ، واستبقيت في معاملتها ظلمات الجاهلية الأولى ، وأبى إعمال التعاليم الإسلامية الجديدة فكانت النتائج أن هبط مستوى التربية ومال ميزان الأمة كلها مع التجهيل المتعمد للمرأة والانتهاص الشديد لحقوقها ...

قال لي أحد المستمعين غاضباً : أيسرك أن تكون «بنازيربوتو» رئيسة وزراء؟ فقلت ضاحكاً : سألني مسلم انكليزي : هل يحاربون «مسن تاتشر» لأنها امرأة تولت الحكم؟ فقلت له : بماذا تحب هذه المرأة؟ إذا قالت لك - وهي واسعة الثقافة - إنني توليت الحكم على مذهب أهل الظاهر في الفقه الإسلامي ! .

ثم استتليت : لا تجعلوا بعض الأحكام الفرعية المختلف فيها حجر عثرة أمام عقائد الإسلام وأركانه الكبرى ...

رهينة المحسين: الجهل والفقر

كنت أتحدث في أحد الأندية عن حقوق المرأة المسلمة ، فقلت : إن لها حق الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتدريس هدایات الإسلام ومحادلة الملحدين فيها .. إلخ . فإذا شخص يقول لصاحبه : كنا نظن هذا الحاضر رجلاً صالحًا ففيَّنَ أنه أعن من قاسم أمين ! .

وتذكرت ما قاله الأستاذ أحمد موسى سالم عن قاسم أمين وعن الدور الذي قام به في الدفاع عن الإسلام ضد الغزو الثقافي الفرنسي الذي حمى واشتد في عصره ..

بدأ هذا الغزو بهجوم من المؤرخ «أرنست رينان» على العرب والمسلمين تصدّى له جمال الدين الأفغاني فأبطل حجته ، وكشف تعصبه ، وردّ عن الإسلام أباطيله ، وبدا الخصم العنيد وكأنه قد لان واستكان لما سمع ! .

ثم اشتبك في هذا الحوار المخطط الشيخ محمد عبد ليرد على إفك وزير خارجية فرنسا «ميسيو هانوتو» الذي طال افتراؤه على الإسلام واتهامه لنبيه - عليه الصلاة والسلام - ، فكان كتاب الشيخ محمد عبد عن علاقة العلم بالدين الذي ألقه في ليلة واحدة قاطعاً للسان الوزير الكذوب .

قال الأستاذ أحمد موسى : وكان دور قاسم أمين في هذا الحوار جاهزاً . وكان محوره الأساسي هو المرأة في الشريعة الإسلامية ، وكانت المبارزة التي خاضها مع الخصم الفرنسي الثالث «دوق داركور» الذي أصدر سنة ١٨٩٣ كتاباً عنوانه «مصر والمصريون» تناول فيه حياة المجتمع المصري أيام الحكم المملوكي والتركي ، وهي فترة

بلغت ستة قرون عجاف تراجعت فيها خصائص الحياة عن جمهرة الأمة الإسلامية ، مما جعل «دوق داركور» يبسط قلمه بالأذى ، ويرسم صورة قاتمة وبذلة للشعب كله . ويخنق المرأة بمزيد من التجريح والزراية .. ويرد ذلك كله إلى طبيعة الإسلام المتأبة على الترق والحضارة .. !!.

ماذا فعل قاسم أمين ليدافع عن دينه وأمته ؟ سارع إلى تأليف كتاب بالفرنسية فتَّد فيه أقوال خصمه ، وشرح حقوق المرأة في الإسلام ، وما كفله الدين لها من كرامة مادية وأدبية ، ووازن قاسم أمين بين حجاب السترة والاحتشام عندنا وبين تبذل المدينة الحديثة وما أحاطت به أوضاع المرأة من انحلال وتهتك .. !!.

إن ما فعله قاسم أمين كان محكوماً بأمررين أولهما الدفاع عن الإسلام المفهوم من مصدريه الرئيسيين والآخر الاعتذار عن تخلّف المرأة بأنه من تقاليد غريبة على التوجيه الإلهي ناشئة عن أخطاء الشعوب !.

وما يستطيع الرجل أن يفعل إلا هذا ! هب أن أوربياً أو أمريكيَاً اتهم الإسلام بأنه يحظر على المرأة الذهاب إلى المسجد ، وأن الإسلام بهذا الحظر دين شاذ ، لأن الأديان كلها لا تمنع النساء من التردد على بيت الله ، أو على معبدها الخاص بها .. فماذا أقول له ؟ أصدقه في اتهامه ؟ أم أقول له : إن هذا الحظر ليس من تعاليم الإسلام ، وإنما هو من تقاليد بعض البيئات ! أدافع عن الإسلام صادقاً ؟ أم أدافع عن المتمم إليه كاذباً ؟

لقد رأيت بعض الإسلاميين يفقد وعيه في الدفاع عن موروثات ما أنزل الله بها من سلطان ، كأن من السهل عليه أن يكذب الله ورسوله ، ولا تمس عادات تلقاها عن آبائه .. !!.

هناك حرس للخطأ يرتفع عوياً لهم إلى عنان السماء عندما يتتقد هذا الخطأ ، وقد كنت أول أمري قليل الاكترات بهذا العویل ، بيد أنني وجدته يتحول على مر الأيام إلى ضغينة على المصلحين واستباحة لأعراضهم لا يمكن السكوت عليها ، لأن الدين نفسه سوف يضار من هذا السكوت ، وسوف تتحول حقائقه إلى أباطيل ..

وقد سمعت من يشتم جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا ، بل سمعت أطفالاً ينالون من أقدار الأئمة الأعلام ، لا لشيء إلا لأنهم أتوا بما لم يعهدوا عن آبائهم الذين لا يقلون عنهم جهلاً ..

لقد أدهشتني أن نفراً من المتدلين يتناولونني بأقصى ما يتناولني به الصهاينة والصلبيون ! وفهمت ما قاله الأستاذ عصام العطار : لو بذل أدعية الإسلام في محاربة أعداء الله والمبطلين عشر ما يبذلون في حرب أولياء الله الصادقين لانتصر الإسلام من زمان بعيد . ولكن من النفوس ما ينشط في الباطل ما لا ينشط في الحق ، ويندفع لأهوائه ودنياه ما لا يندفع لآخرته ومرضاة ربه عز وجل ..

ثم يقول عصام العطار : كم احتقر هؤلاء الذين يعلّقون أقدر مطامعهم وأهوائهم على مشاجب المثل العليا» .

إن هذا الكلام نتيجة معاناة مريرة أحسّها الدعاة الجادون ! إننا ملتزمون بالوحى الأعلى لا تزيغ عنه قيد أنملة ، وملتزمون بعصر النبوة والخلافة الراسدة أما المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية فإن التاريخ أعمال حكام ومواقف شعوب ، وهذه وتلك ليست مسالك معصومة ، بل قد يكتنفها الخطأ كما قد يخفّها الصواب .. أى أنه يحكم عليها ولا يحتمكم إليها ، والمقياس المعصوم كتاب الله وسنة نبيه ..

وقد رأيت في أواخر عصر الجاهلية وبدايات عهد الإسلام أن المرأة حضرت بيعة العقبة دون اعتراض ، وبأيّعت على الموت تحت الشجرة ، أو على عدم الفرار . وكان مستحيلاً أن يؤذن لها بذلك في أواخر التاريخ الإسلامي ، فماذا يعني هذا الوضع ؟

ولأترك أمر البيعة وشئون المسلمين العليا ، إنني عاصرت أوائل عمرى معركة نشببت بعد ما اكتشف أن الدكتور طه حسين أذن لعدد من الطالبات بدخول كلية الآداب ، عندما كان عميداً لها ... كان موقف الإيمان - أو بتعبير أدق - موقف المؤمنين أن ذلك لا يجوز ، أما الطرف الآخر ، والذى سمي بالملائحة فهو الذى ناصر تعليم المرأة إلى أعلى المستويات ! .

أى إنصاف للإسلام في هذه المعركة السخيفية ؟ الدين مع الجهل ، والإلحاد مع العلم ؟ إلى متى نسمح لأناس يكذبون على الأرض والسماء باسم الدين ؟

ولقد تحدثت مع المسؤولين في وزارة الشئون الدينية بالجزائر أن تعقد في المساجد الكبرى حلقات وعظ وإرشاد وتربية للنساء خاصة في أوقات مختارة يقوم بالتدريس فيها خريجات الجامعة الإسلامية ! ولا أدرى أنتجح في هذا المسعى أم يتغلب المتفقهون الجهال الذين يتضاحكون بين الحين والحين بأن صوت المرأة عورة .. ! إن هؤلاء المتضاحكون لا تتمعر وجوههم لبعثات التبشير التي تنبع فيها الراهبات المسيحيات في بلوغ أهدافهن ! .

إنهم مشغولون بشيء واحد ، جعل المرأة رهينة محبسين من الجهل والقهر ... وجعل الأمة كلها تتربع تحت وطأة التخلف الثقافي والسياسي في عصر الذرة والفضاء .

الإسلام يحمي الأسرة

شكا المعنيون بسلامة المجتمع في إنجلترا من تفاحش نسبة الطلاق فقد بلغت نحو ٣٣٪ كما بلغ الأطفال الذين يفقدون رعاية الأبوين معاً ٤٠٪ وزادت قضايا طلب الحضانة زيادة كبيرة ، الأب يريد الانفراد بأولاده ، والأم تريد بعد الطلاق أن يحرم منهم ، ومستقبل هذا الجيل التعيس ضائع في لجة هذه الخصومات ..

والطلاق شيء بغيض ! لاسيما بعد أن يتحول الزوجان إلى والدين فإن ضرر الانفصال يتتجاوزهما إلى غيرهما من الأبراء ! وأرى أن الوقاية خير من العلاج ، وأن استدامة الحياة الزوجية أولى من تعريضها للانقطاع ثم مواجهة الآثار السيئة للطلاق ..

وهذه الاستدامة لا تتوافر إلا مع الإيمان الحق والإخلاص الظاهر واكتفاء الرجل بزوجته التي يسرّها القدر له ، وكذلك رضاء المرأة بزوجها وحياطتها له ...

وهذه هي العناصر المستفادة من قوله تعالى في صفة عباد الرحمن : «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا فرة أعين ...» إن استقرار العين على شريك الحياة أو على شريك الحياة أمر مهم بل هو ركن في بقاء البيت ...

فهل تقاليد الحضارة الحديثة تتحقق هذه الضمانات ؟ الإجابة بعيدة عن التعمية والنفاق : لا .. ! بل إن هذه الضمانات تذوب وتستحفي في المراقص المائحة بذكور وإناث يختضن أحدهما الآخر ، ويتوابثان في دائرة مغلقة يتنفس فيها الحيوان الرا بض في دمها خصوصاً عندما تكون المرأة في ملابس السهرة ، شبه عارية !

إذا كان هذا لا يهدم علاقة المرأة بزوجها للفور فهو زلزال يسقطها بعد حين ! ثم هناك

الاختلاط المطلق الذى أبعَد الوحي الإلهى عن ضبط أمكنته وأزمنته ، واستعدت النساء له بفنون شتى من الزينة والتبرج ! هل يُبْقِي هذا الاختلاط على كرامة الأسرة أو استقرارها ؟ كلا ...

إن الإسلام بتعاليمه الدقيقة يحفظ حاضر الأسرة ومستقبلها ، ويبعد شبح الطلاق المرعب عنها ! لكن الطلاق أخذ يشيع في المجتمعات إسلامية كثيرة لأن احتلال المدينة الغربية تسلّل إلينا ، وشرعت جرائمه تدق بعنف الأبواب المغلقة ..

والنجاح الذي صادف الحضارة الغازية يعود إلى ضعف المقاومة وإلى غباء المدافعين ! إنني عاصرت الأيام التي أدخل فيها طه حسين الفتيات في الجامعة ! لقد كان التيار الديني يرى ذلك حراماً ! ! بل إن تعلم البنات في مدارس خاصة بدأ بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فإن التقاليد السائدة كانت تفرض الأممية على النساء باسم الإسلام ! ! .

ومع غزو المرأة للقضاء في العصر الحديث فإن أناساً عندنا يقاتلون دون أن تصلي المرأة في المسجد ! يقولون بيتها أولى بها .

و يوم تتقرر هذه المواقف في الأرض الإسلامية فإن محنة الحضارة المستنصرة لن يجد أمامه عائقاً أبداً .

العلماء مسؤولون

عندما تتعارض الأدلة وتكتثر مذاهب المحتددين أعطى نفسى حق الاختيار في الفتوى ، فقد أوثر دليلاً على آخر ، وقد اختار ما هو أرقى بالناس ؛ وأيسر في علاج المشكلة التي أواجهها ..

سئللت أخيراً عن امرأة فقدت زوجها بفترة وغلب عليها الجزع ، حتى خشى أهلها عليها ، فرأوا أن يذهبوا بها إلى البيت الحرام لعل العمرة تدعم إيمانها وتعينها على الصبر ! . قلت الأولى أن تقضي عدة الوفاة في بيتها ! قالوا : نخشى على صحتها وعقلها ! . فترويت في الموضوع ، ثم أفتيت بمذهب عائشة رضي الله عنها ، وهي ترى أن الله جعل العدة زماناً لا مكاناً ، قال الشيخ سيد سابق مؤلف «فقه السنة» : كانت عائشة تفتى المتوفى عنها زوجها بالخروج في عدتها ، وخرجت بأختها أم كلثوم حين قتل عنها طلحة ابن عبيد الله إلى مكة في عمرة ..

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس أنه قال : إنما قال الله عز وجل تعنت أربعة أشهر وعشراً ، ولم يقل تعنت في بيتها ، فتعنت حيث شاعت ..

وهناك من يرون ضرورةبقاء المعتدة في بيتها ، تقضى فيه ليلها ، ولها أن تخرج نهاراً إلى عملها إن كانت موظفة مثلاً ، مع ضرورة الحداد ، والامتناع التام عن الزينة .

والخطب سهل في أمثل هذه القضية ، لكن غضبي يشتد عندما أرى كلاماً يخدش كرامة الإسلام وينال من رسالته ! فقد سألني أحد القراء عن حكم قرأه في مصدر إسلامي منهم ، أن عمر من النساء من تعلم الخط ، وكأنه يرى الأمية أولى بهن ! فأجبت

ساحراً : ولم تكون الأمية حكراً عليهم وحدهن ؟ ينبغي أن تشمل الزوجين الذكر والأئمّة تمشياً مع الفهم الأعوج لحديث «نحن أمّة أمّة» !!.

يا صديقي إن الحديث الذي يمنع النساء من تعلم الكتابة مكذوب ، وكل خبر يهون من شأن العلم بما في الأرض والسماء لا يوثق به ، وقد ورد وصف الأمية في الكتاب والسنة للعرب الذين بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أنه واقع معروف عالمياً ومحلياً ، وهذا الواقع زال مع نزول القرآن الكريم ، وانهيار غيوب من المعارف مع آياته البينات «ولَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» ، «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيْنَاتٌ فِي صُدُورِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ أَوْتَوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْدِدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» .

وعلى الرجال والنساء أن يزدادوا علمًا ، وألا يشعروا من فنون الثقافات التي تناحر لهم ...

إن المرويات التي تنقل إلينا تحتاج إلى تمحیص ، بل إن الإمام من الفقهاء الكبار قد يروى الخبر ولا يتزل عليه : لأن هناك ما هو أقوى منه وأولى بالاتباع ...

ولأنضرب مثلاً بالإمام الورع الصلب الزاهد أحمد بن حنبل ومسنده الجامع المعروف ، إن الإمام الكبير ترك أحاديث رواها في مسنده فلم يأخذ بها !! قال ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» : كان قد سأله بعض أصحاب الحديث ، هل في مسنند أحمد ما ليس بصحيح : فقلت : نعم .

فعظم ذلك على جماعة يُنسبون إلى المذهب ، فحملت أمرهم على أنهم عوام . وأهملت الفكر فيهم ، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى خاصة فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أبو العلاء الهمداني يعظمون هذا القول ، ويردونه ويقطبون قول من قاله . فبقيت دهشًا متعجبًا ، وقلت في نفسي : واعجبا ! صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضًا ! وماذاك إلا لأنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحة وسقيمه ، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد ، وليس كذلك ، فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد

والردىء ، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ، ولم يقل به ، ولم يجعله مذهبًا له ، أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ : مجھول ! .

ومن نظر في كتاب العلل الذى صنفه أبو بكر الحال رأى أحاديث كثيرة كلها في المسند ، وقد طعن فيها أحمد .

ونقلت من خط القاضى أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء فى مسألة النبيذ قال : إنها روى أحمد فى مسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم .

ويدل على ذلك ما جاء عن ابنه عبد الله قال : قلت لأبى : ما يقول فى حديث ربى بن حراس عن حذيفة ؟ قال : الذى يرويه عبد العزىز بن أبى رواد ؟ قلت : نعم .
قال : الأحاديث بخلافه . قلت : فقد ذكرته فى المسند ... ! .

قال : قصدت فى المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صح عندى لم أورد من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يا بنى تعرف طريقى فى الحديث ، لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه .

قال القاضى : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه فى المسند ، فمن جعله أصلًا للصحة فقد خالفه وترك مقصده .

قلت : قد غمّنى في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعادة ، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا : قد روى . والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم .
ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . ذاك ما يقوله ابن الجوزي الفقيه الحنبلي في تقسيمه لأحاديث المسند ولكن هناك ناس يصدق فيهم المثل « ملكيون أكثر من الملك » !!

غور أصحاب الأديان

أفسد شيء للأديان غور أصحابها ، يحسب أحدهم أن انتماه المجرد لدين ما قد ملكه مفاتيح السماء ، وجعله الوارث الأوحد للجنة ! لماذا ؟

هل كبح أهواءه ؟ هل أمات جشه ؟ هل جند ملائكته للتسبيح بحمد الله والاهتمام بالآلام الناس ؟ لم يفعل شيئاً من ذلك ، كل ما يملأ أقطار نفسه أن له بالله علاقة مزعومة ، لا يعرف لها وزن ...

ومن ثم فإن صاحب هذا الدين يتسلل إلى أغراضه بما يتاح له من أسباب ، بعض النظر عن قيمتها الأخلاقية ، وقد كان بنو إسرائيل قديماً مهرة في ارتياح هذه المسالك المعوجة ...

ولكى يسيغوها لأنفسهم زعموا أن نبى الله يعقوب اختطف منصب النبوة من أخيه عيسى ! ولجا إلى الخادعة والعش وأشياء أخرى ! .

كيف ؟ إنه في رأي نفسه أولى ، فلا حرج من الشطارة ليبلغ ما يريد . ولا حرج على أبنائه أن يقلدوا أباهم فيما حکوه عنه ، أو فيما نسبوه إليه ! .

وزعم بنو إسرائيل أن إبراهيم طلب النجاة بنفسه عن طريق تعريض زوجته لأحد الفتاك من جباررة الأرض ، وساورته الرغبة في بعض المغانم ، التي ظفر بهاأخيراً .

والواقع أن المجتمع اليهودي - قبل بعثة المسيح - طفح بالأثام ، وأن بيت المقدس شهد مأسى للشرف ومصارع للشرفاء على أيام السيادة اليهودية الأولى ..

وفي جبل الزيتون الواقع شرق بيت المقدس وقف السيد المسيح يبعث صيحاته الواحدة تلو الأخرى ، منذرًا جموع اليهود بقوله : « يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المسلمين إليها ! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجتمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها ، ولم تریدوا ... هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً ...

ونقرأ هذا الحوار في إنجيل يوحنا : قال اليهود للمسيح : أبونا هو إبراهيم . قال لهم يسوع : لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم .. ولكنكم تطلبون قتل ! وهذا ليس عمل إبراهيم ! أنت من أب آخر هو إبليس » .

وفي موقف آخر كشف المسيح عن طبيعة التدين الكاذب لدى القوم فقال لهم مصارحاً : لقد جعلتم بيت الله مغاردة لصوص ؟؟

إن الدين - كما نزل من عند الله ، وكما تجسّد في سير الدعاة - أعمال صالحة وأخلاق زاكية وأحكام عادلة ، ورعاية يتقدون الله في الشعوب ، وشعوب تتواصى بالصبر والمرحمة ، وتقيم تقاليدها على البرّ والمواساة ..

والغريب أن القرآن الكريم حذر أهل الكتاب جميعاً ، المسلمين والنصارى واليهود من تجاهل فحوى الدين والتعلق بمراسمه ، فقال سبحانه وتعالى : « والله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً » .

فهل يعي ذلك الأحبار الكبار والكرادلة الذين يظاهرون اليهود على عرب فلسطين البائسين ؟.

وهل يعي ذلك مسلمون تأهبون عموماً عن رسالتهم ، فلم ينصفوها في فقه ولا في خلق .

وهل ننتظر حتى يتحول اليهودي التائه إلى العربي التائه .

لحساب من يتحدثون؟

هناك سباق قائم بين عدة أديان كي يثبت كل منها أنه أولى بالحياة وأجدر بالبقاء ! والغريب أن بعض المستمرين إلى الإسلام يجهل هذا الواقع ويرتكب حرماًقات تمسه إلى دينه بل تنفر منه وتصدّعنه ! ولعله مطمئن - من الناحية النفسية - إلى صدق عقائده وسلامة تعاليمه ، فعلى الناس أن يؤمنوا به إذا شاءوا أو يذهبوا إلى حيث أقت ! .

وهذا جهل وطيش ، فإن السلعة النفسية قد تكسد بسوء العرض وقصور الإعلان وتسبّبها سلع أخرى أحسن أصحابها الدعاية لها واجتذاب الأ بصار إليها ..

والحضارة المعاصرة جعلت الإنسانية شعاراً لها ، وجعلت من حقوق الإنسان محوراً للعلاقات الدولية ، ونوهت بقيمة العدالة الاجتماعية والمستويات الصحية والثقافية العالمية ..

وقد تكون هذه الحضارة غاشة أو مدعية أو مقصرة فإن هذه التهم لا تمحو ما توّاضعت عليه المحافل العالمية واتفقت على احترامه ..

فلحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام ويصورونه بعيداً عن مقررات الفطرة . وأشواق الإنسانية الكاملة ؟

ولحساب من يعلو صوت الإسلام في قضايا هامشية ويخفّت خفوّاً منكراً في قضايا أساسية ؟

ولحساب من يرى بعضهم الرأى من الآراء ، أو يحترم تقليداً من التقاليد ثم يزعم أن

الإسلام الواسع هو رأيه الضيق ، وأن تقاليد بيئته هي توجيهات الوحي ، وبقايا التعاليم السماوية على الأرض ؟

قلت لنفر من أولئك المحدثين : إن وجه الإسلام جميل ولكنه من خلال كلماتكم يبدو دمياً متوجهماً ، وإنه لمن حسن العبادة أن تسكتوا فلا يسمع لكم صوت ! إن أي كلام يفيد منه الاستبداد السياسي ، أو التظام الاجتماعي أو العطن الثقافي أو التخلف الحضاري لا يمكن أن يكون ديناً ، إنه مرض نفسي أو فكري والإسلام صحة نفسية وعقلية ..

كنت أناقش رجلاً كندياً يسائلني بضيق عن موقف الإسلام من المرأة . فجاء في حواري ، المرأة حرة في اختيار زوجها ، ولا يمكن إكرابها على قبول من تكره ، وهذا أن تبادر عقدها أو توكل فيه كما تشاء ...

وكان هناك من يرقبنا وهو ساخط وحمدت الله أنه لاذ بالصمت ! فلما انتهى الحوار اقترب مني المعارض المؤدب قائلاً : لا يجوز أن تبادر المرأة عقدها ، بل الدين ضد هذا ! .

قلت له : رأيك ضد هذا . قلدت فيه بعض المذاهب الفقهية ، ورجحت أنا وجهة النظر الأخرى ، واعتقدت أنها أقرب إلى عقول الأوروبيين والأمريكيين ، والعمل عليها يحرى في أقطار إسلامية محترمة ، ومن مصلحة الإسلام أن تسع دائرة هذه الأقطار ..

إن شرًا مستطيرًا يصيب الإسلام من تقوّع بعض أتباعه في آراء فقهية معينة شجرت في ميدان الفروع ، ويراد نقلها من مكانها العتيد لتعتبر عقائد ، وقيمه الكبرى والرجل الذى يخسر السوق كلها لأنه يفضل دكانًا على دكان أو سمسارًا على سمسار لا يسمى تاجرًا .

خطيئة الأصدقاء الجهلة

لو قام في هذا العصر مجتمع إسلامي واضح المعالم في بيان مكانة المرأة وميدان عملها ومحال نشاطها لاختفى من الدنيا فساد كثير ! إن أصحاب الطياع السليمة يكرهون الاختلاط المسعور في حضارة الغرب والتكتشف الفاضح هناك واستخفاء جو الأسرة ، وانطلاق الغرائز دون ضابط ، وهم يتطلعون إلى بدليل أفضل فلا يجدون .

لأن صياغ الغلاة من المسلمين ألقى في روعهم أن الإسلام سجّان المرأة وعدوا اكتئاها الإنساني ، وأنه تحت ضغط المدينة الحديثة أذن لها بالتعلم وهو كاره ، وأذن لها بالذهاب إلى المسجد يوم الجمعة وهو ضائق !

وربما تشبه بعض حكامه بالغرب فسمح للنساء بأن يشاركن في الانتخابات ويتنظمن في مجالس الشورى ، وهؤلاء الحكام موضع سخط الم الدينين .

ولو نجح أهل الدين في تولي السلطة لغلقت على النساء الأبواب ، ولم يُر وجه واحدة منها .. !

أقول : والكارهون للإسلام والخائفون من عودته لهم العذر عندما يتقطون للدين هذه الصورة الكالحة الشameه ، والغلاة من الصنف الذي ذكرنا آنفاً يشبهون أهل الكتاب الذين قيل لهم عند بعثة محمد - عليه الصلاة والسلام - « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً من كنتم تحفون من الكتاب » ...

هؤلاء الغلاة يخفون عن عمد وسوء قصد أن المسلمين كن يصلين في المسجد الصلوات الخمس من الفجر إلى العشاء ، وكن يشاركن في معارك النصر والهزيمة وكن يشهدن

البيعات الكبرى ، وكن يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر ! كانت المرأة إنساناً مكتمل الحقوق المادية والأدبية ، وليست نهاية اجتماعية كما يفهم أولئك المتطرفون الجاهلون ، وكما أشاعوا عن الإسلام فصدّوا عنه ونفّروا منه ، يقول الأخ الأستاذ أحمد موسى سالم «الشرع في حكمة الخالق وعدله هو نصير المرأة ومنصفها ومنحها كل الحقوق التي تقررت للرجل ، والتي تكفل حرية إرادتها في علاقتها به وتعاملها معه» .

وهذا المعنى يؤكده قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة حين يقول : «سبقت الشريعة الإسلامية كل شريعة أخرى في مساواة المرأة بالرجل ، فأعلن الإسلام حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأمم ، ومنحها كل حقوق الإنسان ، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المدنية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها وهذه المزايا لم تصل إليها حتى الآن بعض النساء الغربيات» ..

نعم توجد استثناءات قليلة تُعدّ من قبيل الشذوذ الذي يؤكّد القاعدة ، وهذه الاستثناءات لم تنشأ لإهانة المرأة وإنما وضعت لتنسجم مع طبيعتها أو وظيفتها الاجتماعية ، وإلا فالأساس العام قوله تعالى : «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً» .

إن حاجة العالم إلى الإسلام ملحة بيد أن ناساً من ذوى الجهالة والجرأة ، لا يعلمون ويكرهون من يعلم ، لا يعملون ويكرهون من يعمل وقفوا في هذا العصر سداً أمام تيار الإسلام يعکرون صفوه وينعون ورده ! ويصدّون الأمم عنه ..

هؤلاء الأصدقاء الجهلة أخطر على دين الله من الأعداء الحاقدين ، والغريب أن صوتهم بعيد المدى كأن هناك شياطين خفية تمده بالقوة ، هل هؤلاء الشياطين هم أعوان المستعمرين ؟

الدور الغائب للمرأة

يتناقض الحزبان اللذان يتناوبان الحكم في الولايات المتحدة على استرضاء اليهود ونصرة قضاياهم وترسيخ أقدامهم في كل ميدان .. !.

والأمريكيون - إذ يفعلون ذلك - يخونون مبادئ الفضيلة والعدالة وحقوق الإنسان ، ثم هم يهدرون مصالح بلدتهم عندما يؤثرون اليهود على العرب وعندما يضخّون بمليار مسلم من أجل عشرة ملايين يهودي ! .

ويظهر أن القيمة الاقتصادية للعرب والمسلمين - على ثقلها - لا تخيف الشعب الأمريكي ، ولا تلزمه خط الاعتدال ..

والغريب أن رجلاً من أعظم رجالات أمريكا ومن أشهر قادتها حذر قومه منذ قرنين خطر اليهود ، وقال : «إذا لم يتبنه الدستور الأمريكي لاستبعادهم في خلال المائة عام القادمة فسينسابون إلى البلاد بأعداد كبيرة ويتمكنون من تدمير المجتمع الأمريكي وتبدل القيم الإنسانية التي قام عليها ..».

هذا الرجل الناصح المخلص هو «بنيامين فرنكلين» ، ولكن صيحته لم تجد آذاناً صاغية ولا ضمائراً واعية ، ولن يعرف الجمهور التائه خطأه إلا بعد فوات الأوان ..

واليوم يتسابق المرشحون لرئاسة الولايات المتحدة إلى منح اليهود وعدواً من جيوب الآخرين ومن حقوقهم المادية والأدبية : هذا يقول : القدس كلها عاصمة إسرائيل إلى الأبد ! وهذا يقول : لا دولة للفلسطينيين ! وهذا يقول : برنامج حرب الكواكب لحماية

أمريكا واسرائيل ! وهذا وهذا ... كان إسرائيل أهم من أن تخسب الولاية الحادية والخمسين في العالم الجديد ! .

ولكن شيئاً شاداً لفت نظري وأرجو أن يلفت أنظار القراء العرب ! . هو أن مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة له زوجة شديدة التعصب لإسرائيل ، تعلن ولاءها لليهود ظاهراً وباطناً ، وتذكر أنها ستقضى بقية عمرها في إسرائيل إن فاتتها إتفاق أيام الشباب مع الصهاينة الزاحفين ! وقد ذكرت إحدى الصحف العربية الكبيرة هذه القصة المثيرة تحت عنوان «ملكة إسرائيلية في البيت الأبيض» ! .

ولا أدرى لماذا عادت إلى ذهني قصة «إيزابيلا وفرديناند» بطل القضاء على الأندلس منذ خمسة قرون ! إنها قصة ذات مغزى ! بيد أنها نحن العرب مصابون بفقدان الذاكرة ، وانعدام الوعي ..

المرأة عندنا ليس لها دور ثقافي ولا سياسي ، لا دخل لها في برامج التربية ولا نظم المجتمع ، لا مكان لها في صحون المساجد ولا ميادين الجهاد .

ذكر اسمها عيب ، ورؤيتها وجهها حرام ، وصوتها عوره ، وظيفتها الأولى والأخيرة إعداد الطعام والفراش ! .

المرأة اليهودية تشارك مدنياً وعسكرياً في قيام إسرائيل ،وها هي ذي توشك أن تكون ملكة في البيت الأبيض تضع اللمسات الأخيرة في الإجهاز علينا ، ولا يزال نفر من أدعياء التدين يجادلون في حق المرأة أن تذهب إلى المسجد وتحضر الجماعات ، إننا نموت قبل أن يحكم علينا غيرنا بالموت ! فهل نعي ونرشد ؟

المساواة ثابتة في القرآن

تتجه دول أوروبا الغربية إلى وحدة شاملة تلم أطرافها اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً . وليس هذا موضع نظرنا هنا ، وإنما ننظر في الروابط الفكرية والروحية التي تكمن وراء هذه الوحدة أو تدفع إليها ..

وقد تحدث المحدثون هناك عن تراث اليونان الفلسفى ، وعن تراث الرومان الدينى على أن التراثين هما المهد الأول لأوروبا المعاصرة بعد ما عراهما من تغيير وتحوير في عصر الإحياء .

وليس هذا أيضاً موضع نظرنا هنا ! إننا ننظر هنا إلى جوانب من قضية المرأة لأن هذه الجوانب تتجاوز أصحابها إلى سائر العالم ، فالحضارة الأوروبية هي التي تقود الدنيا كلها الآن ..

إن فلاسفة اليونان ما أنصفوا المرأة ولا أعزوا جانبها ولا أعلوا مكانتها بل إن تاريخ أولئك الفلاسفة ملطف بالعار موغل في الشذوذ والإسفاف وليس يعنيهم في انطلاق الشهوات أن تنحرف أو تستقيم . !.

وتاريخ الرومان ليس أشرف من تاريخ اليونان ، وزنوات القياصرة لا تعرف حدوداً ، وامتلاء القصور بالنساء أمر مألف ، سواء كن إماء أو حرائر ..

وقد حاولت النصرانية أن تكشف هذه الغرائز الجامحة بالرهبانية الصارمة فكانت كما قال الشاعر :

إذا استشفيت من داء بدأ فاقتلت ما أعلّك ما شفاكَا !

إن مبادل رجال الدين ساوت مبادل رجال الدنيا أو أربت عليها . !

وقد تأملت في قصة الميل إلى المرأة فوجدت أن الصعاليك حسدوا الملوك على أكواخ المتع التي لديهم ، يريدونها أو يريدون مثلها ! إنهم لم يتأنوا لأن سليمان ملك ألف امرأة - كما روى كاتب العهد القديم - ولم يحزنوا لأن مئات من هذا الألف ضائعة الحق محرومة من رجال يرعاها وترعاها ، كلا ، ذلك لا يعنيهم ! إن تساؤلهم هو لماذا يملك رجل وحده هذا الخزن الملكي بالمعنى ؟ فلما حموا الإقطاع حولوا الحرير الخاص برجل واحد إلى حرير مشاع للجميع أو كما يقول أحمد موسى سالم « حريراً مفتوحاً في المطاعم والفنادق وعلى الأرصفة وتحت أشجار الحدائق العامة وبجوار حوائط الليل المظلمة - وفي ساحات المراقص اللعوب والأ控股 الساهرة فكل من شاء يفعل ما شاء ، مع من يشاء ومن تشاء ... إنه عنوان التحرر العجيب من الخلق والعفاف وضوابط النسل وحدود الله في الأسرة » ..

« هذا هو البديل عن الحرير القديم المغلق ، إنه القيمة الجديدة المباحة للجميع والمباحة للجميع والمملكة للأسرة في العالم كله » .

وكل مسلم يخاف على دينه وعلى أمته من هذه الحضارة التي نسيت الله والروح وأرخت العنان للغرائز الحيوانية تعربد دونوعي .

والإسلام الذي نقدمه علاجاً شريفاً لهذه الفوضى العامة الطامة لا يؤخذ من أفواه المحانين الذين ينادون بحبس المرأة فلا تخرج من البيت أبداً إلا لزوجها أو قبرها كما يقولون ، إننا نأخذه من تعاليم الإسلام الواضحة في الكتاب والسنة ...

ومصيبة ديننا في أناس يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويطيرون بحديث موضوع أو معلوم ليلغوا به الآيات البينات ، والسنن الثابتات البينات ..

إن الذي يتذمّر القرآن الكريم يحس المساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث وأنه إذا أعطى الرجل حقاً أكثر فلقاء واجب أقل ، لا لتفضيل طائش .

وقوامة الرجل في البيت لا تعني ضياع المساواة الأصلية ، كما أن طاعة الشعب

للحكومة لا تعنى الطغيان والإذلال فإن التنظيم الاجتماعى له مقتضياته الطبيعية ، ولا مكان للشطط في تفسيره ...

وهناك من يردد أقوالاً عن النساء لا تستحق إلا الإزدراء ! قال أحدهم : السفهاء هم الصبية والنساء قلت له : عمن رویت ذلك ؟ عن عمدة القرية أم شيخ البدو ؟ وزعم كذوب أن المرأة يساق فيها قوله تعالى : «كُلُّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَا تَوَجَّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ» ! قلت : تلك صفة نفر من الناس رجال أو إناث محروم من المواهب عاجز عن العطاء .. وينجلنـى أن هذا الوصف يكاد يطوى جماهير المسلمين في المشارق والمغارب بعد ما تخلـوا عن رسالتهم ونسوا كتابـهم ، وعاشوا عالة على الحضارات الغالبة ...

إنـى أحذر على الإسلام صنفين من الناس : المكذبون به ، والجاهلون به ، المكذبون به من أعدائه والجاهلون به من أصدقائه ... وأكرر ما قلته من قبل : إنـى أحـارب الأدوية المغشوشة بالقوة نفسها التي أحـارب بها الأمراض المنتشرة ...

والثغرة التي ينفذ منها أعداء الإسلام إلى بيضتنا ونحن نقاوم العزو الثقافي هي موقف بعض الشيوخ من قضايا المرأة فهم يقفون أحـجاراً صلبة أمام كل الحقوق التي قررها لها الإسلام يريدون تعطيلها أو تشويـها .

وقد عاصرت أيامـاً أنـكـرـ فيها الأـزـهـرـ تـعـلـيمـ المرأةـ فيـ الجـامـعـةـ ، كـماـ عـلـمـتـ عـلـىـ وجـهـ اليـقـينـ أنـ أـفـواـجاـ منـ الأـعـارـابـ ذـهـبـتـ إـلـىـ الرـيـاضـ تـسـتـنـكـرـ فـتـحـ مـدـارـسـ لـتـعـلـيمـ الـبـنـاتـ !.

ومع أنـ الدـنـيـاـ تـغـيـرـتـ فالـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـجـنـسـيـنـ وـحـقـوقـهـماـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ لمـ تـأـخـذـ بـعـدـ طـرـيقـهاـ الصـحـيـحـ ، وـذـكـ لـأـنـ بـعـضـ النـاسـ يـأـبـىـ أـنـ يـسـتـقـيمـ عـلـىـ مـنـهـجـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ !

يـقولـ اللهـ تـعـالـىـ : «وـالـمـؤـمـنـوـنـ وـالـمـؤـمـنـاتـ بـعـضـهـمـ أـوـلـيـاءـ بـعـضـ يـأـمـرـوـنـ بـالـمـعـرـوفـ وـيـنـهـوـنـ عـنـ الـمـنـكـرـ وـيـقـيـمـوـنـ الـصـلـاـةـ وـيـؤـتـوـنـ الـزـكـاـةـ وـيـطـيـعـوـنـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ» هذه رابطة ولاية وفاق بين الجنسين على مناصرة الحق ومحاصمة الباطل وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله . رابطة ولاية يتحول بها المجتمع كله إلى خلية ناشطة لها منهج وغاية ..

إـذاـ نـشـأـ عـقـدـ زـوـاجـ بـيـنـ مـؤـمـنـ وـمـؤـمـنـةـ فـإـنـ هـذـاـ المعـنىـ يـتأـكـدـ وـتـصـبـحـ الـعـلـاقـةـ الـجـدـيدـةـ

إخاء عقيدة . وشركة أعباء . وصحبة حياة . ووحدة هدف ، وتجاوب ثقافة ..

المجتمع الوضيع هو الذي يفهم الزواج على أنه عقد انتفاع بجسد ! أو يعرفه بأنه امتلاك بضع بشمن ، أو يراه شركة بين رجل تحول إلى ضابط برتبة مشير ، لديه امرأة برتبة خفير ! ! أين الود والتراحم والشرف والوفاء ؟؟

عندما أقرأ أن فاطمة بنت محمد طحت بالرحي حتى ورمت يدها أو حملت الماء في القرية حتى كلّكتنها أشعار بأن السيدة الفضلى لم تكن أنتي تخدم ذكرًا ، بل كانت أمًا مؤمنة تقيم بيًّا يربو فيه اليقين والحب ، فهي تقدم لرجلها ولولدها نفسها وما تملك .

لم يكن هناك رب بيت يصدر أوامر وامرأة ذليلة تنفذ ! بل كان هناك شريكان يتقاسمان السراء والضراء ! نجاحاً لأمرتين متساوين : حياة الدين الذي آمنا به ، وحياتهما الخاصة ...

وعلى ضوء هذا المعنى أفهم كلام أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله ، وكنت أرسوس فرسه ، وأعلفه ، وأحتشُّ له ، وأحرز الدلو ، وأسقي الماء ، وأنقل النوى على رأسي من أرض له على ثلثي فرسخ» .

إن جمهور الفقهاء يرى أن المرأة لا تكلف بخدمة الرجل ! ولكن الأمر ليس ما يقضى به القانون ، الأمر هنا ما تقضى به مصلحة الشركة القائمة بين مؤمن ومؤمنة ، الأمر هنا محكوم بعاطفة الإيثار لا بشعور الأثرة ..

والرجل قيم على بيته يقينًا ، وهذه القوامة تكليف قبل أن تكون تشريفًا وتضحية قبل أن تكون وجاهة .. المشكلة في الأمة الإسلامية أن الجهل عم الزوجين الذكر والأنثى . وأن العلاقة بين الجنسين تم النظر إليها من ناحية الشهوة وحدها ، أما رسالة الأمة الكبرى في العالم فها يدرِّبها الآباء ولا الأمهات ، الزواج عقد نكاح وحسب ! يحكمه منطق البدن الأقوى ... ! .

مراقبة الوظائف واجبة

في جنون المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في ميادين الأعمال ، وقعت قصة تستحق التسجيل ، فقد رأى البعض تشغيل الفتيات محصلات في الحالات العامة ! .

و «الباصات» في القاهرة تغضّ بحشود من البشر يزحم بعضها بعضاً . فلا يكاد الرجل الجلد يجد طريقاً بينها ، فكيف بالفتيات ؟

وعاشت التجربة يوماً ولم تكرر ..

ورأيت في عاصمة عربية «شرطية» تنظم المرور قلت : هذا عمل شاق . ما كان ينبغي أن تُدفع النساء إليه ! قد تشغله المرأة شرطية لتفتيش النساء مثلاً ، وما يشبه هذه الأعمال الخاصة ، أما الوقوف في الحر والبرد ، ودوران البصر وراء قوافل السيارات والمشاة فلا ...

وعندى أن الرجل أقدر على العمل في الطائرات من المرأة ، وأن وظيفة «مضيفة» ينبغي أن تختفي ، لا سيما في الرحلات البعيدة التي تفرض المبيت في الفنادق ، وبعد أياماً عن الأهل ...

وحكى لي صديق قادم من موسكو ، قال : إن النساء هناك يغسلن الشوارع في الصباح ، ويشتغلن بالأعمال كلها .. وإن خصائص الأنوثة من نعومة ورقه تكاد تختفي مع قسوة الواجبات التي تفرض على طوائف العاملات .. بل حكى لي أنه رأى عجوزاً تصعد مساء إلى السيارة ؛ قافلة إلى بيتها ؛ وهي تترنح لا أدرى أهي سكري أم من الإعياء ..

إنني أرفض هذه المساواة في الأعمال ، وعندما كنت شاباً رأيت في قريتنا رجلاً وزوجته يديران «الطمبور» يَرْوِيَانْ أرضهما ! قلت : هذا عمل شاق ، وقد جربته فأتعذبني ! لأن المرأة يكلف في كل دورة برفع عدة «جالونات» إلى أعلى .

يمكن للمرأة الفلاح أن تبذل الأرض مثلاً ، أما الأمومة والأنوثة فلا ينبغي تعريضها للمساق المعتنة ..

من أجل ذلك وافقت وأنا مستريح الضمير على ما نشرته منظمة الصحة العالمية ، شرق البحر المتوسط ، في تقريرها الأخير ، قال : وفي جميع الأحوال لا يليق بالمرأة أن تعمل في الحالات التي لا تلائم طبيعتها ، وأن تدخل في أي ضرب من ضروب الصناعة والحرف المضنية ، فالحالات التي تحسنها المرأة وتتناسب معها كثيرة ومتنوعة ، كميدان التعليم والطب والتمريض ، والرعاية الاجتماعية ، والكتابة والنشر ، وبعض الوظائف غير المرهقة ، و تستطيع فوق كل ذلك أن تغشى الأسواق في حشمة ووقار فتبيع وتبتاع .

أما أن تعمل المرأة كل أعمال الرجال ، كأن تكون شرطية وميكانيكية ؟ وعاملة في المصانع ، ومنظفة في الشوارع ، وسائقه للعربات وأدوات النقل وما شابه ذلك ، فلا يليق بها ولا يجوز لها أن تزاوله ، وقلما تساوى الرجال في هذا المجال ..

والدول الصناعية لم تنظر إلى عمل المرأة على أنه مساوٍ لعمل الرجل ... ولذلك اختلفت الأجور التي يتلقاها الرجال عن الأجور التي يتلقاها النساء . كما يلاحظ ذلك من بعض الإحصائيات العالمية ، حيث نجد أن هذه تتراوح ما بين (٥٩٪ - ٧٩٪) من الأجور التي يتلقاها الرجال في الأعمال المتماثلة .

ومن المفيد جداً أن نشير إلى الدراسة القيمة التي نشرتها مؤخراً جريدة الهيرالد تريبيون الدولية ، في عددها رقم ٣٢٦٥٠ بتاريخ ١٦ شباط / فبراير ١٩٨٨ ، فقد قامت الدكتورة روز فريش أستاذة الصحة العامة بجامعة هارفارد ، بدراسة أجراها على ٥٣٩٨ امرأة تتراوح أعمارهن ما بين ٢١ - ٨٠ عاماً ، وتقدمت بنتائج هذا البحث إلى الاجتماع السنوي للجمعية الأمريكية لتقديم العلوم ، وخلصت من دراستها إلى النتائج التالية :

- ١ - تصاب اللاعبات الرياضيات النشيطات باضطراب في الدورة الطمثية ، ويُصبح غير مُخصبات ، طالما يَقْعُنَ بالمارسة الرياضية ، ويمكن أن تعود الخصوبة إلى وضعها الطبيعي بالتوقف عن الممارسة الرياضية ، وأضافت الباحثة نصيتها إلى النساء قائلة : لا يمكن للمرأة أن تعمل كل شيء .. بمقدور كل واحدة منكن أن تصبح نجمة رياضية أو لاعبة ألمبياد شهيرة .. ولكنها إذا رغبت في إنجاب طفل فإن عليها أن تتوقف عن اللعب ، ذلك لأن المستوى الأدنى من التمارين يمكن أن يكون له عواقب ضارة على الجهاز التناسلي في المرأة .
- ٢ - ولقد أظهرت الدراسة أن ٢٦٢٢ امرأة من كُنْ يُمارسُنَ الألعاب الرياضية ، قد بدت عليهن أعراض سرطان الثدي ، أو الداء السكري ، أو سرطان الجهاز التناسلي ، في مقابل القسم الآخر من النساء وعده (٢٧٧٦) اللواتي لم تظهر عليهن هذه الأعراض .
- ٣ - بيّنت دراسة جامعة هارفارد إضافة إلى دراسة أخرى أجرتها جامعة البرتا أن الأعمال النشيطة التي تمارسها المرأة تؤثر جدًا في إنتاج «الاسترجينات» التي تحكم في الإنجاب لدى المرأة .
- ٤ - أشارت هذه الدراسة مع أخرى مماثلة أجرتها جامعة كندية ، أن النساء اللواتي يُمارسنَ الأعمال المجهدة يُصَبِّنُن باضطراب الإخصاب حتى لو استمر الطمث لديهن على وضعه النظامي .

أظن بعد هذه التجارب والاستقراءات أن الأفضل للمرأة الوقوف عند حدودها الفطرية ، واليأس من نشدان المساواة المطلقة مع الرجال في هذا الكدح المضنى ... وما يعقبه من آلام .

لکی یتپھر المجتمع

من المشكلات المضنية للبشر أن الغريزة الجنسية تولد وتحرك وتقوى في سن اليفاعة ، أى حوالي الخامسة عشرة من العمر ، أى قبل اكتمال القدرة العقلية ، واستطاعة النهوض بأعباء الزواج ، ورعاية الأسرة ، ومعاملة الصاحب الآخر بعذالة وشرف ..

إن الزواج ليس تنفيسا عن ميل بدئي فقط ! إنه شركة مادية وأدبية واجتماعية تتطلب مؤهلات شتى ، وإلى أن يتم استكمال هذه المؤهلات وضع الإسلام أساس حياة تكفل الطهر والأدب للفتيان والفتيات على سواء ..

وأرى أن شغل الناس بالصلوات الخمس طول اليوم له أثر عميق في إبعاد الوساوس المهاشطة ، ينضم إلى ذلك منع كل الإثارات التي يمكن أن تفجر الرغبات الكامنة ..

إن الحجاب المشروع ، وغض البصر ، وإخفاء الزيادات ، والبعدة بين أنفاس الرجال وأنفاس النساء في أى احتلاط فوضوى ، وملء أوقات الفراغ بضرورب الجهاد العلمي والاجتماعي والعسكري - عند الحاجة - كل ذلك يؤتى ثمارا طيبة في بناء المجتمع على الفضائل ..

ثم يجيء الزواج الذي يحسن التبشير به ، كما يحسن تحريره من تقاليد الرياء والسرف والتتكلف ، التي برع الناس في ابتداعها فكانت وبالا عليهم ..

إن من غرائب السلوك الإنساني ، أنه هو الذي يصنع لنفسه القيود المؤذية ، وهو الذي يخلق الخرافة ثم يقدسها !!

وقد رأيت أن المسلمين في أقطار شتى جعلوا الحلال صعب المنال . وفتحوا الأبواب لوسائل الإغراء ، كي تهيج الساكن من الغرائز ، حتى الإعلان عن السلع في التلفاز تقوم به الفتيات المتكشفات ، بل إن بعض البرامج تشرف عليها فتيات يقدّسن آخر تسمية للشعر في الغرب ! بل قد يظهرن بعدة تسميات في يوم واحد !

يقول الكاتب المؤرخ « ول ديوانت » في كتابه « مباحث الفلسفة » :

فحياة المدينة تفضي إلى كل مثبط عن الزواج ، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية ، وتبسيّر كل سبيل يسهل أداؤها . ولكن النمو الجنسي يتم مبكراً مما كان من قبل ، كما يتأخّر النمو الاقتصادي ، فإذا كان قع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعي ، فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً ، وغير طبيعي في حضارة صناعية أحلّت الزواج حقّ بالنسبة للرجال ، فقد يصل إلى سنّ الثلاثين ، ولا مفرّ من أن يأخذ الجسم في الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس مما كان في الزمن القديم ، وتتصبّح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ، ويختنق الحياة الذي كان يضفي على الجمال جمالاً .

ثم يفاخر الرجال بتعذّر خططيّاتهم ، وتطلب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة ، على قدم المساواة مع الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً ، وتحتفظ البغایا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقة الشرطة ، لقد تمزقت أوصل القانون الأخلاق الزراعي ، ولم يعد العالم المدني يحكم به .

ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن يجعل تأخير الزواج مسؤولاً عنه .. ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية ، وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله .

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة ، لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع من يتسلّكن في ابتدال ظاهر ، ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ، ومنظماً بأسمى ضروب

الإِدَارَةُ الْعَلْمِيَّةُ ، وَيَبْدُو أَنَّ الْعَالَمَ قَدْ ابْتَدَعَ كُلَّ طَرِيقَةٍ يُمْكِنُ تَصْوِيرَهَا لِإِثْرَةِ الرَّغْبَاتِ وَإِشْبَاعِهَا .

يتابع الكاتب بحثه فيقول :

«حتى إذا سُئلت فتاة المدينة الانتظار ، اندفعت بعالم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية ، فهى واقعة تحت تأثير إغراء محيف من الغزل والتسلية ، وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالماهوج الجنسية ، وقد ترجع حرية سلووكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية ، فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة بربعت مثله في فنون الحب ، ولكن قدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر يتخلّى عن تردداته ، إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً ، في مستواهما الحاضر من المعيشة» .

ذاك الوصف قبل ستين سنة مما يقع الآن ، وهو أشد سواداً ، والسرّ كلّه في هجران الوحى واتّباع الأهواء ، وانطلاق الناس حسب رغباتهم ، لا يردعُهم دين ، ولا يخافون عذاب الآخرة ... !

إن الإسلام الحق هو الدواء الناجع ، والعناصر التي يقدمها لقيام مجتمع ظاهر ، تchan فيه الأعراض ، وتسود أرجاءه العفة تبدأ من البيت ، فالصلوات تتنظم أفراده كلهم الصبية والرجال ، ويراقب أداؤها بتلطف وصرامة ، وتراعي شعائر الإسلام في الطعام واللباس والمبيت والاستدان ، واستضافة الأقارب والأصدقاء ...

والشارع ليكون إسلامياً ينبغي أن يتعاون الجالسون والمأروون فيه ، على سحق الكلمة البذيئة ، والنظرية الجريئة ، وعلى مطاردة العصيان والعرى بما في الوسع - كما حدّدته الشريعة في قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

وعندما يتثبت كل جار بجراه في مرضاه الله ، فلن يبقى في الشارع شاذ ولا متهاون ، ولن تجد الرذيلة مهرباً تخفي فيه ..

والإعلام عليه أن يوسع دائرة الثقافات النافعة ، وأن يقدم من التسلية أنظفها لفظا .
وأشرفاها غرضا ، وأبعدها عن إيقاظ الشرور ..

إن جوانب الحياة العامة كثيرة ، وهي مسؤولة عن صون البيت وإشاعة الطهر .
وإنشاء أجيال أدنى إلى الاستقامة .

خطر القنبلة الجنسية

حضرت دورة لمنظمة الصحة العالمية شرق البحر المتوسط ، وكانت استفادتي منها واسعة ، واطلعت على حقائق إنسانية رأيت أن أشييعها بين جمهور القراء .. يقول « جورج بالوشى هورفت » في كتابه « الثورة الجنسية » : الآن بعد أن كادت مخاوفنا تهدأ من الخطر الذري ، وتستريح للتصالح بين القوى العظمى ، ألا توجد حوافر بشرية تُحسّنُ القلق البالغ للأهمية البالغة التي يكتسبها « الجنس » في حياتنا اليومية ؟ ! ألا نشعر بالخشية إذ نرى أمواج الشهوات الجنسية وغارات العرى والإغراء لا تهدأ حتى تثور ؟ .

إنه يجب أن يشغل الناس اشغالاً جاداً بالقوة الاهائلة التي يمكن أن تبلغها الحاجة الجنسية إذا لم يفككها الخوف من الجحيم أو الأمراض المعروفة أو الحمل ... ! إن القلقين على مستقبل العالم وفضائله يشعرون بأن أطناناً من القنابل الجنسية تنفجر كل يوم وينشأ عن انفجارها دمار واسع ..

« الواقع أن مستقبل الأجيال الناشئة محفوف بالمكاره ، ربما يتحول أطفال اليوم إلى وحوش عندما تخيط بهم وسائل الإغراء المتتجددة بالليل والنهار ! إن تشويهاً كبيراً سوف يلحق البشر حيث كانوا .. » .

وكتب « جيمس رستون » في « النيويورك تايمز » إن خطر الطاقة الجنسية قد يكون في نهاية المطاف أكبر من خطر الطاقة الذرية .. !!

« ويلفت المؤرخ « أرنولد توينبي » النظر إلى أن سيطرة الغرائز الجنسية على السلوك والتقاليд يمكن أن تؤدي إلى تدهور الحضارات ». .

إن العلاقات الحرام لم تعد نزوات عابرة ، إنها نمت كالسرطان الخبيث وتطاير شررها ، وطورها الشيطان تطويرا واسع الأرجاء .

فلم يعد الجنس تلك العلاقة الحسية القائمة بين زوجين اثنين أو حتى بين شخصين لا يربطهما عقد شرعى أو قانونى ، بل أضحت عالما واسعا بكل مافيه من فنون ووسائل ومثيرات .

وفي الواقع يستحيل اليوم السير في أي مدينة كبيرة دون التعرض « للقصف الجنسي » الحقيقى .. إعلانات من كل حجم ، مجلات وأغلفة مصورة ، أفلام سينمائية ، صور معروضة في مداخل علب الليل ، وألاف من الفتيات والنساء يرتدين ثيابا كان يمكن أن توصف بقلة الحشمة منذ عهد قريب .

إن اللواط والسحاق والمارسات الجماعية للجنس والزواج التجربى ، ونوادى الشذوذ ، ونوادى العراة ، والمجلات المجانية ، والأفلام الجنسية الفاضحة ، والصور الخليعة .. إلخ كل هذه وغيرها أصبحت السمة المميزة للمجتمعات البشرية في شتى أنحاء الأرض .

إن الإسلام ربط بين نسيان الله وغلبة الهوى ، أو بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات .. وعندما فتح المسجد للنساء جعلهن صفوفا خاصة فلم يخلطهن بالرجال . وأمرهن أن يجهن محتشمات قانتات الله .

وأمر كلا الجنسين بغض البصر ، وأمر النساء خاصة ألا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها بطبعته في الوجه والكفين .

« ودعا دعوة عامة بعد ذلك إلى الزواج وجعله نصف الدين ». .

وقد نسى الغلاة هذا كله ، فحبسوا النساء في البيوت حبسًا مطلقا ، ووضعت تقاليد للزواج جعلته يقصم الظهر ..

ولأنريد أن نتحدث عن أثر ذلك محلياً وعالمياً على سمعة الإسلام والمسلمين .
إن مسالك العرب عندما يسيرون في عواصم الغرب تصبح الوجوه بالعار ، وبخثهم عن
الشهوة في كل أفق يثير العجب !
ألا نفكري بجدّ في الأسلوب الأمثل لتنفيذ وصايا الإسلام في بلادنا ؟

الإسلام في بلاد المهاجر

دخل في الإسلام مئات الألوف من الفرنسيين وما أشك في أن هؤلاء المهاجرين سعداء بما أتاح القدر لهم ! غير آبهين للمتابع التي ت تعرض مسيرتهم بين الحين والحين ! .
لقد كانت فرنسا - وما زالت - من أشد الدول تعصبا ضد الإسلام ، فهنا انبعثت أولى الحملات الصليبية ! وفي القرنين الأخيرين خاضت حربا دينية ضد الجزائر أهلقت الحرب والنسل ! وقد ذكر الجنرال دي جول في مذكرة أنه الشعب الفرنسي قدّم في عهده وحده نحو ١٥٠ طنا من الذهب للإسهام في تنصير الجزائر ! ..

والفرنسيون كاثوليك ، وعندما حاول البروتستانت نشر مذهبهم في البلاد ، بيتهم الجمّهور الغاضب في ليلة ليلاء ، وقتل منهم نحو أربعين ألفا ، وبذلك وقف زحفهم !! وتعرف هذه المأساة بمذبحة « سان بار تلميو » !

وإنما أذكر هذه الحقائق لأبين أن من أسلم من الفرنسيين قد اجتاز عقبات كثيرة ، وتعرض لأحزان ومخاوف ! وليس هذا وحده أساس المشكلة ، بل لعل الأساس الأسبق هو حال المسلمين المهاجرين إلى فرنسا من إفريقيا وبعض أقطار آسيا ، إنهم مسلمون متخلفوْن عقليا وخلقيا لا يشرفون دينهم ، ويستغل سوادهم بالحرف الدينية ، وإذا وازناهم باليهود المقيمين في فرنسا أو النازحين إليها وجدنا البون بعيدا ...

وجدير بالتسجيل أن فرنسا عندما احتلت الجزائر وواجهت مقاومة دينية صعبة ، فكرت في نقل « موارنة لبنان » إلى القطر المستعصي ! . ولكن هذه الفكرة استبعدت لأن فرنسا بحاجة إلى هؤلاء في الشرق الأوسط !! فليس يعني عنهم بدليل آخر !

وكنت أظن الأجناس اللاتينية وحدها هي التي تنفرد بتلك المشاعر المحتقرة ضد الإسلام . فلما تأملت المذابح الطائفية في الهند ، ومقاتل الألوف من المسلمين المستضعفين عرفت أن السياسة الانكليزية من وراء هذا البلاء الشديد !

إن موقف أوربا من الإسلام وسياساتها ضده يجب أن يدرس بعناية ودقة ، وقد انتهى عهد الاستعمار العسكري تقريريا ، وببدأ عهد آخر من الصراع الديني نريد أن نقف تجاهه قليلا ، فهو يعنيانا من قريب ومن بعيد !

يقول الدكتور حسان حتحوت : إن دول أوربا ما كادت تخرج من الحرب العالمية الثانية ثاكلة ملايين الأبناء حتى وقعت في فخ حركة تحديد النسل خشية الإملأة أو حفاظا على مزيد من الرفاه ! فلما عجزت عن توفير السواعد التي تكفي حاجة العمال فتحت أبواب الهجرة للعمال الوافدين من هنا ومن هناك ، وفرحت بما يقنعون به من أجور رخيصة ..

وكان هؤلاء العمال قادمين من بلاد يسودها الفقر والاستبداد ، فأنسوا بالحياة الجديدة ، وطابت لهم الإقامة ، واكتسبوا جنسيات دول المهاجر ، وأصبح لهم فيها شأن وكيان ، وتغير مجتمع العرق الواحد والدين الواحد فأصبح أعرافا وأديانا ...

ثم يقول الدكتور كلاما جديرا بالدراسة : في بروكسل التي تعتبر نفسها عاصمة أوروبا سيكون واحد من كل اثنين من المواليد اعتبارا من سنة ١٩٩٥ مسلما أما في بريطانيا فعدد الذين يتكلمون باللغات الهندية ضعف الذين يتكلمون لغة « ويلى » ! وفي فرنسا يبلغ عدد مسلميها سبعمائة ألف ، وهو ضعف فرق الأصوات بين الرابع والخامس في انتخابات رئاسة الجمهورية سنة ١٩٧٤ وفي برلين الغربية ثلاثة محطات تليفزيونية تذيع بالتركية ، وفي بعض مدن أوروبا يزيد عدد المساجد على عدد الكنائس .. والمذين تُنشرح صدورهم بالإسلام من أهل البلاد لا ينقطعون ...

ماذا تعنى هذه الحقائق كلها ؟ إنها تفرض علينا نحن المسلمين أن نعيد النظر في علاقاتنا بغيرنا من سائر الملل والنحل ، وأن نعود إلى قواعdenا الأولى في فقه الإسلام وإحسان عرضه ، ومن قبل ذلك إحسان العمل به وتطبيق أحكامه !

على المسلمين في مهاجرهم أن يألفوا المسجد ، وأن يفتحوه للرجال والنساء والأولاد .
وأن يتعهدوا رسالته الروحية والثقافية ، وأن يتعارفوا بينهم تعارفا صادقا حاراً ، فإن تلاقى
الأجساد لاثمة له ..

وعليهم أن ينشئوا أندية حسنة لشئ الأنشطة العامة يشارك فيها الجنسان جميا ، وتبرز
فيها تعاليم الاحتشام والاستغافل التي أكدتها الإسلام ، وتحنن منها قاذورات الخمور
والمخدرات التي استهلكت الغرب وتوشك أن تقضي عليه .

ولتكن هذه المساجد والأندية مجالا للحديث بالعربية ومذاكرة لكل ما يحفظ
الشخصية الإسلامية ، ويقوى حال الود بين المغاربة المستوحشين ..

وللتزاور الأسر وتبادل العلم بالشئون الخاصة وال العامة . وتعاون على البر والتقوى ،
ومن الجنون أن يرى الطالب المسلمطالبات الآخريات متبدلات ومثيرات ولا يؤذن له
برؤية مسلمة تؤمن بربها وتتصون عرضها وتترفع عما يقارفه غيرها ..

يجب أن ننشئ جوا يمكن فيه الزواج وفق شرائع الله حتى لا تذوب فضائلنا في حريق
الشهوات المستعرة هناك .

ولنعلم أن الحفاظ على ديننا وأمتنا يحتاج إلى العقل المؤمن أو الإيمان العاقل ،
ولا يصلح له أنصاف المتعلمين الذين يحسنون الهياج ولا يستطيعون الإنتاج ..

وعلى الأوطان الأم لا تنسى من هاجروا منها ، بل ينبغي أن تعهد لهم بالرجال
والكتب والصحف وشئ المعونات الأدية ..

ومن رأى أن المهاجرين في أوربا وأمريكا يجب أن يسعوا إلى التعرف على الآخرين
باسطين أيديهم بالولد ، وأظن التصدق بالابتسامة لا يكلف كثيرا !!

إن الجاهلين بنا معدورون ، فإن آلاف الكهنة كذبوا طويلا على نبينا ، وأشاعوا عنه
الإفك .. كما أن السفهاء منا قدّموا عن الإسلام صورا مخزية ، وبغضوه لدى الحالين
والسذج ، وهذا وذاك يفرضان علينا الصبر في تصحيح الأخطاء وإرشاد السادرین ..

إن أوربا الغربية موشكة على التوحد ، وقد تنضم إليها أوربا الشرقية وطوائف المسلمين الذين عاشوا هنالك قادرون على عمل الكثير لدينهم ولأنفسهم ! .

والقضايا التي تثار ضد الإسلام لا تتصل بعقائده ولا بعباداته ! إن أعداء الإسلام هم مكر سيئ في استغلال أقوال وأحوال الجاهلين به ، لاسيما في ميدان المرأة .

من أجل ذلك أنسح بالضرب على أيدي الجرائم على الفتوى من أدعياء الفقه الذين لاشغل لهم في هذه الأيام إلا الصياح بوجوب النقاب وتحريم التصوير ، والثرة بأمور لا وزن لها ولا خير فيها .

حوار مع ماركسي !

جاءني بعض فتيات يشكون لي أن مدرس الفلسفة يحاول إقناعهن بأفكار مضادة للدين وأنهن تعنّ من مجادلته ، واقترحن عليه أن يلقاني ليتكلم معى بما عنده .

قلت : هاتوا به في أى وقت ! وجاء الأستاذ فسألته : أنت شيوعي ؟ قال : أنا ماركسي ! قلت له : تتبع ماركس في إلحاده ؟ أم في اقتصاده ؟.

فترثي ث قليلا ثم قال : بل في إلحاده أولا ، لا إله والحياة مادة !!

قلت له - وأنا أنظر إلى جسمه العريض وقامته المديدة - كان وزنك عندما ولدت بضعة أرطال ، وها أنت تزن أكثر من مئتي رطل فلن جاء بهذه الزيادة ؟ قال : طبيعة الأجسام ! قلت : الطبيعة حولت الأطعمة التي تناولتها إلى هذا الكيان الحي ؟ إنها أطعمة ميتة فكيف تحولت إلى لحم وشحمة تسري فيها الحياة ؟ الرغيف تقطعه بالسكين فلا يتآلم وبعد أن تأكله ويتحول جزءا من بدنك تشكيه بدبوس فيضر ببدنك من الألم ! من الذي أخرج الحي من الميت ؟ قال ببرود : قلت لك إنها الطبيعة !.

قلت حسنا ، إنها طبيعة عالمة قادرة ! هل تصنع ذلك معك وحدك أم مع خمسة آلاف مليون من البشر يحيون على ظهر الأرض ؟ قال - وهو يتوجس خيفة - مع سكان الأرض جميرا ! قلت : لاريبي أنها طبيعة علمية قديرة حكيمه عظيمة تلك التي تعهد الألوف المؤلفة من الطفولة إلى الصبا إلى اليافاعة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الشيخوخة ... إلخ .

وف هذه المراحل كلها تهيء الألوف المؤلفة من الأجهزة للقضاء والهضم والامتصاص وتوزيع الغذاء على الأعضاء ، ودفع الرئات في الصدور للحركة الدءوب ، ودفع الدم في العروق مدةً وجزرا ، في نبض مستمر آناء الليل وأطراف النهار ..

إنها طبيعة حية تقوم على كل شيء ! ألا ترى ذلك معى ؟ قال وفي نبرته إحساس الوحش الذى يقاد إلى خطر داهم : إن الطبيعة ذكية ! فأجبته ، هذا الذكاء الملحوظ صفة عابرة ، لابد من موصوف تقوم به ، وقد اعترفت بأنك وجميع الأحياء معك تم إيجادهم وإمدادهم بطريقة تم عن علم وقدرة وحكمة وعظمة فهل التراب أو الهواء صاحب هذه الصفات الرائعة ؟ أم أن هناك موجودا تلتقي في ذاته هذه الصفات كلها ؟.

قال : لا معنى للف والدوران ، قلت لك : إنها الطبيعة ! فسألته : أترى الطبيعة اسمًا من أسماء الله الحسنى ؟ إن عالمنا الذى نعيش فيه مفعم بحياة متجدد يدل سيرها كما قلت معى على العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة الفائقة والعظمة الباهرة فما المذات التى تنبثق منها هذه الصفات ؟ إن الصفات لابد أن تكون لشيء ! .

قال : يبدو أنك شيخ زاوية مجادل ! قلت : دعك مني ! لأنك شيخ زاوية أو شيخ بادية ما يعني هذا شيئا .. إذا قلت : إنك تخين فالصفة ملتصقة بذاتك أنت والصفات التى استيقنا من أنها وراء الكون الكبير هى صفات إله أكبر لامحالة ..

قال : هذا تفكير رجعى بائد ! قلت ساخرا : مadam العقل اليقطان قد صار رجعية والغباء الصفيق قد صار تقدمية ، فأنا رجعى أيها الماركسي المغفل .

الباب الثاني

صفحات مطوية

- ١ - هكذا كان قدرها.
- ٢ - هل دلّل الإسلام المرأة؟
- ٣ - الأمر مدرسة.
- ٤ - في الجاهليّات القديمّة.
- ٥ - الجاهليّة العربيّة أشرف.
- ٦ - المرأة في عصور الانحطاط.
- ٧ - لنعرف الموقف الصحيح.
- ٨ - مرويات مسيئة للإسلام.
- ٩ - زوجات الرسول (١)
- ١٠ - زوجات الرسول (٢)
- ١١ - ماذا تفعل نساوينا؟
- ١٢ - امرأة بـألف رجل!
- ١٣ - امرأتان ننادرتان.
- ١٤ - الصديقة الأديبة.
- ١٥ - المرأة في العلم والأدب.
- ١٦ - في مواجهة الكذاب.
- ١٧ - قاتلت "الحمد".

هكذا كان قدرها

كلما رجعت إلى السيرة النبوية ازدادت معرفة بما كان للمرأة من مكانة ، وبما كفله الإسلام لها من حقوق ، لقد كانت لها شخصية مقدورة وأثر يحسب ! يقول المحدثون : لما نزل قول الله لنبيه « وأندر عشيرتك الأقربين » صعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفا ونادى : « يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله ، يا صافية عمّة رسول الله ويافاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكم من الله فإني لا أغني عنكم من الله شيئا ، سلاني من مالي ماشتني » .

إن نداء المرأة بهذا الصوت الجهير شيء مستنكف في عصرنا الأخير ، كنا نعد اسمها كشخصها عورة لا يجوز أن يعرف ! ونقول : ما للمرأة وهذه الشئون ؟ يكفي أن يحضر رجل من أسرتها ليبلغها ، أما أن تنادي على رعوس الأشهاد فذلك عيب !.

لكن المرأة في صدر الإسلام عرفت قدرها ، ولما سمعت مناديا يدعو إلى الإيمان سارعت إلى تلبيته ، وبحكم المؤرخون أن أخت عمر بن الخطاب كانت أسبق منه إلى الإسلام ، لقد أدمى وجهها عندما علم بإسلامها وهاجمها بقسوة فقالت له : يا عمر إن الحق في غير دينك ، وإن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. ثم أسلم عمر بعد !!

ودخل الرجال والنساء في دين الله ، وأعطوا المواثيق على اعتناق الحق والعمل به والذود عنه ، وانتظمت الصفوف في المسجد النبوي تستوعب الرجال والنساء على سواء روى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت « ق القرآن المجيد »

إلا من لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر في كل جمعة » .

أى أنها حفظت السورة كلها عن ظهر قلب من شدة انتباها وهى تسمع الخطبة ! وكانت سنة رسول الله في الخطابة أن يتلو القرآن الكريم وحسب ! وهى سنة مهجورة الآن ، كما أن من السنن المهجورة حضور النساء الجمع والجماعات ... ألا يثير ذلك شيئاً من التساؤل والدهشة؟.

ومن الطرائف أن امرأة كريمة موسرة كانت تصنع ولحمة بعد الجمعة يحضرها من شاء ، روى البخاري عن سهل بن سعد قال : كانت منا امرأة تحمل في مزرعة لها « سلقا » فكانت إذا جاء يوم الجمعة تتزع أصول السلق فتجعله في قدر ثم تحمل عليه قبضة من شعير بعد أن تطحنه ، فتكون أصول السلق عرقه - مرقه - قال سهل : كنا نصرف إليها من صلاة الجمعة فنسلم عليها ، فتقرب ذلك الطعام إلينا ، فكنا نتمنى يوم الجمعة لطعامها ذلك ، ولم يكن في الطعام لحم ولا دهن .. .

هذه امرأة مؤمنة سمححة تدخل السرور على الناس بما آتاهها الله من فضله ! ولو فعلت ذلك في عصرنا لأنكر المترمتون عليها ! ولقال كل جرىء على الفتوى : كيف يُلقي عليها السلام ؟ وكيف ترده ؟ وكيف تلقى الضيوف ؟ إلخ ، إن تقاليد المسلمين في معاملة النساء لا تستند إلى كتاب أو سنة .. وقد نشأ عن ذلك أن المثقفات في العصر الحديث تجهّهن للتراث الديني كله يحسبنه السبب في تجھيل المرأة ، وهضم مكانتها ، وإنكار حقوقها المادية والأدبية التي قررتها الفطرة وأكدها الوحي وبرزت أيام حضارتنا واستخفت مع انتشار القصور وغلبة الأهواء .

هل دلّل الإسلام المرأة ؟

قالت إحدى النساء : إن الإسلام هضم المرأة إذ جعل الرجل قادرًا على تطليق زوجته متى شاء ، إن هذه القدرة المتاحة له سيف مصلّت على عنق المرأة يهدّها ويذّهّبها .. !

قلت : يمكن في المقابل أن يزعم الرجل بأن الإسلام دلّل المرأة ويسّر لها التمرد إذ أباح لها مخالعة الزوج وترك البيت عندما تشاء . !

إن تصوير أحكام الأسرة وحدود الله داخل البيت المسلم لا يسوغ أن يقع في هذا الإطار المتواتر الخانق ، وينبئ أن تقاليد الشرق ، والأعراف الشائعة فيه من وراء هذا العوج الفكري ..

فالرجل ربّ البيت والقيم على الأسرة ، بيد أنها في أغلب الأحيان نظر الرياسة لوناً من الفرعونية أو الانفراد بالسلطة فلا تفahم ولا شورى ! الرئيس لا يعترف برأى آخر ولا يكترث بارادة أخرى !

وهذا الفهم لمعنى الرياسة أسقط الشرق سياسياً واجتماعياً ، وأضر بالدول والبيوت على سواء .

إن الرياسة الصحيحة عبء زائد ، ومسئولة أثقل ، وهي في البيت الإسلامي تتمة لجملة من الحقوق والواجبات المتبادلة كما جاء في الآية الكريمة « ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وأساس التعامل الحلق الزاكى ، والحب السيّال ، والإيثار الذى يرجع الفضل على

العدل والترفع عن ملاحظة الصغار ! ومن أدب العرب في بناء الأخلاق وتقويم السلوك
قول الشاعر .

ولا خير في حُسْنِ الجسوم ونبتها
إذا لم تَرِنْ حسنَ الجسوم عقول !
ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه
فحلوٌ ، وأما وجهه فجميل ... !
ذريني فإن الشحّ ، يا أم هيثم
لصالح أخلاق الرجال سَرْوَقُ !
لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق !

وقد لاحظت في سورة النساء الصغرى : «الطلاق» أن الإسلام شديد الحرث على
مزج التشريع بال التربية الأخلاقية ، والأحكام العملية بالأداب النفسية مثل «سيجعل الله
بعد عسر يسرا» ومثل «من يتّق الله يجعل له من أمره يسرا» ومثل «من يتّق الله يكفر عنه
سيئاته ويعظم له أجرًا» والويل للبيوت إذا تركت منطق الدين والخلق واتجهت إلى القانون
والقضاء ...

إن المجتمعات في الشرق والغرب اعترفت بأن الطلاق قد يكون ضرورة نفسية
واجتماعية ، وأنه ليس سوطا في يد الرجل بل قد يكون فكاكا لإسار المرأة .

وأعرف أسرًا إسلامية جعل الدين أفرادها جسدا واحدا فما يَعْبُرُ الطلاق بخارط أحد !
إن تمسكها أمن وأزكي .

ولكن الأمة الإسلامية في أيام اضمحلالها العقل والنفس نسيت وظيفة الأسرة وتنشئة
الأولاد وبناء المستقبل على الحاضر ، وربما علق أحد الناس مستقبل بيته على رطل لحم
يرفض شراءه ! فيحلف بالطلاق على ذلك ! ماذا نقول إلا ما قاله الله في هذه الأحوال
وهو يختم سورة الطلاق «وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا
شديدا ، وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبالاً أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا» .

الأُمّ مَدْرَسَة

خطر لي أن أعرف المستوى الثقافي للمرأة المسلمة في صدر الإسلام ، وقبيل شروق
شمسه !

إن الثقافة الغزيرة تعين الرجل والمرأة كلّيهما على ضبط الحقائق وإحسان الحكم على
الأمور والإشراف على تربية الأجيال الناشئة تربية مثمرة مجدهية .

وقد رأيت الابتعاد عن المصادر المتهمة والاتجاه إلى الشعر - وهو ديوان العرب -
لتحسّن سيرة المرأة وخلقها و موقفها من القيم السائدة في المجتمع ومدى وفائها للفضائل
الإنسانية على الإجمال ! .

ووقع في يدي - على غير تعمد - ديوان الحماسة لأبي تمام ، وشرعت أقرأ باب الرثاء !
فوجدت مراثي حارة لنساء كثيرات ي يكن فيها أحباءهن ، ورأيت أن اختار منها أولاً هذه
الأبيات لعمرة الختنمية بعد أن فقدت ابنيها ، فأخذت في سرد مناقبها ، قالت :

هُمَا أَخْوَا ، فِي الْحَرْبِ ، مَنْ لَا أَخَالَهُ
إِذَا خَافَ يَوْمًا نَبْوَةً فَدَعَا هُمَا ! !
هُمَا يَلْبِسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةَ
شَحِيحَانِ ما اسْنَطَاعَ عَلَيْهِ كَلَاهُمَا ! !
شَهَابَانِ مَنَا أَوْقَدَا ثُمَّ أَخْمَدَا
وَكَانَ سَنَىً لِلْمَدْلِجِينَ سَنَاهُمَا ! !
إِذَا نَزَلاَ الْأَرْضَ الْمَحْفُوفَ بِهَا الرَّدَى
يُخْفَضُ مِنْ جَانِبِهَا مُنْصَلَاهُمَا ! ! إِلَخ

والمنصل : النصل تعني السيف ، والأم الثاكل تفخر بشجاعة ولديها في وجه
الخطوف ، وتتحدث عن المجد الذي حققاه في حياتها ، وعن فضائل البذل والإيثار
والاستعفاف التي توفرت لها .

وقدان أم لولديها معا خطب فادح ، لكن العجيب أنها تحب في ابنيها الشرف والكرم ، ويفعلها ذاك على حزنهما .. ترى هل المرأة العربية اليوم على هذا المستوى ؟ في الوعي والسلوك والكفاح .

ولقد كانت قبل الاستعمار الحديث أمية لا تقرأ ولا تكتب ، وفرضت عليها هذه الأمية باسم الإسلام المفترى عليه ! فلما اجتاحت بلادنا الحضارة المادية المعاصرة ، فتحت أبواب المدارس للمرأة ، فلم تتعلم فيها حقائق التراث الغالي ومناقب المرأة في عصرها الأول .. كلاما لقد غزا عقلها الفكر الأوروبي ، ونهجه الشارد ، فإذا نحن أمام تقاليد لاتسرّ ومناهج لاتتفع بل قد تضر ! !

والسبب هو القصور العلمي الذي بلغ مرتبة الجهل المركب عند بعض المسلمين المتحدثين عن موقف الإسلام من المرأة . والصائرين بأصوات منكرة : المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد ، تخرج من بيتهما إلى الزوج أو إلى القبر ! .

ما أجمل قول حافظ إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق !!

في الجاهليّات القدِيمَة

الجاهليّات القدِيمَة للعرب واليونان والرومان وغيرهم ظلمت المرأة ظلماً مبيينا حين استقبلت الأنثى بتجهمٍ وحين اجتاحت حقوقها بلا اكتراش ، وقد لجأ أفراد شواذ في الأمة العربية إلى وادِ الطفْلَة عندما تولد ! وهو تصرفٌ وحشٌ مستنكرٌ فاحش ! .

وما نشك في أنه عمل فردٌ رفضه أولو الألباب وحقروا مقتفيه ، أما جمهرة العرب في الجنوب والشمال فقد صرّ صور موقفَهُم من الطفولة كلها قول الشاعر :

لولا بنّيات كزُغبِ القطا
رُددن من بعضٍ إلى بعض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
ويقول شاعر آخر في ابنته أميمة :

لولا أميمة لم أجزع من العدم
ولم أقس الدجى في حندس الظلَمِ
وزادني رغبةً في العيش معرفتي
ذلَّ اليتيمة يحفوها ذwo الرحم ..!
أحاذر الفقر يوماً أن يُلْمَ بها
فيهتك الستر عن لحم علىوضم ..!

والواقع أن جمهرة العرب كانت شديدة الغيرة على النساء تسترخص الدماء في الدفاع عنها . وتنحها الفرصة لتكون كريمة عظيمة ! كان المنذر اللخمي ملك الحيرة أنجب بنتا اسمها حرقة وابنا اسمه حريق !

ودارت الأيام وقد المنذر مملكته ، وانتقلت الأسرة من حال إلى حال ، فقالت حرقة في ذلك :

فيينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نَشَنَصَفُ !
فأَفَ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ! تَقْلِبُ تَارِاتُ بَنَا وَتَصْرِفُ !

فَلَمَّا فَتَحَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصَ أَرْضَ الْفَرْسَ ، أَتَهُ حُرْقَةَ بْنَ النَّعْمَانَ مَعَ عَدْدٍ مِّنْ جَوَارِيهَا تَطْلُبُ مِنْهُ الْعُونَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِنَّ وَسَأَلَ : أَيْتَكُنْ حَرْقَهُ ؟ قَلَنَ : هَذِهِ وَأَشْرَنَ إِلَيْهَا ! قَالَ لَهَا أَنْتَ حَرْقَةَ . قَالَتْ نَعَمْ فَمَا تَكْرَارُكَ الْاسْتِفْهَامُ ؟ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ زَوَالَ ، وَإِنَّهَا لَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ . إِنَّا كَنَا مَلُوكَ هَذَا الْمَصْرَ مِنْ قَبْلِكَ ، يَجْئِي إِلَيْنَا خَرَاجُهُ ، وَيَطْبِعُنَا أَهْلُهُ زَمَانَ دُولَتِنَا .

فَلَمَّا أَدْبَرَ الْأَمْرَ وَانْقَضَى صَاحِبُ بَنَا صَائِحُ الدَّهْرِ ، فَصَدَعَ عَصَانَا وَشَتَّتَ شَمْلَانَا ، وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يَسْعُدُ ! إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ بِسَرْرَوْرٍ وَجِدَاءِ إِلَّا وَالدَّهْرُ مُعْقِبُهُمْ حَسْرَةُ ، وَكَرِرتْ بَيْتَهَا السَّابِقِينَ .

فَأَكْرَمَهَا سَعْدُ وَأَحْسَنَ جَائِزَتِهَا ، فَلَمَّا أَرَادَتْ فَرَاقَهُ قَالَتْ لَهُ : لَا أَنْصَرُ عَنْكَ حَتَّى أَحْبِبَكَ بِتَحْيَةِ مَلُوكَنَا : لَا جَعْلُ اللَّهِ لَكَ إِلَى لَثِيمِ حَاجَةَ ، وَلَا زَالَ لَكَرِيمٌ عَنْكَ حَاجَةَ ! وَلَا تَرْعَ مِنْ عَبْدٍ صَالِحٍ نِعْمَةً إِلَّا جَعَلْتَ سَبِيلًا لِرَدَّهَا عَلَيْهِ .. !

فَلَمَّا خَرَجَتْ مِنْ عَنْهُ تَلَقَّاهَا نِسَاءُ الْبَلْدَ ، فَقَلَنَ لَهَا : مَا صَنَعْتَ بِكَ الْأَمْيَرُ ؟ قَالَتْ : حَاطَ لِي ذَمْتِي ، وَأَكْرَمَ وَجْهِي ! إِنَّمَا يَكْرَمُ الْكَرِيمُ الْكَرِيمُ ..

انْظُرْ عَقْلَ هَذِهِ الْأُمَّيَّةِ السَّابِقَةِ وَأَدَبَهَا وَحُكْمَتِهَا وَكِيفَ حَاوَرَتْ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصَ الْقَائِدَ الْفَاتِحَ الْمُتَصْرِ . فَنَالَتْ تَقْدِيرَهِ وَإِكْرَامَهِ ..

وَدَدَتْ لَوْ أَنَّ الْمَقْفَعَاتِ الْعَرَبِيَّاتِ كَنَّ عَلَى هَذَا الْمَسْتَوِيِّ ، فَنَلَنَ إِعْجَابَ وَاحِدَ مِنَ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ تَعْظِمُ بِعِلْمِهَا الْوَاسِعِ وَبِيَانِهَا الْحَكِيمِ وَسِيرَتِهَا الْمَاجِدَةِ .

الجاهلية العربية أشرف

استكثر البعض أن أقول : إن الجahلية العربية الأولى كانت أشرف من جاهليات اليونان والرومان ، لاسيما في الوضع الاجتماعي للمرأة ! ويبدو أن هذا الاستكثار يعود إلى سوء ظننا بأنفسنا وحاضرنا وماضينا بعد الهزائم الحضارية المهيمنة التي لحقت بنا في العصور الأخيرة وصدق المثل السائر : إن الدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محسن غيره ، وإذا أذربت عنه سلبته محسن نفسه .. !

صحيح أن الإشراك بالله كان قاسما مشتركا بين هذه الجاهليات كلها ، « فهبل » الإله الكاذب عند العرب هو « أوبولو » الإله الكاذب عند اليونان ! وليس أحد الفريقين أولى بالتسفيه من الآخر ! .

أما النظرة إلى المرأة ، والتشرُّف بتصونها والاستقواء في حمايتها فخلق عربي لا يكاد الرومان أو اليونان القدماء يعرفون شيئاً عنه !! وتدبر قول عمرو بن كلثوم في معلقته .

على آثارنا بيض حسانٌ نخادر أن تقسمَ أو تهونا
إذا لم نخمنَ فلا بقينا لشيءٍ بعدهن ولا حيناً !!

أين هذا من قول الشاعر اليوناني « سيموندس » الأمورجي « جعل الله عند الخلق طبائع النساء مختلفة ، فجاءت إحداهن كأنما أخرجها الله من خنزير ، وأخرى كأنما أخرجها الله من ثعلبة ماكرة وثالثة كأنها الكلبة حرفة ونشاطا ، فهى تجوس أركان المكان فاحصة متطلعة ، فإن لم تجد شيئاً أطلقت لسانها بالسوء » !!

قد تقول هذا شاعر أحمق لا يؤخذ من كلامه حكم عام ! ونقول : لنترك أقوال هذا

الشاعر وأمثاله وهم كثير فماذا نقول في إفلاطون الفيلسوف الأشهر . وفي مدحه الفاضلة ؟
لقد جعل النساء آخر طبقات المجتمع وتركهن كلاماً مباحاً على الشيوخ بين طبقة الحكماء
والفرسان ! ! ، فإن تكن هذه معالم المدينة الفاضلة فما تكون معالم المدينة النازلة ؟.

أما الرومان فإن مكانة الأنثى لديهم منحطّة بطبيعتها . وليس لها الحقوق المقررة
للرجال ، ولما كانت القوانين الأوّلية تمتُّ بحسب وثيق إلى الرومان الأوائل ، فإن القانون
الإنكليزي حتى القرن التاسع عشر كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته ! ولم يتدخل القانون إلا
في تقدير السعر الذي يمكن أن تباع به ...

ولايزال القانون الفرنسي يجعل تصرفات الزوجة المالية تابعة لمشيّة الزوج ! .

إن الإسلام وحده هو الذي صان شخصية المرأة وردّ كل عدوان عليها وفق قاعدته :
« لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بغضكم من بعض » .

والذى يحرّف نفسي أن جمهوراً من المسلمين الجهلة في بلادنا تبني مفاهيم الجاهلية
اليونانية والرومانية وغيرها وقرر أن يحيى في نطاقها ، وزاد إلى هذه السفاهة أن قرر الدعوة
إليها بحسبانها مفاهيم إسلامية ! .

كيف نحمي الإسلام من أصدقائه الجهلة ؟ فهم أضرى عليه من أعدائه
السافرين .. !

المرأة في عصور الانحطاط

في دراستي للمجتمع العربي قبيل البعثة الشريفة وفي مطلع الدعوة الإسلامية وجدت وضع المرأة أوضح وأرlix من وضعها أيام اخلال الأمة في عصور الهزيمة والاضمحلال الأخيرة .

ولنترك مأساة وآد الآنى في بعض القبائل أو في ممالك الجاهلين الشاذين ، ولننظر إلى الوعى العام للمرأة ، ونضع شخصيتها ، ومشاركتها في شؤون الحرب والسلم ، وقدرتها على بلوغ الصفوف الأولى في مواجهة الأحداث التاريخية الكبرى ، إننا نرى ما يستحق التسجيل ! .

لقد شاركت المرأة في بيعة العقبة الكبرى ، وشاركت في بيعة الرضوان تحت الشجرة ! ومن المؤكّد أنها كانت ستبّن من مثل هذه المبایعات في تاريخ المسلمين الأخير ، وسيقال لها : امكثي في بيتك !

وروى أحمد عن أنس بن مالك أن أبا طلحة - قبل أن يسلم - خطب أم سليم - وهي مسلمة - فقالت له المرأة الراسدة : يا أبا طلحة ! ألم تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض ؟ قال : بل ! قالت : أفلًا تستحي تعبد شجرة ؟ إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقاً غير الإسلام . ! قال لها : دعني حتى أنظر في أمري ...

فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالت لابنها أنس - راوي الحديث - يا أنس زوج أبا طلحة ! ! فزوجه من أمه . !

أى مجتمع هذا ؟ إنني بقدر ما أعجب من ذكاء المرأة وإخلاصها لديها أعجب

سلامة الفطرة وانتفاء الريبة وسهولة الحلال وسرعة إقراره ..

وروت أم عطية أنه حين قدم رسول الله المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب ، فقام على الباب فسلم عليهن ! فرددن السلام ، فقال : أنا رسول رسول الله إليكـن فقلنا : مرحبا برسول الله ، وبرسول رسول الله ! فقال عمر : تبـاعـون عـلـى أـن لا تـشـرـكـنـ بالـلـهـ شـيـئـاـ ولا تـسـرـقـنـ ، ولا تـزـنـيـنـ ، ولا تـقـتـلـنـ أـوـلـادـكـنـ ، ولا تـأـتـيـنـ بـبـهـتـانـ تـفـتـرـيـنـ بـيـنـ أـيـدـيـكـنـ وـأـرـجـلـكـنـ وـلـاتـعـصـيـنـ فـيـ مـعـرـوـفـ ؟ قـلـنـ : نـعـمـ ! فـمـدـ عـمـرـ يـدـهـ مـنـ خـارـجـ الـبـابـ وـمـدـدـنـ أـيـدـيـهـنـ مـنـ دـاخـلـ ، ثـمـ قـالـ : اللـهـمـ اـشـهـدـ ! .

لم يجعل عمر البيعة مصافحة باليد ، وهذه هي السنة ، تنزيها لجو التدين من الشبهات التي عرفت في أديان أخرى .

وللكـهـانـ فـيـ هـذـاـ الـمـحـالـ دـسـائـسـ مـحـظـورـةـ مـنـ الـخـيـرـ تـحـصـينـ الإـسـلـامـ مـنـهـ ، فـلـاـ نـرـيدـ أـنـ يـكـونـ بـيـنـنـاـ أـشـبـاهـ رـاسـبـوـتـينـ ..

وـأـنـ إـذـ أـسـوـقـ الـخـبـرـ الـأـخـيـرـ أـذـكـرـ أـنـ أـحـدـ الـعـلـمـاءـ الـمـسـؤـلـينـ عـتـبـ عـلـىـ أـنـيـ حـيـنـ أـدـخـلـ للـتـدـرـيـسـ بـيـنـ الـطـالـبـاتـ أـلـقـيـ عـلـيـهـنـ السـلـامـ ! قـلـتـ : وـمـاـ الـحـرـجـ فـيـ أـنـ يـسـلـمـ أـسـتـاذـ عـلـىـ تـلـمـيـذـاتـهـ ؟ قـالـ : هـذـاـ لـاـ يـحـوـزـ ! قـلـتـ لـهـ إـنـ الـبـخـارـيـ روـيـ جـواـزـ هـذـاـ وـوـقـوـعـهـ ! فـقـالـ : لـكـنـ الـعـلـمـاءـ لـمـ يـأـخـذـوـ بـرـوـايـتـهـ قـلـتـ : أـىـ عـلـمـاءـ ؟ إـنـ الـجـهـاـلـ هـمـ الـذـيـنـ يـقـولـونـ فـيـ الإـسـلـامـ بـغـيـرـ عـلـمـ ، وـيـرـجـحـونـ تـقـالـيـدـ آـبـائـهـمـ عـلـىـ تـعـالـيمـ الإـسـلـامـ .

لنعرف الموقف الصحيح

في عصور متطاولة كان نصيب المرأة قليلاً من الرحمة العامة العامرة التي بعث بها صاحب الرسالة الخاتمة ! حاشا عصر البعثة الشريفة والخلافة الراسدة فإن المرأة شهدت أيام ذهبية .

وتأمل موقف النبيُّ الكريم من جميلة بنت أوس عندما جاءته تشكو بقاءها في بيت الزوجية لا لشيء إلا لأنها تكره هذا الزوج وتعاف عشرته ! إن النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - قال لها : لقد أعطاك زوجك حديقته مهراً ، فهل تردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ! فأمر الرجل فطلقتها !

إن الأسرة لا تقوم على امرأة تبغض الرجل وتشتهي مفارقته ومن هنا قال تعالى « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتديت به ... » .

وهل هذا الخلع طلاق أم فسخ للعقد ؟ بحث لا يتعرض له هنا وإنما يتعرض لوعق فقهى أو قانونى عاصرته فى مصر ، فقد كان القضاء الشرعى يحكم بأن يقود رجال الشرطة المرأة الكارهة بالقوة إلى بيت الطاعة لتحتضن من تبغض !!

وكان رد الفعل لهذا المسلك أن وضع باسم الشريعة قانون آخر يخرج الرجل من البيت إذا أوقع الطلاق !

لم هذا الاضطراب في فهم الدين وتطبيقه ؟ وأين قوله تعالى « إمساك بمعرف أو تسريح بإحسان » ؟ إن للمسلمين غرائب في فهم شريعة الخلع وشريعة الطلاق لاتقوم على فقه واعٍ واسع الأفق .. !!

وأمر آخر نذكره آسفين ! ذهبت نسوة إلى أحد المساجد للصلوة ، وأخذن في مؤخرة الصفوف مكاناً قصياً ، فجاءهن إمام المسجد غاضباً يقول : إن المساجد بنيت للرجال وحدهم قال تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويدرك فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ... ». .

وقابلني هؤلاء النسوة كسيرات كاسفات البال فقلت لهن : هذا رجل جاهل فإن الله يقول « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... » فهل الصدق في العهد والوفاء بالوعد والثبات على الدين إلى آخر رمق وقف على الرجال وحدهم ؟ فأين قوله تعالى « فاستجيب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضاكم من بعض » ؟ .

ولكن منطق الجهل نصب سرادقه على جماهير غفيرة من الناس ورأوا أن ذهاب المرأة إلى المسجد بدعة منكرة ، وأن تلقينها أنواع الثقافات تقليد أجنبىٌّ ، وأن وعيها بالشئون العامة تطفل مرفوض ! .

وامرأة مغلقة على هذا النحو كيف تكون راعية بيت ؟ وربة أسرة ؟ ومنشأة أجيال محترمة ؟ إن تقهقر الأمة الإسلامية في الأعصار الأخيرة يعود إلى العجز الشائن في فهم موقف الإسلام الصحيح من المرأة .

وهذا العجز من وراء انتصار المدينة الحديثة وانتشار عجرها وبجرها في آفاق عريضة ، والعلاج يقدمه فقهاء أذكياء منصفون ، لامتحنون متعلمون .

مرويات مسيئة للإسلام

فـ تراثنا الفقهي - على نفاسته - أحـ حـ كـ اـ مـ استـ قـ اـ هـ اـ الفـ قـ هـ اـءـ منـ أـ فـ وـ اـهـ النـ اـ اـسـ ، لـ اـ سـ تـ نـ دـ إـ لـىـ .
أـ صـ لـ مـ نـ كـ تـ بـ أـ وـ سـ نـ ءـ ، وـ لـاـ إـ لـىـ دـ لـ لـ يـ ثـ اـ نـ وـ يـ عـ تـ مـ دـ عـ لـىـ الـ كـ تـ بـ وـ الـ سـ نـ ءـ ! .
مـ نـ ذـ لـ كـ مـ ثـ لـ اـ زـ لـ عـ بـ أـنـ الـ جـ نـ يـ بـ يـ قـ فـ بـ طـ نـ أـ مـ بـ ضـ عـ سـ نـ ءـ ، وـ عـ لـىـ هـ دـ اـ تـ طـ وـ لـ .
عـ دـ ةـ الـ حـ اـ مـ اـ مـ شـ اـءـ اللـ هـ ...

وـ قـ دـ ثـ بـ عـ لـ مـ يـ سـ تـ حـ يـ لـ اـنـ الـ حـ مـ يـ بـ يـ قـ فـ الرـ حـ مـ فـ وـ قـ تـ سـ عـ شـ هـ وـ رـ مـ منـ سـ اـعـ اـةـ
الـ عـ لـ وـ قـ ، وـ أـنـ الرـ حـ مـ يـ نـ فـ جـ رـ بـ ماـ فـ يـهـ قـ بـلـ مـ رـ وـرـ الـ عـ اـمـ .. وـ لـ يـ سـ عـ لـىـ مـ اـ جـ اـءـ فـ كـ تـ الـ فـ قـهـ
دـ لـ لـ يـ شـ رـ عـ يـ ، وـ لـاـ يـ عـ دـوـ الـ اـمـ تـ رـ دـ يـ دـ كـ لـ اـمـ اـنـ تـ شـ بـ بـيـنـ الـ نـ اـسـ لـ اوـ زـ نـ لـهـ .. !

وـ هـ نـ اـكـ اـقـ وـالـ فـ قـ هـ يـ تـ قـ تـ رـ بـ مـنـ هـذـاـ الـ مـوـضـوـعـ مـنـهـ اـنـ الرـ جـ لـ تـ بـطـلـ صـ لـ اـتـهـ إـذـ مـرـ اـمـ اـهـ
كـ لـ بـ اوـ اـمـ رـ اـهـ (ـ !ـ)ـ وـ قـ دـ رـ فـ ضـ هـذـاـ الـ كـ لـ اـمـ الـ اـمـ اـهـ اـبـوـ حـ نـ يـ قـهـ وـ مـالـ كـ وـ الشـافـعـيـ رـضـيـ اللـ هـ
عـ نـ هـمـ ، وـ قـ الـ وـلـ اـ :ـ لـ اـ تـ بـطـلـ الـ صـ لـ اـةـ بـشـئـ مـنـ هـذـاـ ..

عـ لـىـ اـنـ اـبـنـ حـ زـ مـ يـ خـالـفـ الـ اـمـ اـهـ وـ يـ قـوـلـ :ـ «ـ يـ قـطـعـ صـ لـ اـةـ المـصـلـىـ مـرـوـرـ الـ كـ لـ بـ وـ الـ حـارـ

وـ الـ مـرـأـةـ »ـ ..ـ !ـ وـ الـ غـرـبـ اـنـهـ يـ قـوـلـ بـعـدـ ذـلـكـ «ـ ..ـ إـلاـ اـنـ تـكـوـنـ الـ مـرـأـةـ مـضـطـجـعـةـ مـعـتـرـضـةـ

فـ لـاـ تـ قـطـعـ الـ صـ لـ اـةـ حـيـثـئـذـ »ـ !!ـ

يـعـنـىـ اـنـ عـبـورـ الـ مـرـأـةـ اـمـ اـمـ اـمـ المـصـلـىـ يـ بـطـلـ الـ صـ لـ اـةـ اـمـ اـسـتـ لـقـاؤـهـ اـمـ اـمـ اـهـ عـلـىـ ظـهـرـهـ فـلاـشـيـءـ
فـيـهـ !ـ وـ هـذـاـ كـلـامـ فـيـ غـايـةـ الـغـثـاثـةـ وـ السـخـفـ ..

وـ لـاـ يـذـهـبـ اـبـنـ حـ زـ مـ هـذـاـ الـ مـذـهـبـ الـ غـرـبـ ؟ـ لـأـنـ قـرـأـ فـيـ الصـحـاحـ عـنـ اـمـ الـ مـؤـمـنـينـ

عائشة أنها ربما استراحت على سريرها ناحية القبلة - فيصل إلى الرسول إلى القبلة - وهي معترضة - دون حرج !

فلماذا لم يرد بهذه الرواية الصحيحة مخالفتها من آثار أخرى ؟ وبحكم كما حكم غيره من الأئمة ببطلانها ؟ لقد ركب مركبا صعبا في هذه القضية تبعه فيه من فقدوا ملامة الفقه ، وأولعوا بمرويات لا ريب في إساعتها إلى الإسلام !!

وكلام ابن حزم هنا يشبهه كلام آخر له ما أظن عاقلا يقبله .. فقد حكم بأن من سم طعاما وقدمه لآخر فمات لم يقتصر منه ، ولا يسمى قاتلا .. !

وأصل القصة أن يهودية وضعت السم في شاة وأهدتها للنبي عليه الصلاة والسلام فلما شرع يأكل منها أنكر مذاقها ، ونهى جلساها عن المضي في الأكل .

وأحضر اليهودية فاعترفت بأنها رأت قتله بهذه الطريقة ، وأنه إذا كان نبيا فسيعرف ويكتنع .. فتركها النبي دون عقاب .. ولكن بعض أصحابه كان قد تناول قدرًا كبيرا منه فمات مسموما ، فأمر بالقصاص منها ..

وقد حكى الرواية القصة فذكر بعضهم عفو النبي عنها ، وذكر الآخرون الأمر بقتلها . وسبب الخلاف ما شرحناه آنفا ، لكن ابن حزم رجح رواية العفو ، وحكم في الجزء الحادى عشر من الحالى بأن من وضع سمًا في طعام وقدمه لأحد يريد قتله لا قصاص عليه ولا دية !! .

ورواية فساد الصلاة لمور الحمار والمرأة كرواية سقوط القصاص من قتل بالسم أحد الناس وهو وهم مردود ! فافقهوا دينكم يرحمكم الله .

زوجات الرسول (١)

انطلقت هذه الشائعة بين الأوربيين حتى كادت تكون بينهم يقينا ! قالوا : كان محمد تسع نسوة يتقلب في أحضانهن ويشبع شبابه المنوم ، لا يأسأ من واحدة حتى يتجدد هواه مع أخرى .. وقالوا : إن ساغ ذلك لواحد من الناس فما يسوغ من داع إلى الروحانية يصل الناس بالسماء ، ويخلدتهم عن الله والدار الآخرة ! .

إن هذا العشق المشوب للمرأة له دلالة واسعة ، فالرجل رجل دنيا وليس رجل دين ، وما نصدق مزاعمكم معاشر المسلمين عن تجرده وتقواه ...

قلت : إذا كان ما قلتموه صحيحاً فما استنتجتموه حق ! لكن هذا الذي ذكرتم لون من تحريف الكلم عن مواضعه يجعله أدنى إلى الكذب .. إن تاريخ محمد من السنة العدو والصديق يشهد بغير ما ذكرتم ، فقد تزوج في الخامسة والعشرين من عمره بامرأة في الأربعين من عمرها ، وظل معها وحدها قريباً من ثمان وعشرين سنة حتى ماتت فأين هذه المتع التي تصفون ؟ .

عندما كان في الأربعين من عمره كانت شيخة في الخامسة والخمسين ، وعندما كان في الثالثة والخمسين كانت تقترب من السبعين فأين الحسنوات الالاتي يتنقل بين صدورهن كما تزعمون ؟ وهو كما يقرر العدو قبل الصديق لا يعرف إلا الوفاء للسيدة العجوز التي قضى معها شبابه كلها ..

ثم ماتت زوجته خديجة في عام أطلق عليه عام الحزن ، فاستقدم إلى داره امرأة تقاربها في السن هي التي هاجرت معه إلى المدينة ...

وصحّيغ أنّه في السنوات العشر الأخيرة من حياته اجتمعت لديه نسوة أخريات ! من هن ؟ مجموعة من الأرامل المنكسرات أحاطت بهن ظروف صعبة ، لم يشتهرن بالجمال ولا كان لهن من السن المبكرة ما يجدد الحياة اللهم إلا بكرًا واحدة بنت صديقه أبي بكر تزوجها توثيقاً لعلاقتها . وتزوج بعدها حفصة بنت صديقه عمر ، ولم تعرف بجمال ، بل بدا أن البناء بها بعد موت زوجها كان جبر خاطرٍ ودعمٍ مودة وجهاً ! ! ..

وتزوج أم حبيبة المهاجرة إلى الحبشة ، إنه لم يرها هناك بيد أنه يعرف إسلامها برغم أنف أبيها زعيم المشركين يوم إذ ، وبقاءها على الإسلام برغم أنف زوجها الصائغ فهل يتركها في وحشتها وعزلتها ؟ لقد أرسل يخطبها ويغزّ جانباً .

وكلاً أحاطت ظروف سيئة بأمرأة ذات مكانة ، ضمّها إليه ، وما كان للشهوة موضع يلحوظ ، وأدركت النسوة القادمات هذه الحقيقة ، وعرفن أن هذا الوضع فوق طاقة الإنسان العادى ، فعرض بعضهن في صراحة أن يبقّ منتسباً للبيت النبوى مكتفياً بهذا الشرف ، ومتنازلاً عن حظ المرأة من الرجل ، فإنّ الرسول آواهن مستجيباً لنداء إنساني لا لبواعث الغريزة ! أين مكان الغريزة والحالة على ما شرحنا ؟

وفي استبقاء أولئك الزوجات على ما ارتضين نزلت آيات كريمة . منها قوله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوذاً أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحاً بينهما صلحاً . والصلح خير » ومنها قوله « ترجى من تشاء منهن وتوؤى إليك من تشاء . ومن ابتغيت من عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضى بما آتتهن كلّهن ... » إنه لا يستطيع إلا ذلك ، فإن دوافع الشهوة كانت ميّة وراء هذا التعدد الذي فرضته أزمات أحاطت بعض المؤمنات العريقات ...

ولنفرض جدلاً أن الإعجاب بالجمال هو الذي أوحى بتزوج بعضهن ، أفكانـت أيام الحصار المضروب على الدعوة ، والأزمـات الخانقة التي يتعرّض لها المسلمين عامة ، وأهل البيت النبوى خاصة ، تيسّر للمؤمنين ونبيـهم طعم الراحة ؟ ما أشـق رباتـ البيت عندما يكون ربـ البيت أباً لأـمة كبيرة وملـاذاً للمـستـضـعـفـينـ والـلاـجـئـينـ وـناـشـدـيـ العـونـ فـالـصـبـاحـ والـمسـاءـ ، إنه يؤثـرـ غـيرـهـ بـماـ لـدـيهـ وـيـبـيـتـ هوـ وـالـلـاـقـيـ معـهـ - علىـ الطـوـيـ ..

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين
متتابعين حتى قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم ..

وعند مسلم قالت عائشة : لقد مات رسول الله وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد
مرتين ..

وعند الترمذى ، قال مسروق : دخلت على عائشة فدعت لى ب الطعام وقالت : ما أشبع
فأشاء أن أبكى إلا بكى ! قلت : لم ؟ قالت : ذكر الحال الذى فارق عليها رسول الله
الدنيا ! والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم !

وعند البيهقي قالت : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متالية ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكنه
كان يؤثر على نفسه !

وعند الطبرانى ما كان يبقى على مائدة رسول الله شيء من خبز الشعير قليل ولا كثير !
قال الحسن : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواسى الناس بنفسه ، حتى جعل
يرقع إزاره بالأدم » ما أكثر العفة الطارقين ، يلتمسون المطعم والملابس !!

وكان الناس ربما اقتحموا البيت النبوى قبل إعداد الطعام بوقت طويل ، أو جلسوا
بعد الفراغ منه وقتا طويلا ، ولا ريب أن ذلك كان يشق على رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - ويجد منه الحرج فلم يكن بد من تنزل الوحى الإلهى يضع نظاما صارما لهذا التسيب
قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير
ناظرين إنما ، ولكن إذا دعيم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن
ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق .. .

إن زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - تعبن معه طويلا في خدمة المجتمع وتعليم
الناس ومساعدة الضعفاء واستقبال الوفود .

وكان مأولاً أن يصحو النبي للصلوة ، ويصلى بالناس في المسجد ثم يعود إلى بيته
ليسأل عن شيء يفطر به فلا يجده فينوى الصيام .. وربما وجد بعض الخل فلا يضجر
ولا يشقى بل يقبل عليه راضيا قائلا : نعم الأدم الخل .. ! هذا هو نهج الحياة التي يزعم

الأوربيون أنها كانت تلذُّذاً بالنساء واستمتعوا بالدنيا بين أحضانهن .. أين هذه الدنيا
الناعمة بِهَا

وقد ذكر كتاب السيرة جميعاً كيف ضاقت الزوجات بهذا الشظف ، وكيف اجتمعن على المطالبة بتغييره . وكيف تطلعن إلى حياة أهداً وأهناً .. فلما بوغتن بالرد الصارم : هذا أو الفرق ! ثابتٌ إلى نفوسهن مشاعر الإيمان وآثرن انتظار الآخرة ، والعيش في ظل النبوة المكافحة على استعجال الطيبات في هذه الدنيا ...

كان مفروضاً على بيت الوحي أن يعيش كأضعف بيته في الدنيا ، وأن يتحمل المهمات به كل ما يتحمله المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وعاشوا من بعد علّ ماتيسّر ...

وكافأهن الله سبحانه على هذا البذل ، بأن صرن أمهات للمؤمنين ، وهو لقب - كما رأيت - فيه من التكليف مثل ما فيه من التشريف ...

أكانت هناك ديانة أرضية أو سماوية تنهى عن تعدد الزوجات ؟ أو ترى فيه أدنى شائبة ؟ لا ، بل إن أنبياء العهد القديم أفوا التعدد دون حدود ! والمذكور عن سليمان وحده أنه تزوج بثلاثمائة امرأة .

وليس في النصرانية نهى عن التعدد ، وقد حكى «ويل ديورانت» في قصة الحضارة عن آثار الأحبار والرهبان ما يشير الاشتئاز ! فلنترك الدين إلى الفلسفة ! ولنننظر إلى فلاسفة الإغريق لنرى كيف يعيش قادة الفكر القديم ... !

وقد كنت راغباً عن ذكر هذه الدنيا ، ولكنني رأيت الطاعنين في محمد يجمعون بين قلة الحياة وكثرة الافتراء فقلت : مابدئ من حمل العصا ...

كتب ماجد نصر الدين في صحيفة اللواء الأردنية مقالاً عنوانه «لماذا يهلك المثقفون من تراث موبوء بالشذوذ؟» نقتطف منه هذه الجملة «إن الفلسفه الذين يعتبرهم البعض مثله الأعلى هم لواطيون ، شاذون جنسياً ، يفخرون بشذوذهم ، ويتباهون بمضاجعة الغلامان ! ! وقد كرهت امرأة سقراط رجلها وعافت عشرته لتعلقه بأحد تلاميذه ، وقس

على ذلك إفلاطون الذى تعرّف على سocrates وهو صغير ، وسocrates مشهور بهذا الداء ومتهم بـإفساد الشباب ..

ويزعم أرسطو أن نسبة الشواذ في عصره تعادل نسبة الطبيعين وقد جرت على لسانه عبارات لأنجرو على نقلها هنا . وتقول مؤلفة « الجنس في التاريخ » : إن معظم المجتمعات حرمت اللواط ، أو تجاهله إلا اليونان ، فإن البغاء المذكر كان شائعا ، ويمكن استئجار العلمان ! » .

والحضارة الغربية الحديثة ورثت عن اليونان والرومان مبادل وضيعة مخزية ، ومع ذلك فهي تتغافل بخبث عن عللها ، وتناسى الدنس الذي تصبح فيه وتنسى ، وتبسط لسانها بالأذى في سيرة أمير الأنبياء ، ومعلم الأمم الظهر والعفاف ! !
وهل تنتظر من بيته « الإيدز » إلا هذا التدنى ؟ .

زوجات الرسول (٢)

قال لي متعجباً : كيف تم زواج عائشة ، وهى في الصبا الباكر بن زاد عمره على الخمسين ؟ فقلت له : سؤال وارد لا غرابة فيه ! ولكن دهشتك سوف تزول يقيناً عندما تعلم أن عائشة قد تقدم لها قبل محمد أحد الخاطبين ! .

قال - وقد فغر فاه وحملق عينيه - كيف كان ذلك ؟ قلت : ذكر بعض المؤرخين أن جبير بن المطعم بن عدى تقدم خطبة عائشة ، وحدث بذلك أبويه فقبلها بادئ ذي بدء وذهبا إلى أبي بكر راغبين في إتمام الزواج .. غير أنها خشياً بعد قليل أن يترك ابنتها دين آبائهما ، ويعتنق الإسلام متأثراً بأصهاره ، فترىها في الأمر ، وبدا لها أن يرجئاه ..

وهنا جاءت خولة بنت حكيم إلى أبي بكر تذكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يتوجه إلى طلب عائشة ، وذهب أبو بكر إلى المطعم يسألها : أهو باق على رغبته في خطبتها لابنه ؟ فاعتذر إليه ، وترك له حرية التصرف .

وعندئذ لم يبق هنالك وعد ولا عهد ، وتم زواج محمد من بنت أبي بكر ! إن هناك فتيات ينضجن في سن مبكرة ، وقد أخبرني أحد الأطباء أن القضاء عرض عليه فتاة لمعرفة عمرها ، فقدر لها سن سبعة عشر عاماً ، ثم تبين من شهادة الميلاد أنها في الثالثة عشرة .

إن عائشة يوم بني بها الرسول كانت أهلاً للزواج يقيناً ، وما نشك في أن الدافع الأول لهذا الزواج كان توثيق العلاقة بين النبيّ الكريم وصاحبـه الأول ، وهو الدافع لتزوجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب لما آمنت من زوجها ! ولم تكن حفصة امرأة ذات جمال ، ولكن هذا العنصر لم يكن المانع من هذه ، ولا الدافع إلى تلك !

لقد كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية أوجت بتعزيز الروابط حيناً . وجبر الكسور حيناً ، ومدّ الجسور بين صاحب الدعوة وأشتات من الأتباع والأسر التي ترجم جزيرة العرب في أيام مليئة بالأزمات والمحرجات ...

ربما قال قائل : آمنا بأن تعدد الزوجات كان مأموراً في الديانات الأرضية والسماوية حتى جاء الإسلام فوضع عليه القيود ، فلماذا لم يلتزم نبي الإسلام بالعدد الذي وقف المسلمين عنده ؟ ألم يجيء في الأحاديث الصحاح أنه أمر رجلاً لديه عشر زوجات أن يمسك أربعاً ويُسْرِحَ الباقيات ؟

قلت : سؤال صحيح ! فلتتدبر الإجابة عليه ! إن النسوة الست التي طلقهن صاحب العَشَرة سيتركتن بيته ويجدن بيوتاً أخرى ، فلهن حق الزواج من أحَبِّين ، ولا حرج على أحد في التزوج منها ! .

لكن ماذا عسى يفعل زوجات الرسول إذاً كان الوحي قد نزل من قبل يقول للMuslimين : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً » .

لقد صرَّنْ أمهات المؤمنين وفق النص القائل : « النبِيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجهنَّ أمهاتهم ... » وما كان لمؤمن أن يتزوج أمه ! فهل يسوغ بعد هذا تسرِّيجهن ليعيشن في وحدة وإياس ؟

ولنفرض زوراً أن تسرِّيجهن مطلوب فهل هذا هو الجزاء الإلهي لنسوة تَحَمَّلن مع صاحب الرسالة شظف العيش ومشقات الحصار المضروب على أمتها ؟

لقد اختزن البقاء معه عندما خَيَّرُوهُنَّ ، وأَبَيْنَ العودة إلى أهلهن في بيوتٍ مُمَلَّةً بالسمن والعسل ، وحملهن الإيمان على البقاء في جو التهجد والصيام والكفاح مع النبِيِّ الذي انتصب لمقاومة الضلال في العالمين ، فهل يكون الجزاء بعد هذا الوفاء الخلاص منهن ؟

إن الله أذن ببقاءهن ، والاقتدار عليهن ، وصدر لهن تشريع خاص « لا يحل لك

النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنن ، إلا ما ملكت يمينك
وكان الله على كل شيء رقيبا » .

وإن أسئل الماجمين على محمد من خلال هذه التغرة المزعومة في حياته : أهي
محاكمة خاصة لهذا الإنسان الشريف ؟ ومحاولة متعمدة للنيل منه وحده ؟ أعرف أن
مساءات كثيرة وجهت لأنبياء من قبله ، وتعرض الرجال الصالحون لأقبح التهم ! ألم يتهم
النبي الطاهر لوطن بأنه زنى بابنته كلتيها بعد ما أفقدته الخمر وعيه وأنجب منها ؟ ألم يتهم
النبي يعقوب بأنه سرق منصب النبوة من أخيه الأكبر عيسى بعد عملية احتيال ماكرة على
أبيه الذي كف بصره ؟ ألم يتهم سليمان بأنه انطلق في شوارع القدس يبحث عن الحبيب
المجهول ليأخذه إلى فراشه ، مع أن عنده ألف امرأة ؟ إن هذا البحث الماجن استغرق عدة
صفحات مليئة يحمل طائفة تحت عنوان نشيد الإنجاد الذي لسليمان ! من شاء قرأه في
العهد القديم ..

ومع جنون الاتهام الذي سيطر على كاتبي هذه الصحف ، فإن المتهمين بقوا أنبياء
مكرمين ! أما سليمان فقد جعله اليهود ملكا ، ولكن أى ملك ؟ إنه باني الهيكل الذي يجب
أن يعاد بناؤه ليكون مسكنًا للرب يتجلّى فيه بهاؤه ويحكم العالم كله من سُدْنه بوساطة شعبه
المختار من بنى إسرائيل !!

أما محمد الصوام القوام الكادح لله طوال حياته ، والذى جمع آخر عمره بضع نسوة
من الأرامل والمصابات عشن معه على مستويات الضرورة ، وتمحضن لله والمدار الآخرة
 فهو وحده الذى يستباح وتتوارث الضغائن عليه ، ويتجمع حول الأطلسي لحماية
شاتميه !!

ومن أولئك الشاتمون الغاضبون ؟ أهم رهبان وقدتهم العبادة وكتبوا حب النساء في
دمائهم فهم يشترون ويميتون شهواتهم ابتغاً رضوان الله كما يزعمون ؟ كلا ، إنهم أفراد
وشعوب شربوا كؤوس الشهوات حتى الشحالة ، ولم يتركوا بابا للذلة إلا افتتحوه دون تهيب أو
حياء .

وحضارة أوروبا تميزت بأنها يسرّت للدهماء من المتع ما كان حكراً على الملوك والرؤساء فأضحت الصعلوك قادراً على الاتصال بسبعين امرأة كلها ذاق جديداً طلب مزيداً ما تحجزه عن دنایاه تقاليد ولا قوانين ، وفي هذا الوسط من الدنس يذمون محمداً وينالون منه ! أى منطق هذا المنطق الجائر الظلوم ؟

إن الإسلام لم يأمر بتعدد الزوجات ، فإن الزواج ليس نشاناً للذلة فقط وإنما هو قدرة على التربية ورعاية الأسرة ، فمن عجز عن ذلك كلفه الإسلام بالصوم ، ونحن نوجه للأوربيين سؤالاً لا مهرّب منه : هل التععدد الذي أذن الإسلام به أفضل أم الزنى .

إنني أسئل كل منصف صادق : هل المجتمعات الأوروبية تكتفى بالواحدة أم أن التععدد قانون غير مكتوب يخضع له الكثيرون ؟ وثم سؤال آخر : هل الضرورات هي التي تدفع إلى التععدد الحرام أم أن الإثارات المعمدة في الاختلاط المطلق وفي تقاليد الرقص التي لا آخر لها من وراء هذا الفيوضان من العلاقات الآثمة ؟؟

وأختم هذا القول بسؤال حاسم : هل وعى التاريخ الجاد سيرة رجل أعفَ خلقاً وأشرف ثوباً وأغير على الحرمات وأبعد عن الشبهات من محمد ؟ .. ؟

هل حكى عن أحفال في بيته رُصّت فيها الموائد وعليها زجاجات الخمور ، وأطاب الأطعمة ، وأنواع المشهيات والهواضيم ؟

لقد كانت عيدان الحصير تطبع على جلده وهو نائم ، أو جالس ، فإذا ظفر مع أصحابه بالخبز واللحام عَدَ ذلك من النعيم الذي يسأل الناس عنه يوم القيمة !!

فهل هذا النبيّ الفارس المخشن الجندي يوصف بأنه من أصحاب الشهوات ومن الذي يصفه ؟ الذين ابتلاهم الله « بالإيدز » بعد ما ابتلاهم بالزهري وغيره من أمراض الإسفاف والإسراف والسقوط !! .

وطاولت الأرض السماء سفاهة
وعيرت الشهب الحصا والجنادل !
وقال السها للشمس أنت ضئيلة
ويانفس جدّي إن دهرك هازل

ماذا تفعل نساؤنا؟

من أيام العرب المشهورة في جاهليتهم الأولى يوم «ذى قار» عندما أغاد الفرس على أرض الجزيرة بجيش كبير، وتناسى العرب خلافاتهم لمواجهة هذا الغزو، والتقت القبائل في جهة واحدة للوقوف أمامه.

يقول التاريخ: إن القائد العربي «حنظلة بن ثعلبة» أمر بقطع أحزمة الهوادج الموضوعة فوق ظهور الإبل، وأنزل النساء كى يمشين على الأرض وراء المقاتلين، ثم نادى في الرجال بصوت سمعه قلب الجيش وجناحاه: فليقاتل كل منكم عن حيلته!! وكانت هذه الصيحة كفيلة بإشعال الحماس وقتل كل تردد، فانهزم الفرس هزيمة نكراء وولوا مدبرين ..

وفي معركة أحد خرج نساء المشركين وراء الجيش الذي يطلب التأثر من هزيمتهم في بدر وهن ينشدن حاثات الرجال على الحرب:

إن تقبلوا نعائق ونفرش السمارق !
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق !

كان للنساء دور كثاً ترى في كسب المعارك، وكانت لهن دراية بقضايا المجتمع كبراها وصغرها !

وقد ظهر ذلك في بدء الوحي، فإن آبا هلب عم النبي - عليه الصلاة والسلام - كان مع امرأته في تكذيب الوحي ومقاومة الإسلام بضراوة وحقد!

وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَسْمَى الرَّسُولُ « مَذَمَّاً » لَا مُحَمَّداً ! وَتَقُولُ « مَذَمَّاً أَبِيْنَا . وَدِينَهُ قَلِيْنَا . وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا » .

وَمَشَتْ بِهَذَا الْهَجَاءُ الْمَسْعُورُ فِي مَجَالِسِ قَرِيشٍ تَسْفِهُ وَتَتَطَاولُ وَتَبْثُ الْفَتْنَةَ وَتَؤْيِدُ الْكُفَّارَ فَتَرَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهَا « وَأَمْرَاتُهُ حَالَةُ الْحَطَبِ فِي جَيْدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَسَدٍ » وَالْمَرْأَةُ كَانَتْ مِنْ كَبَّرَاءِ قَرِيشٍ ، لَا تَشْتَغِلُ بِالْأَحْتَطَابِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ سَعِيْهَا بِالْوَقِيعَةِ وَالْبَذَاءَةِ وَإِيقَادِ الْعَدَوَاتِ ضَدَّ الْإِسْلَامِ بِمَنْ تَحْمِلُ الْحَطَبَ لِلْوَقْدِ !!

قَلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا رَزَقَ الْفَضْلَالِ نَسْوَةٌ يَنْصُرُنِي بِهَذِهِ الْحَمِيمَةِ ، وَيَتَبَيَّنُنِي قَضَايَا هَذِهِ الْقُوَّةِ فَلِمَذَا يَحْرِمُ الْإِيمَانَ نَشَاطًا نَسَائِيًّا مَعَارِضًا لَهُ ، وَاقْفَا ضَدَّهُ ؟

إِنَّ الَّذِي أَسْقَطَ آخِرَ مَعَاقِلِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ هُمَا « فَرْدِينَادُ وَإِيزَابِيلَا » رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ تَكَافَفَا عَلَى إِسْقَاطِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ ! وَفِي النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ آلَافٌ وَآلَافٌ يَسْتَطِعُنَ خَدْمَةُ الْإِيمَانِ كَمَا اسْتَطَاعَتِ الْمُشَرِّكَاتِ خَدْمَةُ الْفَضْلَالِ فَلِمَذَا يَحْالُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ هَذِهِ الْخَدْمَةِ ؟ .

فِي الْعَامِ الْمَاضِيِّ كَانَتْ اُمَّرَأَةُ الْمَرْشُحُ الْدِيمُقْرَاطِيُّ لِرِئَاسَةِ الْوَلَيَاتِ الْمُتَّحِدةِ تَسْعِي بِجَبَرِوتٍ لِنَصْرَةِ زَوْجِهَا ، وَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ كَاسِبُ الْمُعْرِكَةِ ! وَلَا كَانَتْ الْمَرْأَةُ يَهُودِيَّةً فَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَلْكَةَ الْبَيْتِ الْأَيْضُونِ سَتَكُونُ حَلِيفَةً إِسْرَائِيلَ !

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَصِرَ الْحَزْبُ الْجَمَهُورِيُّ ، فَإِذَا الْمَلْكَةُ الْمُرْتَبَّةُ يَخَانِمُهَا أَسْى ! وَحَاوَلَتْ أَنْ تَتَغلَّبَ عَلَى آمَمِهَا بِالْخَمْرِ ، وَهِيَ الآنُ فِي الْمُسْتَشْفِي تَعَالِجُ مِنْ الإِدْمَانِ ! لَأَنَّهَا تَحاوَلُ النَّسِيَانَ !

لَقَدْ تَسَاءَلْتُ : مَا هَذَا الْإِخْلَاصُ ؟ مَا هَذَا الشَّعُورُ الْعُمِيقُ ؟ مَا لِمَا لَا يَنْشَغِلُ نَسَاؤُنَا بِخَدْمَةِ الْمُثْلِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِهَذِهِ الْقَدْرَةِ ؟ مَنْ يَمْنَعُهُنِّ ؟ مَا يَمْنَعُهُنِّ إِلَّا جَاهْلُونَ بِالْإِسْلَامِ . مَا أَجْمَلُ أَنْ يَطَّاوِعَ الزَّوْجَانِ ، وَأَنْ يَتَعَاوَنَا عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّيْءِ ! كَانَ سَعْدُ بْنُ نَاثِبَ رَجُلًا حَادَّ الطَّبِيعِ قَاسِيَ الْلُّفْظِ ، فَلَمْ تَرْضِ بِذَلِكَ اُمَّرَأَتَهُ ، وَلَامَتْهُ عَلَى شَرَاسَةِ خَلْقِهِ وَقَسَاؤِهِ ! فَقَالَ يَدْافِعُ عَنْ سِيرَتِهِ وَيَشْرِحُ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ :

تُفَنِّدُنِي فِيمَا تَرَى مِنْ شَرَاسَتِي وَشَدَّةِ نَفْسِي أَمْ عَمْرُو وَمَا تَدْرِي !

فقلت لها : إن الكريم وإن حلا
ليُلْفِي على حالٍ أَمْ من الصبر !
وما بي على مَنْ لان لى من فظاظة ولكنني فظُّ أَبِي على القسر !

وهذا اعتذار جميل ! ولكن المهم فيما قصصنا . نصح الزوجة لرجلها ورغبتها في خيره
وسلامته !

وهذا رجل آخر سخنُ اليد واسع العطاء يتصدق بالجمل من إبله الكثيرة على من جاء
يسأله عطاء ، ويقول لأمرأته : هيئ حيلاً للسائل يقود به جمله الذي وهبته له ، وينهاها
عن لُومه :

لا تعذلني في العطاء ويسري كل بغير جاء طالبه حبلاً ...
فلم أَرَ مثل الإبل مala لقتنٍ ولا مثل أيام الحقوق لها سُبلاً ...
وتخييه امرأته «ليلي» إجابة لها وزنها عند أهل السخاء والفضل . تقول :

حلفت يميناً بابن «قحفان» بالذى
تكفل بالأرزاق في السهل والجبل
نزل حِبَالٌ مُحْصَدَاتٌ أَعْدَهَا
لها ما مشى منها على خفه جَمَلٌ ..
فأعط فعندي لها خُطْمٌ وقد زاحت العِللُ

إن هذه النماذج من المجتمع العربي الأول تصوّر فضائل الإيثار والسماحة التي شاعت
فيه والتي حفظت توازنه ، وجعلت الأسرة مصدر استقراره وسنائه ، ولا عجب فالأسرة
القوية هي الداعمة للمجتمع القوى ، والحافظ الأول لتقاليده ..

وجاء الإسلام فشجع المرأة على الجود من مال البيت - بما لا يضره بداعه - فعن
عائشة أم المؤمنين ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إذا أنفقت المرأة من بيت
زوجها كان لها أجرها ، وله مثله بما كسب ! ولها بما أنفقت ! وللخازن مثل ذلك من غير
أن ينقص من أجورهم شيء». .

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت : يارسول الله ليس لي شيء إلا ما أدخل
على الزبير - أي ما جاء من ماله الخاص به - فهل على جناح أن أرضخ - أن أعطى - مما

أدخل علىّ ؟ فقال : « ارضخى - أعطى - ما استطعت ولا توكي - تبخل - فيوكى الله عليك » !! .

ونحن نتساءل عن الأسرة العربية الآن : هل بقيت فيها تقاليد العطاء والإفضال على طلاب الصدقات والمعونات ؟ أم غلبتها التقاليد الوافدة من الغرب وهي تقاليد تقوم على الأثره والكزاذه !!

هل ظل الرجال يশمخون بأنوفهم اعتزازا بجمالية العرض وصيانة الأهل أم تسللت ببرودة التقاليد الأوروبية والأمريكية وأنشأت جيلا آخر له منطق آخر ؟

لقد لاحظت أن المرأة الآن تفخر بأن لديها عشرات الفساتين ، الموافقة لآخر صيحة في عالم الأزياء ، ذاك إلى جانب ألوان الزينة وأدوات الترف وأسباب الإغراء ..

لقد كان لنا في الجاهلية العربية خلائق أذكى ، يرسم معالمها حاتم الطائي وهو يقول لزوجته :

إذا ما صنعتِ الزاد ، فالتزمي له أكيلًا ! فإنني لست آكله وحدى !!
أناً طارقا ، أو جار بيتي ، فإني أخاف مذمَمات الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف مadam نازلا ! وما في إلا تلك من شيمَة العبد !
ما أجمل أن يكون الزوجان أدبيين ، أو عالمين ، أو كريمين ، أو شجاعين ! فإن
قعدت بأحدهما سُورَةً عارضة ، أو وسوسَة هابطة أسرع إليه الآخر فأخذ بيده ، وسدَّه
على الطريق .

امرأة بألف رجل !

أجيال كبيرة من علماء الأزهر الذين تخرجوا في كلية أصول الدين مدینون أدبياً وما ديا لامرأة محسنة وقفت مالها لله ، وأنشأت منه مؤسسات يتفجر الخير منها منذ عشرات السنين ، وسيبقى كذلك ما شاء الله .

وأنا واحد من هؤلاء الذين ناهم ذلك العطاء الدافق ، فقد انتظمت بين طلاب هذه الكلية من نصف قرن أو يزيد ، وتلقيت الدروس من أفواه جملة من أكابر علماء الأزهر ، وقاده الفكر الإسلامي ، أتيحت لهم فرصة التعليم في قاعات المبنى الذي أنشأته « الخازندارة » ملحقاً بمسجدها الجامع الفخم !

كانت الدراسة تبدأ أول العام بحفل مائج في المسجد الكبير يستمع فيه إلى توجيهه أن نطلب العلم لله لا للدنيا نصيّبها أو جاه نستحبه ، مع تذكير بأئمة العلم الإسلامي وجهادهم الزاكي في تربية الشعوب وحياطة الحق .. ثم يذهب كل منا إلى صفه وفي نفسه قول أبي العلاء في صفة فقيه حنفي :

أنفق العمر ناسكا ، يطلب العلم يبحث عن أصله واجهاد !

لكن من هي الخازندارة ؟ التي بنت كليةنا ؟ لا ندرى عنها شيئاً ! إن البيئات التي عشنا فيها قد يما تواضعت على كتمان أسماء النساء ، فلا يجوز أن يذكر اسم الأم ولا اسم الزوجة ! فذلك عيب لا يقع فيه أهل الإيمان ، لعل الاسم عورة كما أن الصوت عورة .. !!

هل الدين باعث هذا الشعور ؟ كلا ، ففي أول البعثة الشريفة صاح النبي الكريم على

الصفا كما ذكرنا من قبل مناديا صفية بنت عبد المطلب ، وفاطمة بنت محمد يدعوهما إلى معرفة الله والإيمان به وحده .. !

ولم يكن ذكر أسماء النساء عيبا ولا موضع لغط ! إن التدين الفاسد قد يبعد عن الفطرة مثل أو أبعد مما تفعله الجاهليات الكريهة .. فلنعد إلى كلية ومسجد الخازنadarة بعد هذا الاستطراد ، كانت الكلية للدراسات التي تؤهل للشهادة العالية ، أما الدراسات الأعلى فكانت تنشأ لها حلق داخل المسجد نفسه ، وهي حلقات صغيرة بطيئتها ، ولا أزال أذكر منظر الشيخ أمين خطاب الرئيس الثاني للجامعة الشرعية بمصر ، وهو يلقي الدرس في « علل الحديث » ، وكان رحمه الله رجلا بكاء شديد الخشية لله يلتف حوله طلبه وكأنهم في صلاة خاشعة !!

على أن أعداد الطلبة زادت هنا وهناك ، وربما الإحساس بضرورة البحث عن مكان أوسع ! وهنا سمعت من يقول : إنهم سوف يضمون مبني الملجأ إلى الكلية ، ولم أع ما هنالك ثم أدركت أن السيدة الحسنة بنت ملجاً للأيتام يؤوينهم ويغذوهم ويكسوهم . وأرصدت لذلك من مالها ما يسع حاجة المحتاجين !

ولأمر ما لم تنفذ هذه الوصية ! وقال أحد الساخرين : لعله لا يوجد يتامي ! وأحسست أنا أن جملة من الأهداف النبيلة تضيع في فوضى التنفيذ ، وسوء الرقابة . وقد ان العلاقـة بالله ... إن الواقعـين فعلـوا الكثـير بـيد أنـ المـنفذـين فـرـطـوا وـخـانـوا ... ولـما كانت مصـائب قـوم فـوـائد عـنـد قـوم فـقـد اـنـقلـنا نـحـن إـلـى مـبـني المـلـجـأـ الخـالـيـ . وتـلـقـيـنا درـوسـنا فـي قـاعـاتـهـ الخـالـيـةـ ..ـ وأـعـتـقـدـ أنـ السـيـدةـ التـيـ أـسـدـتـ الـجـمـيلـ لمـ يـنـقـصـ ثـوـابـهاـ ذـرـةـ ،ـ فـقـدـ أـدـتـ ماـ عـلـيـهـ ،ـ وـتـقـرـبـتـ إـلـىـ اللهـ جـهـدـهـ ...ـ وـماـ فـعـلـهـ الآـخـرـونـ بـتـرـاثـهـ يـلـقـاـهـمـ يـوـمـ الـلـقـاءـ الـأـخـيـرـ «ـ يـوـمـ تـجـدـ كـلـ نـفـسـ مـاـ عـمـلـتـ مـنـ خـيـرـ مـحـضـراـ ،ـ وـماـ عـمـلـتـ مـنـ سـوءـ تـوـدـ لـوـأـنـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ أـمـدـاـ بـعـيـداـ ...ـ»ـ .

وفي أثناء تلقينا الدرس بمبني الخازنadarة ، بدأنا نسمع ضجيج بناء عمارة كبيرة فتسائلنا : ما هذا ؟ قالوا : مستشفى الخازنadarة !

الحقّ أني دعوت من أعماق قلبي للمرأة الصالحة ! تبني معهـا وـمـسـجـدـاـ وـمـلـجـأـ

ومستشفى؟ تنشر العلم وتتحمّل العبادة وتربي اليتامي وتداوي المرضى؟ أى قلب زكي في صدر هذه المرأة التي أقرضت الله قرضاً حسناً، وادخرت عنده ما ينضر وجهها « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهر ». .

الواقع أن النساء الصالحات كثُرُّ في تاريخنا ، ما بخلن بمال ولا وقت في سبيل الله ، وقد أدينَّ في صمت ما يعجز عنه الكثيرون ، ويستطيع الباحثون في بطون التواريخ أن يجدوا أسماء متوارية محرومة من الشهرة لها عند الله مكانة رفيعة لا ينالها غيرهم ..

وفي أحد الأيام بلغ أسماعنا أن المسجد العظيم سوف يذهب نصفه توسيعة لشارع شبرا ، وقع ذلك في العهد الجمهوري أيام السيد عبد اللطيف البغدادي ، وشعرت الجماهير أن شعائر الله تداس ، وأن المسجد العظيم سوف يُقصَّم ويُتلاشى ، وتنادت فلول المسلمين الصائعين أن الموت أهون ، وقرروا أن يهلكوا قبل أن يُضيع المسجد ، وكنت يومها موظفاً بوزارة الأوقاف ، وذهبت إلى الشيخ الباورى في مكتبه أتعرف الأنباء .

الحق أن الرجل كان متوجّهم الوجه بادى الكآبة ، كان يرى العدون على المسجد عدواً على شخصه وعلى الإسلام معًا ، وقد أتعشه تحرك الجماهير وتحرج الموقف ..

وأخيراً منع الرئيس عبد الناصر هدم المسجد ، واتقى غضب الناس ، والغبار الكثيف الذي ستسود به وجوه الثوار .. !

لكن المستشفى الذي بنته السيدة الفضلى لخدمة المسلمين انتقل بقرار ثوري من الدائرة الإسلامية إلى دائرة أوسع ، فجعله عبد الناصر لخدمة أهل الأديان كلها ، أو لخدمة المتدينين وغير المتدينين من الشيوعيين والوجوديين .. إلخ .

كان المراد حرمان الإسلام من مؤسسات خاصة به تسدي الخير لأهله ، وتحفظ حاضره ومستقبله ، وقد تم ذلك بالنسبة إلى المستشفى والملجأ أما مبني الكلية فقد انتقل إلى دراسات لعلوم القرآن ، وظل المسجد إلى اليوم مثابة للناس وإن كان البلي قد أزري

بجدرانه وأثنائه فغاض الرونق ، وأمسى ذكرى ...

رحم الله الخازنادرة التي استودعت الله مالها ، وجاهدت في سبيله بتقديم الدواء
للمرضى والزاد للجياع ، والعلم لطلابه ، وألهم الرجال والنساء أن يتأنسوا بها .

امرأتان نادرتان

كانت أم المؤمنين « خديجة » سيدة ثاقبة البصيرة ، خبيرة بأغوار الرجال ، تعرف طبائعهم فلا يخفي عليها معدن نفيس ، ولا يخدعها طلاء مزور ! ولعل اشتغالها بالتجارة كون لدتها هذه الملكة فالتجار من أعرف الناس بطوابا النفوس !

وفي ميدان عملها التجارى عرفت خديجة محمدًا - عليه الصلاة والسلام - وخطبته لنفسها . ولم يكن محمد مجهولاً لدى جمهور العرب ، كانت خلائقه الزاكية موضع إجماع وحب ، وكثيراً ما تكون زكاة الباطن كصباحة الوجه أساساً لتقدير عام أو عنواناً لا يختلف فيه اثنان ..

لكن خديجة بعد زواجهما ازدادت خبرة ب الرجل وأدركت أى أفق من الكمال قد بلغه ! فلما أخبرها بما عرض له في غار حراء قاست المستقبل على الماضي . وأقسمت أن مثله لا يضيع ، وأنه يستحيل أن يخذل الله رجلاً قد أفاء عليه حلال النبل والشرف كلها . قالت : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتتحمل المكال وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق وتؤدى الأمانة ». إن الله لا يخزى في الدنيا ولا في الأخرى صاحب هذه السيرة ! ذلك إنسان مُحسن

من عدوان الشيطان « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بالله وكيلاً » .. وخدية من سروات قريش ، أى من قمة المجتمع العربي ، وهي أول من آمن من النساء ، لكن الإسلام دين عام ينتظم البشر أكبادهم وأصغرهم ، فإذا كانت أفتدة بعض الأغنياء تهوى إليه ، فإن جاهير من الفقراء تدخل فيه و تستبشر به ، السادة والعبد

جميعاً لهم مكان واحد فيه ، فأبو بكر المرموق يعتقه ، وبلال المملوك يعتقه . ثم يجيء عمر العظيم فيقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا !!

لا طبقات في هذا الدين . ولكن أخوة عامة ، وإذا كانت خديجة أول من آمن ، وهي من البيوتات الرفيعة ، فإن أول من استشهد « سمية » أم عمار وهي من البيوتات المستضعة التي لا يؤبه لها .

وختبار الله لعباده فنون ، إنه يختبر بالشهرة والحمول وبالثروة والعدم وبالصحة والستقام . والمهم هو الآخرة ، عن عثمان بن عفان - وهو من قمة قريش - قال بينما أنا أمشي مع رسول الله بالبطحاء إذ بumar وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الإسلام ! قال أبو عمار : يا رسول الله ، الدهر هكذا ؟ فقال : صبراً يا آل ياسر ، اللهم اغفر لآل ياسر ، وقد فعلت ! » .

وجاء قادة الجاهلية ليسروا بمنظر التعذيب ، وكان بينهم أبو جهل الذي غاظه تجلد المرأة ، وصبرها على ما ينزل بها ، فطعنها بحربته في أسفل بطنه طعنة مزقت رحمها وأودت بحياتها فكانت أول شهيدة في الإسلام ..

وطال المدى على توقع العقاب الإلهي حتى كانت غزوة بدر ، وخرج الفرعون الصغير ليقاتل المؤمنين وهناك وكل القدر به اثنين من فتيان الإسلام ظلا يناوشانه بسيفيهما حتى صرخ ! « إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذناه وبيلا ». .

كم أشعر بالإعجاب لأول امرأة أسلمت ، ردّول امرأة استشهدت .

الصديقة الأديبة

كانت أم المؤمنين عائشة ذواقة للأدب العربي ، شعره ونثره ، سريعة الاستشهاد به فيما يمر بها من أحداث ، ولم أر هذه القدرة لغيرها من النساء ، فعندما قتل على بن أبي طالب قال :

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر !

ولما احْتَضَرَ أبُوها أبو بكر قال :

لَعْمَرُكَ ما يغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَقْيَ إِذَا احْشَرْجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فقال الصديق لافتًا نظرها إلى ما هو أفضل ، ليس هكذا تقولين ! قولي : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ». .

وعندما قتل أخوها محمد بن أبي بكر بمصر قال :

وَكَنَا كَنَدْمَانِيْ جَزِيَّةَ حَقَّبَةَ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّىْ قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا ... !
فَلَمَّا تَفَرَّقَا كَانَىْ وَمَالِكًا ! لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمَنْ نَبَتْ لَيْلَةَ مَعَا ... !

قال الرواية : وأرسلت عائشة أخاه عبد الرحمن إلى مصر فأحضر أولاد أخيها اليتامي ، واحتضنهم حتى إذا كبروا قالت عبد الرحمن : لقد ضممتهم إلى لصغر سنتهم وخشيتك أن تتألف نساؤك منهم ، فكنت أنا أطفئ بهم ، وأصبر عليهم ، فالآن خذهم إليك وكن لهم كما كان حُجَّيَّةُ بن المضَّبُّ لأولاد أخيه معدان !

ولحجية هذا قصة طريفة بعد أن مات أخوه معدان ! فقد رأى أولاده اليتامي تخرج

إليهم خادمته ببقايا لبن في قعب مكسور ، هو كل ما جادت به زوجته عليهم ! فلكله
الوجوم والغضب ! ثم أمر أن تخلب ماشيته في بيت أخيه قبل أن تخلب بيته ! وأن يأكل
يتاماه من الأصول لا من الفضول ، وغضبت لذلك امرأته فقال حجية :

تلوم على مال شفاني مكانه إليك فلومي مابدا لك واغضبي !
رأيت اليتامي لا تسدُّ فقرورهم هدايا لهم في كل قعب مشعَّب !
ذكرتُ بهم عظام من لو أتيته حريراً لآسانى لدى كل مركب !
أخى والذى إن أدعه ملمة يُجنبى وإن أغضبْ إلى السيف يغضب !
إن الصديقة الأدية تذكر أخاها بخلال رجل من شعراء الجاهلية ! قال عروة بن
الزبير : ما رأيت أعلم بطبع ولا بفقه ولا بشعر من عائشة .

وفي طبقات ابن سعد كانت عائشة أعلم الناس ، يسألها الأكابر من أصحاب رسول
الله ، وعن أبي سلمة : ما رأيت أعلم بسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عائشة ،
ولا أحداً أفقه في رأي إن احتاج إلى رأيه ، ولا أعلم بآية فيها نزلت ولا فريضة ، من عائشة
رضي الله عنها .

وكانت - رضي الله عنها - تفتى في عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت ..

وعلم عائشة يتجاوز الفتوى إلى التصحيح ، ورد ما يشيع من خطأ ، وكان رسوخها
في فهم القرآن ، وفقها في السنة النبوية . واطلاعها الواسع على أدب العرب يجعلها
المرجع الثقة أبداً .

ألا تكون هذه السيرة الناضرة أسوة للنساء المسلمات في شتى الأعصار والأمسكار ؟ أم
نقول للنساء : اقعدن في البيوت لا شعر ولا نثر ، ولا دين ولا دنيا !!

المرأة في العلم والأدب

مع اضمحلال الفكر الديني في الأعصار المتأخرة هبط المستوى الإنساني للمرأة هبوطاً مخجلاً في ميدان العلم والأدب ، وعادت الجاهلية الأولى تنشر مآثرها ونزعاتها ! بل إننا نقرأ كلامات للنساء الأولى يستحيل أن تكون لها نظائر على لسان النساء في أعصار التخلف الأخيرة ، تدبر ما تقوله « أم الصريح الكندية » ترثي رجالاً من قومها ثبتوا في الميدان حتى تفانوا جميعاً :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم ! وأن يرتفعوا من خشية الموت سُلّماً
ولو أنهم فروا لكانوا أعزّة ! ولكن رأوا صبراً على الموت أكراها !
والاعتذار عن فرارهم - لو فروا - إنما وقع لأنهم نفر قليل واجه جيشاً كثيفاً ، وكان
يمكن أن يقولوا ما قاله الحارث بن هشام لما ترك المعركة لأنه التقى - وهو فرد - بجيش كبير
واعتذر قائلاً :

وعلمت أنّي إن أقاتل واحداً أقتل ولا يضرّ عدوّي مشهدى
فَصَدَّدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَجْهَةِ دُونَهُمْ طمعاً لهم بعذاب يوم مُرْصَدٍ !

لكن هذه الفلسفة السياسية لم تعجب المرأة الشجاعة ، ورأت أن الصبر على الموت
أكرم !! ومثل هذه المرأة يلد أولى الفداء والتضحية والرجال الذين يحملون الإيمان
بأرواحهم دون تردد .

وهذه امرأة أخرى ، هي أم صعلوك من صعاليك العرب ذهب ابنها في إحدى
الغارات وبقيت هي تنتظره فلم يعد ، ولو كانت هذه الأعرابية أمّاً لأحد « اللوردات »

الإنجليز لترجمت كلماتها على أنها من روائع الأدب !

إن ابنها ذهب كغيره من الصعاليك يطلب الغنى ويكره الفقر ، والمرأة تسمى الفقر هلاكا (!) وهو كذلك في دين الله وفطرة النفوس ولكن الفقر - في التدين الفاسد - متزلة من منازل الصالحين حين يتقربون إلى الله !

وهذه قصيدة المرأة :

طاف يبغى نجوة من هلاك فهلك
ليت شعرى ضلة أى شيء قتلك
أمريض لم تعد؟ أم عدو ختكلك؟
والمنايا رصد للفتي حيث سلك !
أى شيء حسن لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك !
طالما قد نلت في غير كدّ أملك !
إن أمراً فادحًا عن جوابي شغلك
ساعرٌ النفس إذ لم تجب من سألك !
ليت قلبي ساعة صبرة عنك ملك !
ليت نفسي قدّمت للمنايا بذلك ...

وقالت صفية الباهرية ترثي أخاها ، وتذكر أنها كانت معه فرسى رهان في سباق الأمجاد والمكرمات حتى ذهب وبقيت وحدها ..

حياناً بأحسن ما يسمى له الشجر !
كنا كغصنين في جرثومة^(١) سِمَقا
وطاب فيآهما واستُنْظَرَ الشمر !
حتى إذا قيل قد طالت فروعها
يُقْرَبُ الزمان على شيء ولا يذر !
يحلوا الدجي ، فهوى من بينها القمر !
كنا كأنجح ليل بينها قمر ...

هكذا كان الرجل والمرأة ، فهل هما كذلك الآن ؟

(١) الأصل والأساس .

في مواجهة الكذاب

كانت الأسرة الإسلامية كلها تهم بشئون دينها وبقضاياها السياسية والعسكرية ! ولم يكن هذا الاهتمام التقاط أخبار أو تسمع أنباء المعارك في شتى الميادين . بل قد يكون مشاركة شخصية من الأمهات والزوجات ...

وأمامى نموذج مثير لقصة وقعت فى حرب الردّة عندما اشتبك المسلمون فى قتال
فادح المغارم مع أتباع مسلمة الكذاب !

ومسلمة هذا شخص عجيب فإن جنون العظمة قد يدفع أصحابه إلى ما يشاكل طباعهم من انحراف « فنيرون » قد يحرق روما و « هولاكو » قد يدمر بغداد ، وقد يستطيع مسلمة أن يكون قاطع طريق فيشبع تطلعه إلى الظهور ! أما أن يدعى النبوة فهذا ما لا مساغ له ..

لكن سعار العظمة جعله يَدْعُوها ويرسل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قسم الأرض نصفين بينها ! وقد تجاوز النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الهزل ، وأرسل حبيب بن زيد يتحدث معه ويستطلع خبره ويحاول ردّه إلى صوابه ، وكان حبيب شاباً مؤمناً جريئاً ، فلما رأه مسلمة قرر قتله ! فسألته أولاً : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ فَتَصَارَمَ حبيب ، وأشار بوجهه لا أسمع ، وكرر مسلمة دعواه ، وكرر حبيب رفضه الصامت المستهزئ المستكبر !

وهنا بدأ مسلمة يقطع الشاب المؤمن عضواً عضواً ، كلما سأله فرفض الإيمان به قطع

جزءاً من جسمه ، فلما استمر تقطيع الأشلاء ، ونづف الدماء فاضت روح الشاب الجلد
وهو يحتقر الباطل ويعز الحق !

وعلمت أمه « نسيبة بنت كعب الأنبارية » بمصرع ولدها على هذا النحو فندرت إلا
تغسل حتى تأثر لولدها وحتى يقتل مسيلة ، وخرجت المرأة مع ابنها عبد الله واشتراك في
معركة اليمامة وقاتلته جيش مسيلة أشد قتال ، وأصابها اثنا عشر جرحا وهي مُقدمة
شجاعة ، وقطع يدها خلال المعركة الشرسة ، لكن خيل الله قاتلت مسيلة ومحى
أكذوبته بالدم الغزير ، وانتصر الحق ، وزاح الإفك ، وعادت نسيبة بعدما وفت
بندرها ... !

أكان أحد يستطيع ردّها عندما خرجت ؟ كلا لقد شهدت من قبل قتال أحد ،
وشهدت بيعة الرضوان في عمرة الحديبية وشهدت فتح مكة و يوم حنين ، ومن قبل ذلك
شاركت في بيعة العقبة ، إنها مثل عال للمسلمة المجاهدة التي شرفت أسرتها ودينها ...
وأعلم أن بعض المتفهمين في عصرنا لو صادف المرأة الصالحة وهي خارجة من بيته
لتقاتل الكذاب وأتباعه لقال لها : اقعدى في بيتك ، لا يجوز لك هذا !
إن هؤلاء المتفهمين تعرفهم عصور الاصحاح العقل ، ولا يمكن أن يظهروا في
مجتمع ناضج أو في سلف صالح .

قانون «الحمد»

بيتٌ عريق أخذت عليه الأيام فرزلت مكانته في المجتمع ، وأطمعت من دونه من الناس أن يتقدم خطاباً لبنياته وما كان يحرؤ على ذلك من قبل ..

وغضب رب البيت لكرامته التي جُرحت ، وتساءل في أسف : إِذَا عرضت له أزمة عابرة تطاول عليه الصغار ، وجاءه من ي يريد الزواج بابنته وهو ليس لها بفاء؟

لذلك طرد بعنف بالغ الخطاب القادر قائلًا له : ت يريد أن تكون سيداً بأخذ سيدة من بيتنا لا ترفع إلى مستواها؟ إذ هب عَنَّا فالبنات كثُرْنَ بعد أن منع الإسلام واد البنات ! أما ابنتنا في مكانتها العالية لن تُرخصها أزمة منها اشتدت ! ! وهك الأبيات التي تفجرت فيها ثورة رب البيت الجريح .. !!

تَبَغَّى ابن كوز - والسفاهة كاسمها -
ليَسْتَادَ مَنَا أَن شَتَوْنَا لياليها
فَأَكْبَرَ الْأَشْيَاءَ عَنْدِي حَزَازة
بَأْنَ أَبْتَ مَزْرِيَاً عَلَيْكَ وزاريا
وَإِنَا - عَلَى عَصْ زَمَانَ الدُّواهِيَا -
نَعَالِجُ مِنْ كَرْهِ الْخَازِيِ الدُّواهِيَا
فَلَا تَطْلُبْنَا يَا بَنَ كَوْزَ فَإِنَه
غَذَا النَّاسَ مَذْ قَامَ النَّبِيُّ الْجَوَارِيَا
وَإِنَّ الَّتِي حُدَّثَنَا فِي أَنْوَفَنَا
وَأَعْنَاقَنَا مِنْ الإِبَاءِ كَاهِيَا

والذى استوقفنى من هذه القصة أمران : أولها أن الرجل الذى أحرجه الفقر تماسك وتحمل آلاماً هائلة حتى لا يُلْمَ بدنيته أو يقترب ما لا يليق به والثانى أنه أعزّ ابنته وجعل مكانتها فى أنفه وعنقه فلن تذل أبداً ما دام حيا ! وكلا الأمرين من خلائق السادة الذين يحترمون أنفسهم وأهلיהם ، ولا يعني غير ذلك فى القصة كلها .

والمجتمع العربي قد يحاكي تقاليد صارمة بعضها لا يأس به وبعضها فيه نظر ، واهتمام العرب بنسبيهم وسمعتهم قد يخالفه غرور وكبر ، ولكن الأستاذ أحمد موسى سالم يقول : إن العرب في حياتهم الأولى كان يحكمهم قانون « الحمد » الذي جاء به اسم محمد من مشرق طفولته تأكيداً لمراحل الاصطفاء له من بين محمد العرب لا من بين مساوئهم ، فكان هو الحمد بحسب قانونهم وكان كما هو الواقع وكما قال عن نفسه « خيار من خيار من خيار » .

وقد شرحت النساء هذا القانون الشريف بقولها :

نَعِفَّ ونعرف حق القرى ونتحذل الحمد كثراً وذخراً .. !
وتقول أم حاتم الطائي - وكانت في سباق المكارم تجود لمن يسألها بكل ما تملك - :
لعمري لَقِدْمَا عَضَنِي الجوع عَصَّةً فَآلَيْتُ أَنْ لَا أَمْنَعَ الدَّهْرَ جائعاً !
وما إِنْ ترُونَ الْيَوْمَ إِلَّا طَبِيعَةً ! فَكَيْفَ بَتَرَكَ يَا بَنْ أُمِّ الطَّبَاعَةِ ؟
فهذه امرأة جاعت مرة فأقسمت ألا ترى جائعاً إلا أعطته ما تملك ! وكان من حقها
أن تفعل ذلك ! ولا يستطيع أحد أن يمنعها ..

وكانت إحدى حكيمات النساء قبل الإسلام - وهي جمعة بنت الحسن - تصف
الصدق وتجعله فوق كل الفضائل فتقول :

وخير خلال المرء صدق لسانه ! وللصدق فضل يستبين ويبرز !
وإنجازك الموعود من سبب الغنى فكن موافياً للوعد ، تُعطى وتُنجز !
وقانون الحمد الذي أشار إليه الأديب الكبير جدير بالإقرار مع تعليق محدود ،
فالإسلام يريد منا أن نعمل ابتغاء وجه الله وانتظار مثوبته يوم اللقاء الأخير ، فإذا أخلصنا
العمل له سبحانه جازانا بالذكر الحميد في الدنيا والآخرة ، ولا يجوز أن نعمل طلباً لثناء
الناس كما لا يجوز أن نُعرض سمعتنا للقليل والقال ...

وفي العرب ميل للفخر والظهور والمباهة وهي رذائل تشوب العمل الصالح وقد
تطبيع بها ..

والحق أن المرأة العربية في الجاهلية الأولى بربت شمائلها الحسان في ميادين كثيرة أيام الحرب وأيام السلم على سواء ، ولم توضع أمامها العوائق التي وضعت أمام المسلمين في عصور الانحطاط العام للأمة الإسلامية ..

وفي صدر الإسلام استطاعت امرأة من الخوارج أن تقود جيشاً يهزم الحجاج ويحصره في قصره ويتركه وهو مذعور ، حتى عَيْرَه أحد الشعراء على هذا الموقف المخزي بقوله :

أَسْدٌ عَلَىٰ وَفِي الْحَرُوبِ نِعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ !
هَلَا بَرَزَتْ إِلَى غَزَالَةِ فِي الْوَغْيِ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرٍ !

أما في العهود الإسلامية الأخيرة فإن المرأة ما كانت تدرى وراء جدران بيتها شيئاً !
وعندما غلبتنا حضارة الغرب المتتصر كان همّ المرأة أن تقلّد في الثوب الرشيق والمنظر الأنثيق ! أما في غزو الفضاء واكتشاف الذرة ودراسة النقوس والآفاق فإن الأمر لا يستحق الاكتئاث ، لأنه ليس من شأنها ولا من رسالتها .. !!

إن الإسلام لا يقيم - في سباق الفضائل - وزناً لصفات الذكورة والأنوثة ، فالكل سواء في العقائد والعبادات والأخلاق ، الكل سواء في مجال العلم والعمل والجد والاجتهداد .

لا خشونة الرجل تهب له فضلاً من تقوى ، ولا نعومة المرأة تنقصها حظاً من إحسان .
وفى القرآن الكريم « ... من يعمل سوءاً يُجزَّ به ولا يجد له من دون الله ولها ولا نصيرا . ومن ي عمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

وفي عالم الرياضة اليوم يُفصل بين مباريات الرجال والنساء ، وتوضع مسافات وأرقام لكلا الجنسين على حدة .. ربما صَحَّ هذا في دنيا الألعاب لكنه مستحيل في سباق الصالحات ، وكسب الآخرة ، ربما تقدمت امرأة فسبقت ذوى اللحى دون حرج وربما تأخرت ولو كانت قرينة أحد الأنبياء ... ولذلك قلنا : امرأة فرعون خير منه ، ومريم أشرف من رجال كثيرين ، ونوح ولوط خير من زوجاتهم ! !

وأذكر أن أحد الناس قال لي : إن القرآن يرجع الذكورة على الأنوثة ! ويسوق لزعمه قوله تعالى : «وليس الذكر كالأنثى» وهو فهم أعوج ! .

فالجملة القرآنية وردت على لسان امرأة عمران التي كانت حاملا ، وظنت أنها ستد رجلا يكون سادنا للمسجد الأقصى وقائدا للعبادين والمدارسين فيه ، فلما فوجئت بإخلاف ظنها وأنها ولدت أنثى ، قالت هذه الكلمة لأن المرأة لا تصلح لهذه القيادة بطبيعتها .

وقد قبلت الأمر الواقع لأنه مراد الله ! ودعت لابنتها ولذريتها بالصيانة والرعاية فاستجاب الله الدعاء بأن أعلى قدر المولودة فوق ألوف مؤلفة من البشر ، وأعلى قدر ابنها فجعله من الأنبياء أولى العزم ...

ولاشك أن هناك وظائف تخص النساء وأخرى تخص الرجال ، ولا علاقة لهذه التخصصات بموازين العدل أو الفضل الإلهي .

الباب الثالث

من البيت نبدأ

- ١ - الزواج عبادة.
- ٢ - «*تَخِيرُوا لِنُطْفَكُمْ*».
- ٣ - قواعد ضرورية للزواج.
- ٤ - الزواج وسيلة لاغائية.
- ٥ - الكهف الوحيد للرجل والمرأة.
- ٦ - ثواب الإنفاق على البيت.
- ٧ - لاتهونوا من وظيفة ربة البيت.
- ٨ - التي فقدت زوجها.
- ٩ - للعرض قداسة.
- ١٠ - البيوت تبني على الحب.
- ١١ - تصريحات الرجال والنساء.
- ١٢ - أين وظيفة البيت؟
- ١٣ - الآباء في زماننا.
- ١٤ - صلة الأرحام من الإيمان.
- ١٥ - العمل لا العدد.
- ١٦ - المسمخ الذي أصاينا.
- ١٧ - الدين عند «تاتشر» وعندنا.
- ١٨ - الإيدز وحرية التختن.
- ١٩ - محنـة المـخدـرات.

الزواج عبادة

الحافظة على الحياة وطلب امتدادها إلى قيام الساعة من تعاليم الإسلام ، فقد رغب في الزواج لهذا الغرض ، واستحب أن يكون الزوجان آباء ، وأن يكون لهم بعد الأولاد أحفاد « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ... » .

ومن هنا كان رفض الإسلام للرهبانية ! فإن حبل الحياة ينقطع عند الراهب أو الراهبة ، وبدأ شبح الفناء يلوح ، فإذا شاعت هذه العبادة بين الناس ، وأقبلوا على الرهبانية التي ابتدعوها فمعنى ذلك أن الإنسانية تتصرّ ، والعالم يتضليل . !

فلا يستغربن أحد من الإسلام أن يجعل الزواج عبادة ، وأن يجعل قضاء الوطر في ظله قربى يؤجر المرء عليها وفي الحديث « من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر » وفي الحديث أيضا « أربع من أعطين فقد أعطى خير الدنيا والآخرة ، قلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تغيه حوبا في نفسها وما له » والحب هو الإثم ، أما البدن الصابر على البلاء فهو عندي البدن القوى الناهض بالأعباء والواجبات ، لا يكل ولا ينهم ، وهل الرجولة إلا هذا التجدد ؟

لكن السؤال الذي يحب التراث في إيجابته هو : من التي يتزوجها المسلم ؟ يحب أن نعرف أن الزوج ليس التقى لمزيد من الإنتاج الحيواني ، إن الأسرة في الإسلام امتداد للحياة والفضيلة معا ! امتداد للإيمان والعمان على سواء .

ليست الغاية إيجاد أجيال تحسن الأكل والشرب والمتاع ، إنما الغاية إيجاد أجيال تحقق

رسالة الوجود ، ويتعاون الأبوان فيها على تربية ذرية سليمة الفكر والقلب شريفة السلوك والغاية .

وتدبر موقف أبي الأنبياء إبراهيم بعد ما أنعم الله عليه بالأولاد ، إنه يقول : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبّل دعاء » .

إنه يريد أولاً يركعون لله ويسجدون ! ما أصبح أن ينسى رجل فساقاً وملاحدة ، وفي الأرض الآن أم لا تبالي ما تلد ؟ أحياناً أولادها كفاراً أم يحيون مؤمنين ؟ المهم رفع مستوى المعيشة ، وليكونوا بعد حطباً للنار ! ! .

ونحن المسلمين نأبى هذا التفكير ، ونعدّ أصحابه دوابّاً مهما كانت سماتهم الظاهرة ..

ومن دعاء عباد الرحمن عندما يختارون أزواجاً لهم و يؤسسون بيوتهم « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » .

إن العين المتنقلة بين شتى الوجوه عين خائنة ، تقود صاحبها إلى الضياع ! ينبغي أن يكون كلا الزوجين قرة عين لصاحبه ، وأن يوطن نفسه على هذا الاستقرار ، وأن يتعاوناً بعد على تربية أولادهما وصيانة حاضرهم ومستقبلهم .

وإذا كان باب التنافس في الحيات مفتوحاً ، فليكن المسلم بعيد الهمة واسع الطموح .

ليكن إماماً يقتدى به ، ولا يتکاسل حتى يجيء في المرتبة التالية التابعة ، إن علو الهمة من الإيمان ، وإن الله يحب من يطلب الفردوس الأعلى .

وإقامة البيت المسلم يحتاج إلى جهد كبير .

«تَخِيرُوا لِنُطْفِكُمْ»

الوراثة حق ، ولكن شأنها يدعو للحيرة ، فنحن لا ندرى بدقة ماذا يتنتقل للفروع من الأصول ، وما الذى يظهر فى العقب القريب ، وما الذى يمكن ليظهر فى الأعقاب التالية ! وما الذى يتلاشى إلى الأبد ..

ثم إن هذه الموروثات تتفاعل مع البيئة التى تستقبلها تفاعلاً غامضاً ، فهناك بيئات تعين وهناك بيئات تعوق ، وقد تصادف بعض الخصائص النفسية ما يضاعف نماءها ووهجها ، وقد تصادف ما يقفها مكانها لا تتحرك ولا تشر ..

إن ذلك كله من الأقدار التى يستحيل أن نخترق أسوارها ، بيد أنه يجب أن نفعل ما يأمرنا الشارع به ، ففيه خيراً العاجل والآجل ..

من ذلك ضرورة اختيار زوجة صالحة عند الاتجاه إلى بناء الأسرة ، فإن الزواج ليس قضاء وطر ، وإراحة بدن ثائر ، الأمر أسمى من ذلك .

وقد جاءت في ذلك آثار نذكرها على ما بها «إياكم وخطراء الدمن ! قالوا : وما خطراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسنة في المبت السوء ! ». .

وقال : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس». .

وهذه الأحاديث قد تكون ضعيفة ، ولكن يجبر ضعفها ما جاء في الصداح «الناس معادن» وما دمنا قد خلقنا من الأرض ، فالأرض نفسها ليست سواء في نواحيها الكثيرة ، هناك الخصب وهناك الجدب ، هناك السهل وهناك الوعر .. !

وطالب الزواج عليه أن يرتاد لنفسه ويطلب الأذكي والأنقى ...
ونحن عادة نحب المجال الباهر ! أو نحب الغنى الواسع ، أو نحب العِزُّوة القوية ولست
أطالب الشباب بتجاهل هذه البواعث ! لتكن ثانوية عند البحث ، وليكن الغرض الأول
امرأة ذات خلق وتقى ! فإن هذا الغرض إذا صاع لم يبق ما يحرض عليه ..

لفت نظرى وأنا أطالع درسا في عالم البحار منظر السمك الملوّن ، كان إهاب السمكة
 مليئا بالنقوش الرائعة والزخارف التي تسبي العيون باتساق الألوان وغرابة الرسوم ... ثم
 عرفت أن هذا النوع من الأسماك سامٌ كله ! فقلت : ياعجبنا المنظر حلو والمخبر مؤذٍ ، ما
 أكثر هذا بين البشر « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في
 قلبه وهو ألد الخصم » ..

أنصح طالب الزواج ألا تخدهم الظواهر المزوّقة ، وليكن همه الباطن الشريف !
تقول : ومن يعرف الغيب ؟ وأجيب البيوت أمارة مصدقة ، ويغلب أن تكون البنت
 مثل أبيها أو أمها ، وعلينا أن نستشير وأن نستخير .

ولذلك أرشدت منظمة الصحة العالمية طالبي الزواج أن يختاروا زوجات ترعرعن في
 بيئه صالحة ، وتناسلن من نطفة انحدرت عن أصل كريم .

وقد أوصى عثمان بن أبي العاص الثقفي أولاده في تخيير النطف وتجنب عرق السوء فقال
 لهم : « يابنـي الناكح مفترس - زارع - فلينظر امرؤ حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما
 ينجـب ، فتخـيرـوا ولو بعد حين ». .

وأجاب عمر بن الخطاب أحد أبنائه لما سأله : ما حق الولد على أبيه ؟ بقوله : « أن
 ينتـقـيـ أـمـهـ ، وـيـخـسـنـ اـسـمـهـ ، وـيـعـلـمـهـ الـقـرـآنـ ». .

إن السعادة الزوجية من مطالب المؤمنين ، فالمؤمن يكره أن يعيش مستوحشا قلقا لا
 قرار له ، ومن ثم جاء في دعاء عباد الرحمن « ربنا هب لنا من أزواجاًنا وذرياتنا فرّة
 أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » أى قدوة ، ولنذكر ما روتـه عائشـة رضـى اللـهـ عـنـهاـ مـرـفـوـعاـ
 « تـخـيرـوا لـنـطـفـكـمـ وـأـنـكـحـواـ الـأـكـفـاءـ ». .

قواعد ضروريّة للزواج

لضمان ذرية شريفة نظيفة وضع الإسلام قواعد لعقد الزواج لابد من رعايتها ، فلا يجوز الزواج من ملحدة تكفر بالله واليوم الآخر ، ولا من وثنية تؤمن بـتعدد الآلهة ، فإن امرأة من هذا الصنف لن يقفها حدًّا من حدود الله ، ولن تفرق بين الإحسان والإباحة ولا بين العفاف والخنا ! .

وَأَمَّةٌ مُوحَدَةٌ خيرٌ مِنْ أُمَّةٍ مُشْرِكَةٍ ، وَأَمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ خيرٌ مِنْ سُوادِ النَّاسِ خيرٌ مِنْ أَسْتَاذَةٍ مُلْحَدَةٍ فِي إِحْدَى الْجَامِعَاتِ ، إِنَّا نَنْشُدُ سَيِّدَةً تَرْضَعُ أُولَادَهَا التَّقْوَى وَالْخَلَقَ وَالرَّكْوَعَ لِلَّهِ وَالْأَسْتِعْلَاءَ عَلَى الدُّنْيَا .

هذا يقول الله تعالى « ولا تنکحوا المشرکات حتى یؤمننَّ ، ولا مُؤمنة خير من مشرکة ولو أعجبتكم ولا تنکحوا المشرکين حتى یؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرک ولو أعجبكم أولئک يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ... » .

هل الأوروبيات والأمريكيات من هذا النوع؟ إنهن يدعين المسيحية ! وليتهن صادرات ! إن المجتمع الغربي غارق في الآثام إلى أذنيه ، وما أحسب لقاء الله يخطر على قلبه ساعة من نهار ، العهر هو القانون السائد ، وقلما تزول بكارة في زواج شرعى ! . وأعتقد أن التاريخ لم يعرف مدينة كرعت من الشهوات الحرام كما يحدث الآن في أقطار الغرب التي افتَنَتْ في تزويق الأجساد واستفزاز الغرائز إلى أبعد الحدود ..

ويستحيل أن ينسّل المسلم أولاداً أتقياء من زواج بهلاء اللعبات الضائعات « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطبيات للطبيين والطبيون للطبيات . أولئک

مبئون ما يقولون لهم معرفة ورزق كريم » .

صحيح أن الإسلام أباح الزواج من الكتابيات ، ولكن أين هن؟ ربما وجدت نسوة لديهن بقايا وحى وعفاف ومعرفة بالله الواحد . وقد يكون زواج المسلم منهن بابا إلى أن يعرف الإسلام ويدخلن فيه ، والأساس في مثل هذا الزواج أن يشب الولد على دين أبيه وعباداته وفضائله ، بيد أن ما يقع غير ذلك .

وقد رأيت في مشاهد غريبة أن الإسلام يفقد الوالد وما ولد ! وأن الزواج من أجنبية ينتهي بعasaة ، وأن المدينة المستنصرة تحرف الكل إلى القاع ..

وحَرَمَ الإسلام تحريراً قاطعاً أن تقترن مسلمة بغير مسلم ، بل ذلك الاقتراض نظام جديد للزنا ، وقد ثار سؤال : لماذا أباح الإسلام الزواج من كتابية ولم يبح مسلمة لكتابي؟ والجواب أن رب البيت المسلم يستحيل أن يمر بخاطره أن يهين موسى أو عيسى ، إنه يحترمها كما يحترم نبيه محمدا ، ويصفها بالوجاهة والرسالة وقوة العزم وصدق البلاغ ! وهذا معنى يلقى السكينة في نفوس أتباعها .

أما اليهود والنصارى فإن ضعائهما على محمد أعيت الأولين والآخرين ، وقد استباحوا قذفه بكل نقية .

وفي عصرنا هذا منحت إنجلترا أعظم جائزه أدبية لكاتب نكرة كل بضاعته شتم محمد والولوغ في عرضه والتهجم على حُرمه ! فكيف تعيش مسلمة في بيت تلك بعض معاليه ؟ إن الزواج ليس عشق ذكر لفاتن أنثى .. !! إنه إقامة بيت على السكينة النفسية والأدب الاجتماعية ، في إطار محكم من الإيمان بالله والعيش وفق هدaiاته ، والعمل على إعلاء كلمته وإبلاغ رسالته .

الزواج وَسِيلَةٌ لاغَايَةٌ

وظيفة البيت الأولى الحفاظ على الإيمان والعبادة والخلق الشريف والسلوك القويم والتقاليد الراسدة والمثل العالية ! والأبوان شركاء في أداء هذه الوظيفة ، ونصيب الأم منها ضخم ثقيل ...

وعلى الرجل وهو يفكر في الزواج أن يعرف هذه الحقيقة ، ومن الجحون أن يكون الزواج انحصرا في إدراك الشهوات ، وطلب المتع ..

إن هناك من يعيش ليأكل ! أشرف منه بداعه من يأكل ليعيش ! ونحن نعرف عرام الغريزة وحده صوتها ! إن التنفيذ عنها مطلوب وسوف يتم على عجل أو على مهل ، وتجيء آثاره المحتومة ذرية بعد ذرية فإن لم نحسن التربية والعناية فلن نحرز من الكمال البشري سهما ، وسنعقب أولادا كثيرين يكونون عَلَفًا لمدافع الأعداء أو هشيمًا تحت دباباتهم وطائراتهم .. المهم إنشاء أجيال زاكية ذكية ناشطة قوية تقود ولا تقاد ، تهوى الصلاح وتكره الفساد .

وأول اللبنات في هذا البناء انتقاء الأمهات من بيوت متدينة معروفة بالتقوى ، فإن ذلك أدنى إلى ارتقاب ثمر ناضج طيب قال تعالى « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ». .

وارتقاب الخير من البيوت الشريفة معروف من قديم ، وهو سر دهشة الناس عندما رأوا مريم حملت من غير زواج فقالوا « يائحت هارون ما كان أبوك امراً سُوئٌ وما كانت

أمك بغيها » ولم يُعرفْ أن هناك خارقاً للعادات حتى نطق الطفل المعجزة « قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » .

وفي الحديث الصحيح « الناس معادن » والشعور بهذه الحقيقة جعلنا نقبل حديثين ضعيفين في الموضوع الذي نشرحه هما « تخيّروا لنتفكم فإن العرق دساس » « إياكم وحضراء الدمن ! قالوا وما حضراء الدمن ؟ قال المرأة الجميلة في المبت السوء » وقد يداها قال الشاعر :

على وجه ميّ مسحة من ملاحة وتحت الثياب الخرى لو كان باديا
ألم تر أن الماء يكدر طعمه ! وإن كان لون الماء أبيض صافيا !
وجاء في الحديث « تنكح المرأة لأربع لامها ، ولحسها ، ولجهاها ، ولديتها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

والناس اليوم يتطلعون إلى ذات الغنى ، وقد يتنافسون وراء مملكة جمال تبيع جسدها في ميدان الفن أو ميدان عرض الأزياء ، وما قيمة امرأة لا ترد يد لامس ، وما قيمة بيت يبني على هذا الجرف المنهاج ؟ إن الزواج وسيلة لا غاية ! وسيلة لامتداد النوع الإنساني العالى ، وليس مقراً فقط لإشباع النهمة ، وتحصيل المتعة .

وبيت متوسط الدخل تعمره امرأة صالحة أسعد وأرشد من بيت واسع الثراء تسكنه امرأة هابطة ، وفي ذلك يقول الرسول الكريم « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » وفصل ذلك في حديث آخر « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة ، وإن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرتها ، وإن أقسم عليها أبتره ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماليه » .

أترى هذه الزوجة تنبت في المجتمع من غير إعداد وعناء ؟ أيمكن أن تكون نبتاً يطلع من تلقاء نفسه في بيئه يسودها الجهل والتخلف ؟ وتحرم عليها الثقافة الواسعة ؟

الكهف الوحيد للرجل والمرأة

هناك مسار قدُّ - لا مسار غيره - يسمح فيه للغرائز الجنسية أن تنطلق : هذا المسار هو الزواج ، وكل ما عداه حظرته شرائع الله في جميع الأديان ، وَعَدَتْهُ من المسالك المنكرة ! وقد لخص القرآن الكريم هذه القاعدة في قوله تعالى « والذين هم لفروجهم حافظون . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكُتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ». .

بيت الزوجية هو وحده الذي يجمع بين الذكر والأنثى ، وكل وطريقه يقضي بعيدا عنه فهو عصيان لله واعتداء على حدوده ، لا خلاف في ذلك بين موسى وعيسى ومحمد ! والتسبيب الواقع الآن في أرجاء العالم يستحيل أن يقبله ذو دين .

ورجال الكهنوت استولى عليهم بروء شديد تجاه عواصف الإثم التي تحتاج العالم ، بل إن بعضهم أسهם في سن القوانين التي تنظم الفاحشة وترسم دائتها ! وليس ذلك بمستغرب على أناس زحرتهم تiarات شقى عن أصول الاعتقاد ومنطق الإيمان .

الأسرة هي الكهف الوحيد الذي يجمع بين رجل وامرأة ، ومن ثم فإن تكوينها دين ، والحفاظ عليها إيمان ، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد ، ورعاية ثمارتها من بنين وبنات جزء من شعائر الله ...

وفي عصرنا هذا استغنى الماجنون والفاجرون عن جو الأسرة بعوضين لعينين ، الزنا واللواط ، وتدخل القانون الزائف فأباح تطلعات الجسد في هذين المجالين ، ما دام الأمر بعيدا عن الإكراه ! ثم ضمَّ إلى ذلك المراقصات العابثة وأنواع الخلاعة الأخرى ..

وقد لفت أنظارنا أن الحرب المضنية ضد مرض «الإيدز» يقصد بها تأمين الشواذ أو تحصينهم ضد هذا البلاء الماحق ! .

وهذا غرض خسيس ، وسعى غير مبارك ، والذى يشفى مريضا «بالإيدز» ليتمكنه من العودة إلى فسوقه لا يقل عنده انحرافا ..

وقد أجمع الإخصائيون على أن الوقاية من هذا المرض تكون بالبعد عن سببه الأهم ، تكون بالاستعفاف عن الحرام واللجوء إلى الحلال ! ومع ذلك فلا رجال الدين ، ولا رجال التربية ، ولا رجال الإعلام دقوا الطبول لعودة الفضيلة وبشرروا بما يكون في كنفها من عافية ورضا .. ! !

وددت لو تكونت في كل قطر من أقطار الأرض وزارة للأسرة تهتم بتكوينها وحمايتها ، لقد قرأت في تصريح رسمي لأحد المسؤولين في إنجلترا أن البلاد ستتكلف مiliارا من الجنيهات في محاربة الإيدز وإحصاء حاملي جرثومته ، ووقاية الآخرين منه ، وذلك في عام واحد . !

لقد قلت : ما أغلى الحرام وأكثر مغارمه ، وما أرخص الحلال وأيسر تكاليفه ! إن التزام الصراط المستقيم لا يُجَسِّمُ شيئاً من هذا كله ! ومع ذلك فكثير من الناس يزهد فيه ! ! .

ثواب الإنفاق على البيت

نفقة رب البيت على بيته زكاة مضاعفة الأجر مباركة المثوبة !! لقد شعرت بغير قليل من الدهشة وأنا أتدبر الأسلوب الذي قرر الإسلام به هذه الحقيقة .

عندما يكون معى مال فأجعله للجهاد فى سبيل الله ، أو أجعله فى تحرير الرقاب أو أجعله فى إغاثة مسكين ، أو أسدُّ به حاجات بيتي ، فائِيْ هذه الأبواب خير؟ أيها أفضل من الآخر؟ لنذكر الأحاديث النبوية الواردة في هذه القضية :

عن أبي هريرة قال رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « دينار أفقته في سبيل الله ودينار أفقته في رقبة ، ودينار تصدق به على مسكين ، ودينار أفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذي أفقته على أهلك » ...

وعن ثوبان مولى رسول الله قال رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ! ودينار ينفقه على فرسه - المربوط - في سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله » .. قال الراوى : بدأ بالعيال ..

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله قال له : « إنك لن تنفق نفقة تتبعني بها وجه الله إلا أجرتَ عليها حتى ما تجعل في فم امرأتك ! ». .

وعن أبي مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إذا أفق الرجل على أهله نفقة وهو يختسبها كانت له صدقة ». .

وعن المقدام بن معذ يكرب قال رسول الله : « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ،

وما أطعمن ولدك ، فهو لك صدقة ، وما أطعمن زوجتك فهو لك صدقة ! وما أطعمن خادمك ، فهو لك صدقة » والأحاديث كثيرة نكتفي منها بما ذكرنا ! .

ماذا يعني هذا كله ؟ كنت أرى أن ما يصرف في البيت مالٌ مستهلك ، وأن نفقات الأسرة على الإجمال من الضرورات التي نخرج منها وكل ما نرجوه ألا يكون لنا ولا علينا ! .. أما أن تكون حسنات توضع في الميزان ، ويزيد بها الثواب ، بل قد تسبق في مضمار الخير ما ينفق في ميدان الجهاد وتحرير الرقاب ، فذاك ما يدعو إلى التأمل .

قلت : لعل ذلك لأن البيت المسلم هو الذي يبني العقائد وينشئ الفضائل داخل حُجَّرِه الواسعة أو الضيقة ؟ إن النبع الذي يسيل بالحياة للبنين والبنات وللأم والأب نبع مبارك بلا ريب ، إن الإنفاق في هذا البيت أبرك مشروع استثماري .

من قديم توارث المسلمين هذه الحقائق الاجتماعية ، فأمسى شرف الرجل أن يكسب وأن يعول أهله حتى يكبر الصغير ويستغنى الكبير ، وكان يرى ذلك عبادة لا يُستكثر فيها وقت ولا جهد ، إنها دين ودنيا معا ..

ولتجاوز الآن تقاليد المدينة الحديثة التي أفت أن يقول الأب لابنه أو ابنته عند البلوغ : هيا التمسوا الرزق في خباب الأرض ! بل لعل الرجل يستكثر إطعام زوجته ! إن تماسك الأسرة وفق تقاليد الوفاء والشرف والبر جعلتها مجتمعاً يشد بعضه ببعض ، ويد الله على الكل ! كذلك كانت أمتنا وكذلك يجب أن تبقى .

ومن حق راعي الأسرة وكاسبها أن يجد من زوجته تقديرًا لكتاحه ، وأن يستجمم في ظلّها بعد تعب ، وأن يكون لسان الحال والمقال شرحًا لصدره ، وتطبيباً لنفسه ...

أما الكنود والتتجاهل فهما طريق الوحشة والقطيعة ، وفي الحديث : « لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها ، وهي لا تستغنى عنه » !

وجاءت امرأة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لها أذات زوج أنت ؟ قالت : نعم ! قال : فأين أنت منه ؟ قالت : ما آلوه إلا ما عجزت عنه ! ! - تعني أنها تبذل طاقتها في مرضاته ، أما ما غلب طاقتها فلا قِبَلَ لها به - فأجابها الرسول الكريم بهذه العبارة

الموجزة الجامعة : « فكيف أنت له فإنه جتك ، أو نارك ! » وقد شرح ذلك حديث آخر
« المرأة لا تؤدي حق الله حتى تؤدي حق زوجها .. ». .

وقد وقّرت حديثاً طريفاً لمعاذ بن جبل فيه وصف لبعض النساء « الفتوات » التي تخلّ
مشكلاتها أحياناً بيدها (!) وتريد أن تبسط إرادتها في البيت غير مكتوبة بشيء .. وقد
استمعت إلى نصيحة النبيّ الكريم لهذه المرأة وأنا أغالب الابتسام !

وهذا الحديث : « لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله أن تأذن - لأحد - في بيت زوجها وهو
كاره ! ولا تخرج وهو كاره ! ولا تطعّف فيه أحداً ، ولا تعترل فراشه ، ولا تضرّ به ! ! »
قلت في نفسي : كيف تضرّه ؟ هل استئنف الجمل إلى هذا الحد ؟ أم أن المرأة من هواة
الملائكة ، والمصارعة اليابانية ؟

وعدت إلى الحديث الشريف أكمل قراءته بعد نهي الزوجة عن هذا التطاول
والجحود قال : « فإن كان هو - يعني الزوج - أظلم ، فلتأنه حتى ترضيه ! فإن قبل منها فيها
ونعمت ، وقبل الله عذرها ، وأفلج حجتها - أظهرها - ولا إثم عليها ، وإن هو لم يرض
فقد أبلغتْ عند الله عذرها ». .

ويستحيل ألا تمر بالبيوت أزمات ، بيد أن الحُلُق العالى كفيل بتفریج الضائق وحلّ
ال المشكلات ، وما أصدق قول الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق !
أقول : وأخلاق النساء أيضاً ! وقد رأيت أن فساد ذات الين في الحياة الزوجية يتداوى
إلى الأولاد ، ويعرضهم لأسوأ الحال وأو中最 العواقب ..

ما أجمل أن يكون الحب المتبادل والاحترام المتبادل قوام العلاقة بين الزوجين أو
الأبوبين ! إن أثر ذلك في الذريّة عميق ، وهو سياج متين لرسالة البيت في الداخل
والخارج .

وهناك حديث نبوى يذكره البعض في هذا الصدد يحتاج إلى شرح :
قدم معاذ بن جبل من الشام ، وذهب إلى النبيّ - عليه الصلاة والسلام - يزوره بعد

مقدمة ، ففوجى الرسول الكريم بمعاذ يسجد له ! ! فقال له : ما هذا ؟ فقال معاذ قدمت إلى الشام فوجدت الناس يسجدون لبطارقهم وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك ! الواقع أن التحية التي رأيتها أنا كانت انحناء يشبه الركوع ، ولا يزال هذا الانحناء الراكم تحية لامبراطور اليابان . وكان كذلك تحية لامبراطور الحبشية ، وربما تحول في بعض الأحيان إلى سجود تام !!

والعرب لا تعرف هذا في تقدير الكبار وتقديم التحية لهم ، فلما نقل معاذ هذا التقليد إلى المدينة المنورة رفضه الرسول كل الرفض ، وقال – كما جاء في بعض الروايات – « لا تفعل فلو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » .

وتتمة المعنى ولكن لا أمر أحداً أن يسجد لآخر ، ولا للمرأة أن تسجد لزوجها .. والمراد كما جاء في تتمة الحديث « ... والذى نفسي بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها » .

إن الزوج والزوجة إنسانان متكافئان في الحقوق والواجبات ، ومع صدق العاطفة يكون الرجل ملكاً مطاعاً نافذ الكلمة ، ووسيلته في ذلك الوفاء والإخلاص والحب .

لاتهونوا من وظيفة ربة البيت

هل دور الحضانة تغنى عن جوّ البيت ، وصدر الأم ، واستقرار الأسرة ؟ ذلك بعيد ، وما نقبل هذه الدور إلا لضرورات ملحة ، وطبيعة الضرورة التوقيت ، حتى تعود المياه إلى مجاريها ، وتنتت الزروع في مغارسها ..

والإسلام عندما أوجب على الرجل نفقة البيت ، كان في الحقيقة يعطي المرأة عوضاً عن تفرغها لحسن تباعله ، وتنشئة أولاده ، واتجاهها الكامل إلى أداء رسالتها الطبيعية .. والذين يزدرون وظيفة « ربة البيت » جهال بخطورة هذا المنصب وأثاره البعيدة في حاضر الأمم ومستقبلها الأخلاقي والاجتماعي .

وأعباء هذا المنصب داخل البيت تكافئ أعمال الرجل الشاقة خارجه ، وقد وجهت الشريعة كلا الجنسين إلى ما يليق به ، ويتفوق فيه ...
والقدرات الخاصة لبعض النساء لا تلغى هذا التخصص .

إن صافية بنت عبد المطلب نزلت من الحصن الذي أوى إليه النساء لأنها رأت يهودياً يطيف به وقد يذلّ الأعداء عليه ، فهاجمته وقتلته ! فهل نجند النساء كلهن مثل هذه الحادثة ؟ كلا ! يقول الأطباء : كل واحد من الجنسين له دوره في الحياة الذي يتفق أحياناً مع دور الطرف الآخر ، أو يختلف عنه .

ولا ريب أن كيان المرأة النفسي والجسدي قد خلقه الله على هيئة تخالف تكوين الرجل ، فقد بُنيَ جسم المرأة على نحو يتلاءم ووظيفة الأمة تلاؤماً كاملاً ، كما أن نفسيتها قد هيئت لتكون ربة الأسرة وسيدة البيت ، وبالجملة فإن أعضاء المرأة الظاهرة والخلفية ،

وعضلاتها وعظامها ، وكثيراً من وظائفها العضوية ، مختلفةٌ إلى حد كبير عن مثيلاتها في الرجل .

وليس هذا البناء الهيكلي والعضوى مختلفاً عبئاً ، إذ ليس في جسم الإنسان ولا في الكون كله شيء إلا وله حكمة . وهيكل الرجل قد بني ليخرج إلى ميدان العمل كادحاً مكافحاً ، أمّا المرأة فلها وظيفة عظمى هي الحمل والولادة ، وتربية الأطفال ، وتهيئة عش الزوجية لسكن إليها الرجل بعد الكدح والشقاء .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - : ومن الطبيعي أن يكون للمرأة تكوين عاطفي خاص لا يشبه تكوين الرجل ، لأن ملازمته الطفل الوليد لا تنتهي بمناولة الثدي وإرضاعه ، بل لابد معها من تعهد دائم ومجاوبة شعورية تستدعي شيئاً كثيراً من التناسب بين مزاجها ومزاجه ، وبين فهمها وفهمه ومدارج حسه وعطفه ، وهذه حالة من حالات الأنوثة شوهدت كثيراً في أطوار حياتها ، من صباها الباكر إلىشيخوختها العالية ، فلا تخلو من مشابهة للطفل في الرضا والغضب ، وفي التدليل والمحافاة ، وفي حب الولاية والحدب من يعاملها ، ولو كان في مثل سنها أو سنّ أبنائها ، وليس هذا الخلق مما تصطنعه المرأة أو تتركه باختيارها ، إذ كانت حضانة الأطفال تتمّ للرضاع تقترب فيها أدواته النفسية بأدواته الجسدية .

ولاشك أن الحالات الضرورية للحضانة وتعهد الأطفال أصل من أصول اللين الأنثوي الذي جعل المرأة سريعة الانقياد للحسن والاستجابة للعاطفة ، ويصعب عليها ما يسهل على الرجل من تحكيم العقل وتقليل الرأي وصلابة العزمية ..

فهما ، ولاشك ، مختلفان في هذا المزاج اختلافاً لا سبيل إلى الماء فيه ...

ونعود إلى حديث الأطباء في هذه القضية - نقاًلاً عن نشرة مؤسسة الصحة العالمية - التي تقول : لا ريب أن أجلَّ أدوار المرأة في الحياة هو دور الأمومة وتربية النشء ، وهي في هذا الدور تُمدِّ المجتمع بكل عناصر البناء والتقدم ، وبقدر إخلاصها في هذه المهمة يكون المردود جيداً على الأمة بأسرها .

إن هذا الدور يكلفها كثيراً من العناء والمشقة دون سائر الخلوقات الإناث الأخرى؛ اللائي يحملن ويلدن ، وذلك لأن تلك الإناث لا تفرز بوبيضاتها إلا في فترة محددة من العام ، بينما تفرز المرأة بوبيضة كل شهر منذ البلوغ إلى سن اليأس ، والمرأة طوال هذه المدة بين حِضْ وَحَمْل ، ونفاس وإرضاع ، وناهيك بما يترب على كل فترة من هذه الفترات من آلام ومتاعب .

ففي أثناء الحِضْ الذي يعرض للمرأة في كل شهر - إلا إذا حدث حمل - تتعرض المرأة لآلام ومعاناة يمكن إيجادها فيما يلي :

١ - تصاب أكثر النساء بآلام وأوجاع في أسفل الظهر وأسفل البطن ، مما يضطرها أحياناً إلى مراجعة الطبيب واستخدام العلاج .

٢ - تصاب كثير من النساء بحالة من الكآبة والضيق في أثناء الحِضْ ، وعلى الأخص عند بدايته ، وتكون المرأة متقلبة المزاج ، سريعة الانفعال ، قليلة الاحتمال .

٣ - تصاب بعض النساء بالصداع النصفي قرب بداية الحِضْ ، وتكون الآلام مبرحة ، ويصحبها قيء وأحياناً زوغان في الرؤية .

٤ - فقر الدم الذي ينتج عن التزيف ، إذ تفقد المرأة كمية من الدم في أثناء حِضْتها تتراوح ما بين ٦٠ - ٢٤٠ ميللي ليتر .

٥ - تصاب الغدد الصماء بالتغيير في أثناء الحِضْ ، فتقل إفرازاتها الحيوية المهمة للجسم إلى أدنى مستوى لها .

٦ - نتيجة للعوامل السابقة تنخفض حرارة الجسم ، ويبيطئ النبض ، وينخفض ضغط الدم ، ويصاب كثير من النساء بالشعور بالدوخة والكسل والفتور .

وقد راعت الشريعة هذه الظروف التي تمر بالمرأة فأعفتها من بعض العبادات : كالصلوة أثناء الحِضْ .. ، والنهي عن الصوم ، وقضائه في أيام آخر ...

إذا كان رب العالمين قد أسقط عن النساء واجبات عينية في تلك الحالات فهل تفرض على نفسها أو يفرض عليها المجتمع ما لا تطبق ؟

التي فقدها زوجها

تربيه الأولاد عبء مشترك يحمله الزوجان معاً . وإنه لقدر طيب أن يشبّ الأولاد في حضانة أبويهم مستمتعين بدفء العاطفة وحسن الكفالة .

لكن الرياح لا تهب رخاء دائماً . وطبيعة الحياة الابتلاء بالخير والشر ، فقد يفقد الأولاد الكافل الحانى ، فتبقى الأم أمّا والأولاد يتامى . ! وتتوفر الأم على صون أولادها - والحالة هذه - من أجل القربات التي تبلغها أعلى الدرجات ! روى أبو داود عن عوف بن مالك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أنا وأمرأة سفعاء الخذَّلين كهاتين يوم القيمة - مشيراً إلى صبيعه الساببة والوسطى - امرأة آمنت من زوجها ذات منصب وجمال حبس نفسمها على يتاباهما حتى بانوا أو ماتوا ..» .

والجميلة التي تهمل زينتها انشغالاً بأولادها حتى يتغير وجهها امرأة مقدورة الفضل مرمومة المكانة ، لكننا نتسائل : أكل النساء مطالبات بهذه التضحية ؟ أظن أن هناك ملابسات كثيرة تحدد موقف الأم ومصير يتاباهما ! منها سن الزوجة ، وغناها أو فقرها . وأعمار الأولاد . ووضع المتقدم إليها الديني والاجتماعي ! فقد يتقدم إليها قريب أو تقىٌ يحسن معاملة الأولاد !

ولذلك نترك للزوجة التي فقدت رجلها أن تتصرف بما يتحقق لها ولأولادها المستقبل الأطيب .

عندما قتل جعفر الطيار في معركة مؤته ، وكان شاباً حول الثلاثين تاركاً زوجته وأولاده لم تمض فترة طويلة حتى تزوجت المرأة أباً بكر الصديق ، وحسنت فعلت ، وقد رعى الله أولادها خير رعاية ...

ويحكي التاريخ أن عاتكة بنت زيد ، وكانت صحابية أديبة ذات جمال وكمال ورأى ، قُتل زوجها عبد الله بن أبي بكر ، فتزوجها من بعده عمر بن الخطاب فلما قتل عمر رضي الله عنه تزوجها الزبير بن العوام ، فلما قتل الزبير بوادي السبع في الفتنة الكبرى تزوجها الحسين بن عليّ رضي الله عنه ، فلما قتل بكر بلاء كانت أول من رفع خدّه عن التراب ثم ترملت بعده فلم يسع إليها أحد ! .

ومن الطرائف أن عبد الله بن عمر كان يقول : من أراد الاستشهاد فليتزوج عاتكة ! .

لقد قتل أزواجها كلهم ، ولا علاقة لها بهذه المصائر ، وإنما هي أقدار ! ! وتحفظ لها كتب الأدب هذه الأبيات في رثاء أول زوج لها ، عبد الله بن أبي بكر !

آليٌّ لا تنفكُ عيني حزينة عليك ولا ينفكُ جلدِي أغبرا ..
فلله عينا مَنْ رأى مثله فتَّ أكَّر وأحمى في الهياج وأصبرا ..
إذا أشرعت فيه الأسنة خاصتها إلى الموت ، حتى يترك الموت أحمرا ..
إنها عاطفة صادقة ييد أنها موقوتة ، وللحياة تيارها الدافق المطرد ، والإسلام لا يقوم
جندلا أمام غرائز الفطرة وطبع الرجال والنساء .

المشكلة أن الناس يريدون إخضاع الدين لتقاليدهم الخاصة ، ولو كانت هذه التقاليد في عكس اتجاه السلف الأول وفطريتهم السليمة .

للعرض قدامة

استطاعت آثام ومثالب من أعمال أهل الكتاب الأولين أن تسفل إلى المجتمع الإسلامي وأن تعكر صفاءه وتلوى مساره ! بعضها في الروابط المقررة بين الرجال والنساء ، بل في سلوك المرأة نفسها وميلها إلى التبرج ! .

والبرج شيء غير التجمّل ، فالتجمّل صون الجسد واستبقاء محاسنه الطبيعية واستبعاد ما يشينها أو يشوّهها ، وذلك لا حرج فيه ، بل هو مطلوب ..

أما التبرج فهو الإثارة المتعتمدة بإضافات مفتعلة للفت الأنظار واستفزاز الرغبات ، وهذا مرفوض ، ويزداد الرفض عندما تكون المرأة خارجة للصلة فإنها بذلك التبرج تفسد جوّ العبادة ، وما ينبغي له من طهر وتجدد ، إن المساجد ليست معارض للفتنة ولا ميدان سباق بين الجميلات ، ويجب إعادة المرأة المتبرجة إلى بيتها !

وقد فعلت نساء بني إسرائيل هذا المحظور قدما ، وحذر الإسلام منه حديثا ، وشدد أن يخرج النساء إلى المساجد تقلات أى ليس في هيأتهن تبرج ولا إثارة .

إن الإسلام حريص على طهر العلاقات بين الرجال والنساء في الأسواق والجامع والبيوت والشوارع ، ومن حقه أن يطمئن إلى سلامة النيات وبراءة الملتقيات ، ومن حقه تحصين المعاملات من دسائس الغرائز الجنسية ، حتى لا تجد متنفسها إلا في بيوت الزوجية ..

وبعض الرجال طلعة ! يحب أن يتتجاوز ما لديه إلى غيره ، وأن يستكشف من فنون

الجمال ما يزيد رغبته حِدَّة ! ومن ثم يلْجأ إلى التطلع والتلصّص فما يزيده ذلك إلا جماحاً وهبوطاً . ويعجبني قول الشاعر :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتُك المناظر !
رأيت الذي لا كُله أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر !
إن غض البصر أدب رفيع ، وحصانة من الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة ، وعلى المجتمع
كله أن يتذكر حدود الله ، وأن يحرسها بذكاء وتلطف ، وأن يضع نصب عينيه تيسير
الزواج فإذا مهد الطريق إليه انتصب مارداً جباراً يحمي البيوت ويحفظ الأسر الناشئة .
ويوفر لها كل أسباب الازدهار ..

والعرب يسمون الزوجة حرماً ، وهي تسمية تشير إلى أن للعرض قداسته وأن صونه
واجب قد تستر خص فيه الدماء ..

إلا أن الكلمة حرِم نقلت إلينا عنواناً على موضوع آخر ، موضوع رجل مقتدر واسع
الجاه ، جمع حوله عدداً قليلاً أو كثراً من النساء وعاش يتقلب بينهن في حياة حالمه باسمة ،
إذا حاول أحد الاقتراب من سياج هذا الحرِم الغريب فالويل له ، ربما فقد حياته ..

وتحتاج الاطلاع على صور هذه الحياة الذهبية في قصص ألف ليلة ، وفي حكايات
التاريخ عن بعض الحكام الأولين ، الذين كانت قصورهم مخازن للمتع كما عبر بعض
الأدباء ، وما أعجبها مخازن ، وأجدرها بالإنكار ! .

وعندى أن بني إسرائيل أول من رسم صورة هذه المهزلة الإنسانية أو الحيوانية إن
شئت ، فقد زعموا في العهد القديم أن سليمان كانت له ثلاثة زوجة وبعائمة جارية ،
أى أنه جمع في قصوره ألف امرأة ! ماذا يفعل رجل بهذا الجيش ؟ وكيف يستطيع
الدوران بينهن ؟

قالوا : إنه ليس نبياً بل كان ملكاً ! ولنفرض - كذباً - أنه ملك على رأسه التاج فأئِّي
ملك في الأولين أو الآخرين الطاقة على مصاحبة ألف امرأة ؟ إن الغريزة الجنسية في أعلى
أطوارها محدودة ، وقد يختيل للصادم عند سورة الجوع أنه سياكل أصنافاً شتى فإذا أفتر فما

هـى إـلا سـاعة حـتـى تـفـنـى شـهـوـتـهـ ، وـيـعـزـزـ عـنـ الأـكـلـ .. وـهـذـهـ القـصـصـ وأـشـبـاهـهـاـ فـي تـارـيخـ السـلاـطـينـ مـنـ نـسـيجـ الـخـيـالـ ، الـفـهـاـ وـضـاعـونـ يـغـلـبـ عـلـيـهـمـ الشـبـقـ !ـ .

وـهـنـاـ وـقـةـ نـذـكـرـ فـيـهاـ الـحـقـ فـيـ شـأـنـ النـسـاءـ المـسـمـيـاتـ بـالـجـوارـىـ ، إـنـهـ حـرـائـرـ مـخـتـطـفـاتـ فـيـ أـغـلـبـ الـأـحـوـالـ .

وـفـيـ التـارـيخـ الـبـشـرـىـ سـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ كـالـحـةـ كـانـتـ الـعـصـابـاتـ الـمـسـلـحـةـ تـغـيـرـ عـلـىـ المـدـنـ وـالـقـرـىـ وـتـقـهـرـ الـفـتـيـاتـ الـمـسـتـضـعـفـاتـ عـلـىـ الـهـرـبـ مـعـهـ ، ثـمـ تـبـعـهـنـ فـيـ أـسـوـاقـ الـنـخـاسـةـ أـوـ تـسـتـمـتـعـ بـهـنـ !ـ وـكـانـ يـقـعـ ذـلـكـ بـيـنـ الـعـرـبـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ .ـ وـرـبـماـ وـقـعـتـ فـيـ الـأـسـرـ أـوـ فـيـ حـبـائـلـ الـقـنـاصـيـنـ نـسـاءـ هـنـ فـيـ الـذـرـوـةـ مـنـ الـشـرـفـ وـالـكـرـامـةـ !ـ

أـغـارـ عـرـوـةـ بـنـ الـورـدـ عـلـىـ قـبـيلـةـ غـفارـ .ـ وـعـرـوـةـ مـنـ صـعـالـيـكـ الـعـربـ الشـجـعـانـ الـأـجوـادـ (ـ !ـ)ـ وـأـسـرـ فـتـاةـ اـسـمـهـاـ سـلـمـىـ ، وـتـرـوـجـهـاـ وـاستـولـدـهـاـ وـكـانـتـ الـمـرـأـةـ تـحـيـاـ مـعـهـ شـاعـرـةـ بـالـغـضـاضـةـ وـالـمـذـلـةـ ، فـلـمـ تـاحـتـ لـهـ فـرـصـةـ الـفـرـارـ عـادـتـ إـلـىـ قـبـيلـهـاـ ، وـعـاشـتـ بـيـنـ أـهـلـهـاـ ..

وـلـحـقـ بـهـاـ عـرـوـةـ الـذـىـ أـحـبـهـاـ وـكـرـمـهـاـ يـطـلـبـ مـنـهـاـ أـنـ تـعـودـ لـأـوـلـادـهـاـ فـقـالتـ لـهـ هـذـهـ الـعـبـارـاتـ النـاضـحةـ بـالـشـرـفـ وـالـإـيـاءـ وـعـزـةـ الـنـفـسـ :ـ «ـ يـاـ عـرـوـةـ إـنـ أـقـولـ فـيـكـ .ـ وـإـنـ فـارـقـتـكـ .ـ الـحـقـ ..ـ وـالـلـهـ مـاـ أـعـلـمـ اـمـرـأـةـ مـنـ الـعـرـبـ أـلـقـتـ سـتـرـهـاـ عـلـىـ بـعـلـ خـيـرـ مـنـكـ !ـ وـأـغـضـ طـرـفـ ، وـأـقـلـ فـحـشـاـ ، وـأـجـودـ يـداـ ، وـأـحـمـيـ لـحـقـيقـةـ !ـ

لـكـنـ مـاـ مـرـ عـلـىـ يـوـمـ مـنـذـ كـنـتـ عـنـدـكـ إـلـاـ وـالـمـوـتـ فـيـهـ أـحـبـ إـلـىـ مـنـ الـحـيـاـةـ بـيـنـ قـومـكـ ، طـلـمـاـ سـمعـتـ الـمـرـأـةـ مـنـ قـومـكـ تـتـحدـثـ عـنـ فـتـقـولـ :ـ قـالـتـ جـارـيـةـ عـرـوـةـ كـنـاـ وـكـذاـ .

وـالـلـهـ لـأـنـظـرـ فـيـ وـجـهـ إـحـدـاهـنـ بـعـدـ الـيـوـمـ !ـ .ـ مـنـ كـرـهـهـاـ لـلـعـبـودـيـةـ .ـ اـرـجـعـ رـاـشـدـاـ إـلـىـ وـلـدـكـ وـأـحـسـنـ إـلـيـهـمـ »ـ .

أـهـذـهـ أـمـةـ مـنـ الـإـمـاءـ ؟ـ فـاـ تـكـوـنـ الـحـرـائـرـ الشـرـيفـاتـ ؟ـ لـكـنـ الـحـيـاـةـ قـسـتـ عـلـىـ رـجـالـ شـرـفـاءـ فـبـيـعـواـ مـالـيـكـ ، وـقـسـتـ عـلـىـ نـسـاءـ كـرـيمـاتـ فـتـدـاـولـتـهـنـ الـأـيـدـىـ فـيـ الـأـسـوـاقـ ثـمـ اـحـتـبـسـنـ وـرـاءـ أـسـوـارـ الـحـرـمـ عـشـراتـ أـوـ مـئـاتـ يـدـورـ بـيـنـهـنـ فـحـلـ طـامـحـ الـعـيـنـ طـافـحـ الشـهـوـةـ .ـ !ـ

وـفـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ وـجـدـ طـورـ آخـرـ لـتـرـوـانـ الشـهـوـاتـ ، فـالـجـلـ السـكـرـانـ الغـرـيـزةـ يـسـتـطـيعـ

الاتصال بآلف امرأة إذا شاء ، لم يُجتمعن له كما كان يُصنع قديما للسلطنين والأباطرة ، بل يطير وراءهن في أماكن البغاء أو في زوايا الشوارع أو في ساحات المراقص أو في أحفال المجنون ومبازل الحضارة الميسرة هنا وهناك .

إن ما كان حكرا على الملوك أمسى متاحا لأى صعلوك ، بالشمن البخس أو الغالي وإنه من الحزن أن ترددى البشرية في هذه الهاوية ...

والأسلوب الأمثل في العلاقة بين الرجال والنساء هو الزواج الذي يضم سكينة الروح إلى متعة الجسد ، وتحاوب الفكر إلى جيشان العاطفة ...

والذى يضم قبل ذلك وبعده المهاد الطهور لما ينشأ من أجيال .

وقد تحدث الإسلام طويلا عن الأسرة ، ولكن الحديث شابهُ فهمُ سيء وتطبيقه أسوأ ، ولست أكثر لحديث الأوربيين التافه عن التعدد ، فالقوم يُعدّدون في الحرام ما لا يُحصر ويشغبون على الأديان كلها ، وهي تبيح تعددا له ملابساته ودعائيه ..

وأحسب أنه عندما يحسن المسلمون تطبيق ما لديهم فإن نموذجا مُعجبا للعلاقات الإنسانية سوف ينال الرضا ويسارع الآخرون إلى تقليده أو الاقتباس منه .

البيوت تبني على الحب

هناك معالم ثلاثة ينبغي أن تتوفر في البيت المسلم ، أو أن تظهر في كيانه المعنوي ليؤدي رسالته ويحقق وظيفته هذه الثلاثة هي السكينة والمؤدة والتراحم ..

وأعني بالسکينة الاستقرار النفسي ، فتكون الزوجة قرة عين لرجلها لا يعودوها إلى أخرى كما يكون الزوج قرة عين لأمرأته لا تفكر في غيره ..

أما المؤدة فهي شعور متبادل بالحب يجعل العلاقة قائمة على الرضا والسعادة ..

ويجيء دور الرحمة لنعلم أن هذه الصفة أساس الأخلاق العظيمة في الرجال والنساء على سواء ، فالله سبحانه يقول لنبيه «فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ، وَلَوْكَنْتْ فِطْنَةً غَلِيلَةً
الْقَلْبَ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ...» فليست الرحمة لونا من الشفقة العارضة ، وإنما هي نبع للرقة الدائمة ودماثة الأخلاق وشرف السيرة ..

وعندما تقوم البيوت على السكن المستقر ، والود المتصل ، والتراحم الحافى فإن الزواج يكون أشرف النعم ، وأبركها أثرا ..

وسوف يتغلب على عقبات كثيرة ، وماتكون منه إلا الذرييات الجيدة ! لقد شعرت أن أغلب ما يكون بين الأولاد من عقد وتناكر يرجع إلى اعتلال العلاقة الزوجية ، وفساد ذات البين !

فهل المعنويات تغنى عن الماديات ؟ إن هناك عناصر أخرى تحفّ بالبيت أو تخرج منه لها أثر في سعادته . ولننظر إلى هذا الحديث النبوى ، عن سعد بن أبي وقاص قال رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - : «ثلاث من السعادة (١) المرأة تراها فتعجبك ، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك (٢) والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك (٣) والدار تكون واسعة كثيرة المرافق .

وثلاث من الشقاء (١) المرأة تراها فتسؤوك وتحمل لسانها عليك ، وإن غبت لم تأمنها على نفسها ومالك (٢) والدابة تكون قطوفا - بليدة - فإن ضررتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك (٣) والدار تكون ضيقة قليلة المرافق » .

وكل امرئ يميل إلى ما يسعده ويتباعد عما يشققه . وفي الحديث «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» ومن حق المسلم أن يتطلع إلى بيت مريح واسع المرافق يزوره منه بالطاقة النفسية الدافعة إلى العمل المشر ، ومن حقه أن يكره المواصلات الرديئة ، وأن يكره قبل ذلك قصور المرافق ، وسوء العشرة .. !

إن الدين لا يكتب مطالب الفطرة ، ولا يتصادر أشواق النفس إلى الرضا والراحة والبشاشة ، وللإنسان عندما يقرر الزواج أن يتحرّى عن وجود الخصال التي ينشدها وأظن ذلك حق المرأة أيضاً فيمن تختاره بعلاً ..

فإذا صدّق الخبر الخبر صحّ الزواج وبقي ، وإلا تعرض مستقبله للغيوم .

وقد لاحظت أن الخطاب قد يتكلف أخلاقاً إلى حين ! فإن كان غضوباً تصنع الحلم وإن كان شحيحاً تصنع الكرم !

حتى إذا زُفت إليه امرأته انكشف المخبء ، وبدت خلائقه الطبيعية ! وفوجئت المرأة بما لم تكن تعهد فإذا هي تقول مع الشاعر المدهوش ..

كل يوم تُبدي صروف الليلى خلقاً من أبي سعيد عجيبة ...

وقد يعطى الموافقة على مهر معين يجعله في ذمته ، فإذا تم العقد والدخول نسي الوفاء بما تعهّد به . وقد حذر الإسلام من أنواع الغدر التي يلجأ إليها ضعاف النفوس . وفي الحديث الشريف «أيما رجل تزوج امرأة على ماقلّ من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها فمات ولم يؤدّ إليها حقها لقى الله يوم القيمة وهو زانٌ ، وأيما رجل

استدان دينا لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه خدعة حتى أخذ ماله ، فمات ولم يؤود دينه .
لهم الله وهو سارق ॥

إن الزواج ليس نزوة عابرة ! إنه صحبة دائمة وميثاق غليظ وشركة في حياة لا تتحمل هزلًا ولا عبثًا . فما ارتبط به الزوج أو الزوجة من شروط لا يسونغ فيه تحريف ولا تقصير ..

والوفاء بالمهن ليس إلا مثلاً يذكر لما يجب أن يكتنف الزوجية من صدق وشرف ، ولو أن رجلاً عرض نفسه على أنه حليم أو سمح ، فليثبت على هذه الخلال التي ادعاهـا . ولويتكلفها إن لم تكن فيه ! فإن بركات الله تنزل على أهل الصدق ، وتجعل المعيشة أحلى وأبقى ..

بل إن المرأة قد تتنازل عن حقها المالي كله أو بعضه عندما ترى زوجها كريم الشهائل نبيل السجايا !! والتي تعطى نفسها لاتضن بمالي ..

وهناك رجال يحسبون أن لهم حقوقا ، وليست عليهم واجبات ، فهو يعيش في قوقة من أنايته وماربه وحدها ، غير شاعر بالطرف الآخر ، وماينبغى له ! والبيت المسلم يقوم على قاعدة عادلة « وهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » وهي درجة القوامة أو رياسة هذه الشركة الحية .. ! وما تصلح شركة بدون رئيس .

وبديهٌ ألا تكون هذه الرياسة ملغية لرأى الزوجة ، ومصالحها المشروعة أدبية كانت أو مادية ...

إن الوظيفة الاجتماعية للبيت المسلم تتطلب مؤهلات معينة ، فإذا عَزَّ وجودها فلا معنى لعقد الزواج .

وهذه المؤهلات مفروضة على الرجل وعلى المرأة معاً فمن شعر بالعجز عنها فلا حق له في الزواج ..

إذا كانت المرأة ناضجة الحنان قاسية الفؤاد قوية الشعور بما يحيط بها بلدية الإحساس بمطالب غيرها فخير لها أن تظل وحيدة ! فلن نصلح ربة بيت ! إن الزوج قد يمرض ، وقد تبرّج به

العلة فتضيق به الممرضة المستأجرة ! المفروض أن تكون زوجته أصبر من غيرها وأظهر
بشاشة وأملا وداعه له ..

ومن الطرائف ما رواه أبو سعيد الخدري أن رجلا أتى بابنته إلى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فقال : إن ابنتي هذه أبنتي أن تتزوج فقال لها رسول الله : أطيعي أباك !
قالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرنى : ماحق الزوج على زوجته ؟
فحديثها النبي عليه الصلاة والسلام أنه لو كانت به قرحة فعالجتها بضمها مازادت عن
واجيها .. ! قالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج أبدا ...
فقال النبي للأب : لا تنکحون إلا بإذنهن ... !!

إن هذه الفتاة أصنفت نفسها ، ولم ت تعرض لتکلیف يصعب عليها أن تقوم به ، وليس
لأحد أن يكرهها على ما تأبى وتمریض الرجل لامرأته له هذه المكانة ذاتها ، مصدق قوله
تعالى : « وَلَهُنْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » .. ولن نفهم أطراف هذه القضية إلا إذا
علمنا بأن البيوت تبني على الحب المتبادل ، « هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَهُنَّ » كما قال
تعالى .

ومنطق الحب الشريم يعطى من الوفاء والولاء ما لا تعرفه القوانين التجارية
والمبادلات المنفعية ! ! وما أكثر مايفتدى الرجل بيته بحياته وتفتدى المرأة بيته بحياتها ..
وما نقوله بالنسبة إلى المرأة نقوله بالنسبة إلى الرجل ، فالعجز عن أعباء الأسرة المادية
والأدبية لا يجوز له أن يتزوج وليس مع نصيحة الرسول الكريم « من لم يستطع فعليه بالصوم
فإنه له وجاء » أى قاهر لغريزته ..

تضحيات الرجال والنساء

المرأة الجبانة تعجز زوجها عن النهوض بواجباته وتحمل المخاطر واقتحام العقبات !
المرأة البخلة تمنع رجلها من بذل العون وإكرام الضيف ودعم الضعاف !
إن خذلان الداخل يعوق الامتداد في الخارج ، ويجعل الرجل خادماً لمطالب بيته
ومآرب زوجته وأولاده ، وهذا طريق لا نهاية له !

وقد أمر الله الرجال أن يلبوا نداء التضحية ولو تعلقت نساؤهم بأذيالهم وحذّرهم من
النكوص وإيثار الراحة واجتماع الشمل على حساب المبادئ والعقائد ، وهذا معنى الآيات
«يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم . وإن تعفوا وتصفحوا
وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .

العداوة هنا ليست الخصومات المعروفة ، وإنما هي انهزام الرجل أمام مطالب أسرته
وقدّرته عن الهجرة والجهاد كى يبقى إلى جوارهم ..

وقد تدبّرتُ تاريخ السلف الأول فوجدت تعاوناً فريداً بين أعضاء الأسرة على خدمة
الإسلام والوفاء بحقه واقتسام المغارم في نصرته بين الأزواج والزوجات .

تقول أم سلمة رضي الله عنها لما أجمع أبو سلمة على الهجرة . أعدّ لى بعيри وحملني
عليه مع ابنتنا سلمة ثم خرجنا إلى المدينة ، فتبعه رجال من أهل معترضين طريقه قائلين :
هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ، ونزعوا
خطام البعير من يده وأخذوني منه ! وغضب عند ذلك رهط بنى سلمة ، وقالوا : والله
لأنترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ! قالت : فتجاذبوا الولد بينهم حتى كادوا

يخلعون يده ، ثم انطلقوا به ، وذهب زوجي إلى المدينة وحده ، ففرقوا بيني وبين ابني وزوجي ..

فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسى ، ومكثت على ذلك نحو عام ، حتى مرّ بي رجل من بنى عمومتي فرأى ما بي ورق قلبه لي ، فقال لأهلي : ألا تركون هذه المسكينة تلحق بزوجها ؟ فقالوا لي : إن الحق بزوجك إن شئت ، فاسترددت ابني وارتحلت بعيري وخرجت أريد المدينة وما معى أحد من خلق الله .

حتى إذا كنت بالتنعيم - قريبا من مكة - لقيت عثمان بن طلحة ، فسألني إلى أين ؟ قلت أريد زوجي بالمدينة ! قال : وما معك أحد ؟ قلت : ما معى إلا الله وابني هذا .

فأخذ بزمام البعير وهو يقول : والله مالك من مترك ، وانطلق مسرعا بي .. فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا نزل محطة أناخ بي ثم تأخر عنى حتى أنزل ، ثم قيد بعيري إلى شجرة ثم ذهب بعيدا إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها ..

حتى إذا دنا الرواح قام إلى بعيري فأعده ، ثم استأخر عنى حتى أركب ، فإذا استويت عليه أخذ بالزمام يقودنا ، وما زلنا كذلك حتى أقدمنا المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف قال : هنا يقيم أبو سلمة ، فادخل على بركة الله ، ثم انصرف قافلا إلى مكة بعدها أدى واجبه الشريف الرائع .

واجتمع الشمل مرة أخرى في دار الهجرة بعد شتات وأحزان ، لكن أبا سلمة واصل كفاحه في نصرة الإسلام ، وشاء الله أن يكون من شهداء أحد ، وأن تبقى أم سلمة وحيدة مستوحشة حتى قدر الرسول جهادها ومصابها فبني بها وأعز جانها .

إن صرح الإسلام قام على تضحيات ثقال ، قامت بها أسر شجاعة ، توaci رجالها ونساؤها بالحق وبالصبر .

أين وظيفة البيت ؟

للبيت أثر بعيد في تنشئة الأولاد وإحكام سيرتهم ، بل لعله الأصل الأول في وراثة الدين واللغة ، وقد قرر علماء الأخلاق أن العنصرين الحاكمين في التربية والسلوك هما : الوراثة والبيئة ، وإن اختلفوا في أيهما أقوى وأنفذ .

ويقول الشاعر العربي :

وينشأ ناشئ الفتىـانـ فـيـنـاـ عـلـىـ مـاـ كـانـ عـوـدـهـ أـبـوهـ !
فـهـلـ الـأـبـ وـحـدهـ غـارـسـ العـادـاتـ فـيـ نـفـوسـ الـأـولـادـ ؟ـ كـلـاـ فـلـلـأـمـ أـثـرـهـ فـيـ الـمـوـارـيـثـ
الـبـدـنـيـةـ وـالـمـعـنـوـيـةـ ،ـ وـعـنـدـمـاـ جـاءـتـ مـرـيمـ بـوـلـيدـهـاـ النـبـيـ العـظـيمـ مـنـ غـيرـأـبـ مـعـرـوفـ قـيـلـ لـهـ :ـ
«ـ يـاـ أـخـتـ هـارـونـ مـاـ كـانـ أـبـوكـ اـمـرـأـ سـوـءـ وـمـاـ كـانـتـ أـمـكـ بـغـيـاـ »ـ إـنـ أـثـرـ الـأـبـوـينـ مـعـاـ يـرـتـقـبـ فـيـ
ذـرـيـتـهـاـ وـيـلـتـمـسـ فـيـ الـأـلـادـ ،ـ بـلـ فـيـ الـأـحـفـادـ ..ـ وـمـنـ ثـمـ فـنـحنـ نـعـدـ الـبـيـتـ مـسـئـوـلاـ عـنـ
نـتـاجـهـ ،ـ وـنـطـلـبـ مـنـ الـأـمـ وـالـأـبـ مـعـاـ الـعـنـيـةـ التـامـةـ بـخـاطـرـ الـأـلـادـ وـمـسـتـقـلـهـمـ ،ـ وـيـسـتـحـيلـ
بـنـاءـ مـجـتمـعـ سـلـيمـ عـلـىـ بـيـوتـ خـرـبةـ ،ـ إـنـ فـقـدانـ التـرـبـيـةـ إـيـذـانـ بـأـنـ الـأـمـةـ لـاـ مـسـتـقـبـلـ لـهـ ..ـ

وقد طلب الإسلام من الأب أن يصلّى النوافل في بيته حتى يألف أبناؤه الركوع والسجود ! كما طلب أن يتلى القرآن في البيت ليتعطر جوه بمعنى الوحي ، وفي الحديث «اجعلوا من صلاتكم في بيتكم ولا تخدوها قبورا» أى أن البيت الذي لا يصلّى فيه كالقبر الموحش ، وقال رسول الله أيضا «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت» وقال «اما صلاة الرجل في بيته فنور ، فنوروا بيتكم ..» وجاء الأمر بتعليم الأولاد الصلاة منذ نعومة أظفارهم ، وتعويذهم أنواع المكارم حتى

يشبّوا شرفاء صالحين . وقد لاحظ المريّون أولو الغيرة أن الاستعمار الثقافي حريص على إنشاء ، أجيال فارغة لا تنتطلق من مبدأ ولا تنتهي إلى غاية ، يكفي أن تحرّكها الغرائز التي تحرّك الحيوان . مع قليل أو كثير من المعارف النظرية التي لا تعلو بها همة ولا يتضمنّ بها جبين .. وأغلب شعوب العالم الثالث من هذا الصنف المابط ...

وقد شكّ الأستاذ أحمد موسى سالم من أن الطفولة في بلادنا مهدّدة بالضياع القومي ، والاغتراب الوطني ، والاحتواء المذهبى ، أى أننا لا نعرف فضائل قومنا ولا عظمة تاريخنا ولا قيمة رسالتنا ولا جمال لغتنا وروعة بيانها ، ومنذ أن يتحرّك الفم نحو النطق والتعبير يبدو شبح اللغات الأجنبية ، أو الألفاظ السوقية وتتعرّض النفوس الغضة لغزو مشبع بالفكر الأجنبي ، ولصور تنقل إلينا ملامح غيرنا ، ولكتب وبمحلاً متخصصاً في تشوّيه شخصيتنا ، وإبعادنا عن منابتنا ، وتجهيلنا في ديننا وتعريفنا بالسلوك الأوروبي وحده !! ..

وما هي المثل العليا التي ترسّم في نفوس أطفالنا ، وهم يدرجون نحو اليفاعة والشباب ؟ صورة لاعب كرة يتألق والجماهير تحبس قدمه اللّبقة وهو يصلّى ويجدول ! أو نجمة مسرح وهي تمثّل دورها باكية أو ضاحكة ، مقبلة أو مدبرة ؟

إن خريجي هذه المدارس أو هذه المناظر لن يدركوا مجدًا ولن يصعدوا قمة ، وهيبات أن تسترد بهم أمتنا شيئاً من خسائرنا الحضارية ، وتخلفنا الاقتصادي والاجتماعي .. وأرى أن دور البيت في تربية البنين والبنات لابد أن توضع له سياسة علمية وأدبية جديدة ، وإلا فنحن نسير إلى منحدر !! ..

إذا لم يتعلم الولد الصدق في البيت فأين يتعلّمه ؟ وإذا لم يتدرّب على الوفاء والأمانة والرقّة بين أحضان الآباء والأمهات فأين يتدرّب ؟

هل وظيفة البيت توفير العلف لسكانه وحسب ؟ ألم نسمع قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » ؟

إن العقوبة على الانهيار الخلقي لا تنتظر يوم البعث ! لقد شاهدنا أن الأمم الذاوية

الفضائل خفيفة الوزن في الميزان العالمي ، وأنها تحيا غالبا على التسول الاقتصادي ويلازمها
الهوان والعجز .

الشباب القوى الذكى ثمرة طفولة نجت من الإهمال والضياع وتعهدتها امرأة واحدة
وأب يقظ .

عندما كنت شابا لاحظت امرأة أجنبية تجمع أولادها في الأصيل وفي أيديهم
الكراريس لتشرف على أداء واجباتهم المنزلية ، فإذا نزلوا في الشارع للفسحة كانت ترقبهم
من النافذة ، وكأنها تخشى عليهم أخطار الطريق ، أو مشاكسة الرعاع ..

من أجل هذا قلت : إن وظيفة ربة بيت ليست وظيفة هينة ، إنها منصب آخر فوق
مارب اللذة ، ومطالب الشهوات الجنسية ..

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق !!

والغارة الاستعمارية على الأمة الإسلامية كان لها هدفان فاتلان : أحدهما استبقاء المرأة
جاهرة لاتدرى شيئا عن نفسها أو عن العالم ، والآخر تعليقها - إذا تعلمت - بمحاقر
الأمور وأنواع الزينة وأشكال المدنية الحديثة وبعد بها عن الباب والجذب والارتفاع الفردي
والجماعي ..

وقد استعانت على ذلك بتعليم لاتربية معه ، فإذا صرخ أحد يطلب دروسا دينية يمكن
إسكاته بمقرر دراسي يحفظ الأولاد فيه سورة الفيل أو سورة الإيلاف . وهكذا يملأ
الفراغ !!!

وتتضى الغارة الاستعمارية في طريقها لنقضى على الكبار بعد أن ضلللت الصغار ،
وذلك ماجعلنى أكتب هذه الخاطرة الكئيبة ، وأعيد ذكرها لعلها تنبئ التائبين ..
من شبابي الباكر إلى اليوم كنت إذا قرأت الصحف اليومية أتجاوز باب : أين تذهب
هذا المساء ؟ لأنني أعرف أين أذهب ؟ ولأنني لست بحاجة إلى من ينظم لي وقتى ! إننى
أطلب أبدا المزيد من المعرفة والمزيد من نفع الناس ، وقلما أجد فراغا بعد تلك
الواجبات ..

إلا أنه بدا لي في أحد أيام الشهر الماضي أن أتعرف كيف يقضى الناس أوقاتهم في المساء . فأمسكت إحدى الصحف الكبرى وقرأت أسماء الأفلام التي يقضى معها الناس أمسياتهم وغابتني الدهشة والخيرة وأنا أطالع هذه العناوين المعلن عنها في مساء يوم واحد : هب الشيطان . السفلة المحترفون . ثورة كنج كونج ! ولما كنت لا أعرف قائد ثورة اسمه كنج كونج فقد سالت أحد الناس عنه فقال لي : هو قرد هائل يهشم مايقع تحت يده ! . وتابعت قراءة الأسماء . الرجل المدمر . ميراث الغضب . علاء الدين . النمر والأنتى ! . رجل في عيون امرأة . جري الوحش . غزبة الصفيح . الملعوب . قسوة الانتقام . قاهر التماسح . النسجا الجبار ، ولا أعرف هذا النسجا ! . الثأر والانتقام . الهجوم الدامي أو القتلة الطائرون . معركة التنين الجبار . سيف الشيطان ، بنات من نار . المتقم بقبضته . وسقوط نيويورك - يعني وضاعة نيويورك وهبوطها ، فإن هذا البلد لم يسقط في يد الأعداء كما أعلم - انحراف شهوة الانتقام !!

هذه الروايات كلها تعرض في مساء أسود ، ولو كان مضاء بالكهرباء ، مساء واحد يضم هذا الفكر الخسيس كله ، ويتدبره النظارة المسوقون بسياط الدعاية وسماسرة الغزو الثقافي ، يقضون معه الساعات الطوال ، ويترك في النفوس أسوأ الآثار ...

هل يخرج أحدهنا بانطباع عال ؟ أو بطموح كريم ؟ هل هذه العروض تعين على تربية سليمة أو تدعم خلقا زاكيا ؟ إن الجيل الذي يخرج من هذه الدور لا يخرج فارغ العقل والقلب وحسب ، ولكنه يخرج مليئا بالصغار والكبائر على سواء .

عندى أن سعوم الحشيش والهieroين ليست أكبر ضررا من سعوم هذه المهالك المخلوبة من الخارج ، وأن الأمة التي تشهد هذه القصص تتصل الطريق إلى مستقبل معقول ! وأقبل علىَّ المساء ولا تزال عناوين الأفلام المطلوب مشاهدتها ماثلة أمام عيني ، فتلقت هذا الدعاء : « اللهم اجعل مساعنا هذا مساء صالحا لا مخزيا ولا فاضحا .. » .

الآباء في زماننا

كنت في بلد إسلاميّ كبير فقرأت نبأ إنشاء ملجاً للعجزة به ! فسرّني النبأ لأنني آسي
للمسايبين والضعاف ، وأدعوا الله أن يجبر كسرورهم ويفرج كروبيم ... !
لكن صديقاً اطلع على النبأ وقال : هذا ملجاً لكتاب السنّ من الآباء والأمهات
على نسق ما ينشأ في العاصمة الأوربية يقضي فيه الشيوخ والعجائز بقية أعمارهم .. !
فشعرت بالتشاؤم والكآبة . وقلت : إن رذائل الحضارة الحديثة قد وصلت إلى حد
بعيد في تدمير العلاقات العائلية ، وتقطيع ما أمر الله به أن يصل .

أعرف أن الشباب من الجنسين في أوروبا يعيشون من الحياة عبّاً ، ويوجّلون في متاعها
إيغالاً وأنهم ينسون آباءهم وأمهاتهم فلا يتلقون بهم إلا في أعياد الميلاد أو بين آماد
متطاولة ، فإذا كبر هؤلاء الآباء لم يجدوا صدوراً مفتوحة ولادوراً تؤوى !
وإذا وجدوا فع تبرّم ، وعلى ضيق ، وإلى حين ! إن ملاجيء العجزة أو بيوت
المسنين - بالتعبير الحديث - أولى بهم ، ينتقلون إليها ريثما ينتقلون إلى القبور !

أما أولادهم فهم بعد العمل المفروض يذهبون إلى المراقص أو المسارح ليستقبلوا الحياة
ذلك أحظى لديهم من قضاء أو يقات إلى جانب أم غضّن الدهر جبّيناها أو أب أحيث
السنون ظهره ! ...

ما أقرب هذه الجماعات إلى الحيوانات وإن تعاظم نصيبيها من العلم ، وادعّت مستوى
أعلى من الحضارة ...

ماذا عرانا؟

لقد كان الوالدان في مجتمعاتنا برّكة ، يخرج المرء إلى عمله وهو مطمئن لأن والديه دعوا الله له ، فإذا عاد إلى بيته كان السؤال عنها أول ما يعنيه ، ثم يلتفت بعد ذلك إلى زوجته وأولاده ! إننا تغيرنا كثيراً ، ولكن إلى أدنى .. !!

في القرآن الكريم يقرن ربنا جل شأنه بين توحيده والإحسان بالوالدين ! « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » والسبب في ذلك أن نعماً الوالدين تنهمر على ولدهما وهو في مراحل ضعف الإدراك وقلة الوعي سواء كان طفلاً أو صبياً أو مراهقاً ! إنه يحسب ذلك الإغراق بخياله تلقائياً من جهة مُلزَمٌ به ليست لها بعد حقوق .. ! وكذلك يصنع الناس مع ربّهم ! إنهم يحسبون طعامهم وكساءهم ونماءهم وعافيتهم ، وكل ما يقيم حياتهم شيئاً جاء من الهواء ! أو من مجھول لا يريد أن يعرف !!

ومن ثم فقلما يحسّون الشكر العميق على ما يصيّبون فيه ويمسون من أعطيه الله وأفضاله ..

وقد شاء الله أن يلفتهم إلى فضل الوالدين ، وهو عند التأمل القريب حق ، وأن يلفتهم في الوقت نفسه إلى حقه الأكبر وامتنانه الأجل ، فهو خالق الوالد وماولد ، والكون وماحوى « وقضى ربكم ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندهكم الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لها أفال ولا تنهرهما وقل لها قولاً كريماً ، واحفظ لها جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربباني صغيراً ». .

فهل يكون الجزاء بعد قوة الولد وضعف الوالد ، أن يستقل الشاب ببيت يُروى فيه من اللذة ، ويذهب الوالدان إلى ملجأ للعجزة ، تخيم عليه العزلة ونذر الفناء ؟

رأيت في أدبنا العربي القديم من يشكو هذا العقوق القبيح ، يقول أمية بن أبي الصلت لابنه الذي تنكر له :

فلما بلغت السنّ والعایة التي إليها مدى ما كنت فيك أؤمّل
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم تُرْعِ حقَّ أبُوئي ! فلت كا الجار المجاور يفعل !!
وقال آخر :

لربَّيْتُهُ حتَّى إذا صار شِيطَانًا - عَمَلاً قَا -
فلما رأَنِي أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخَصًا
تَغَمَّدَ حَقِّي ظَلَّا ، وَلَوَى يَدِي
إِنْ أَرْعَشْتُ كَفَّا أَبِيكَ وَأَصْبَحْتُ
يَدَكَ يَدَيْ لَيْثَ ، إِنْكَ ضَارَبَهُ !!
لَوْلَاشَكَ أَنْ بَيْتَ الْمَسْنِينَ ، أَوْ مَلَاجِئَ الْعَجَزَةِ عَلَى وَحْشَتِهَا أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ
الْكُفُورُ أَوْ مِنْ هَذَا الْعَقُوقِ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ لِمَاذَا نَخْتَارُ بَيْنَ الشَّرَّيْنِ ، وَلِمَاذَا لَا تَكُونُ مَظَلَّةً
الْوَفَاءِ وَالْتَّرَاحِمِ مُخِيمَةً عَلَيْنَا ، مُؤَدِّيَنَ تَحْتَهَا حَقُّ اللَّهِ وَحَقُّ الْوَالَّدِيْنِ ??

روى عبد الله بن عمر وقال : جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاسْتَأْذَنَهُ فِي
الْجَهَادِ ، فَقَالَ : أَحَىٰ وَالدَّاكِ ? قَالَ : نَعَمْ ! قَالَ : فِيهَا فَجَاهَدَ ..

وَفِي رَوَايَةِ أَخْرَى «أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجَهَادِ
أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ ! قَالَ : فَهَلْ مِنْ وَالدِّيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ ؟ قَالَ نَعَمْ ، بَلْ كَلَّاهُمَا حَيٌّ !
قَالَ : فَتَبَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ ؟ قَالَ نَعَمْ ! قَالَ : فَارْجِعْ إِلَى وَالدِّيْكَ فَأَحْسِنْ صَحْبَتِهِ ..

وَفِي رَوَايَةِ أَخْرَى عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ ، أَنْ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتَ أَنْ أَغْزُوَ ، وَقَدْ جَئْتَ اسْتَشِيرِكَ ؟ فَقَالَ : «هَلْ لَكَ مِنْ
أَمْ ؟ قَالَ نَعَمْ ! قَالَ فَالزَّمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا» وَقَدْ جَاءَ فِي آثَارٍ أُخْرَى أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ
أَقْدَامِ الْأَمْهَاتِ .

عَلَى أَنَّ الْبَيْتَ مَاتَقْوَمَ وَتَصْلَحَ وَيُسُودُهَا الْبَشَرُ وَالتَّوَاصُلُ إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ وَحْسَنِ
الْخَلْقِ ! وَلَا بَدْ مِنْ هَنَّاتِ تَقْعِ ! وَأَخْطَاءَ تَرْتَكِ ، وَالتَّعْلِبُ عَلَى الْأَزْمَاتِ الْعَارِضَةِ يَحْتَاجُ
إِلَى لِبَاقَةٍ وَذَكَاءٍ ... وَذَاكَ سَرِّ مَارُوِيِّ عَنْ مَالِكَ بْنِ أَنْسٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ شَاكِيَا يَقُولُ :
أَمْرَنِي أَبِي ، وَنَهْنَهِي أَمِّي ، فَمَا أَفْعَلْ ؟ قَالَ لَهُ : أَطْعِ أَبَاكَ وَلَا تَعْصِ أَمْكَ .. !!

وَذَهَبَ أَبٌ غَاضِبٌ إِلَى أَحَدِ الْأَئِمَّةِ يَقُولُ لَهُ : مُرْأَبِنِي فَلِيُطْلَقْ امْرَأَتَهُ ! قَالَ لَهُ الْإِمامُ

لماذا ؟ قال : لأنى أكرهها .. فقال الإمام : كراهيتك لها لا تبيح طلاقها . ! فقال الرجل : ألم يأمر الرسول عبد الله بن عمر أن يطلق امرأته لأن أباها يكرهها ؟ فقال الإمام : عندما تكون في دين عمر وتقواه وعدالته أكلف ابنك بما ت يريد ! .

إن الحماة أحياناً ت يريد أن تبسط سلطانها على الابن وزوجته .

والزوجة تريد أن تستأثر ببرجلها على والديه ! وهذا المسلك الأناني يخالف آثاراً سيئة .
وغيوماً معكراً ، وعندما نلوذ بتعاليم الدين ونتثبت بمكارم الأخلاق نجتاز مضائق صعبة
ويبقى الشمل مجموعاً .

صلة الأرحام من الإيمان

بئس الرجل يعيش لنفسه وحسب ! لا يهتم إلا بماربه ، ولا يغتنم إلا لمتابعه ،
ولا يعرف إلا من يقرب له مصلحة ، ولا يحفو إلا من لاحاجة له عنده ! .

إن هذا النوع من البشر أدنى إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، ذلك أن الإنسان يفضل
الحيوان بأمرتين أولها عقله المتحرك الجواب في الأرض والسماء ، والثانية عاطفته الرحمة
التي تشغله بأمر نفسه وأمر الآخرين ! .

إن الدابة لا تحس إلا كيانها وما تهوى وما تخشى ! وقد تند عاطفتها إلى ذريتها حينما
من الزمن ثم ينسى كلًا منها الآخر وينطلق كما يشاء ..

وفي الناس من يصبحون ويمسون لا يخرجون من القوقة التي يحيون داخلها ، وهي
أنايهم المطلقة المطبة !

والإسلام شديد الحرث على إيقاظ المسلم إلى غيره ، وتعريفه بحقه ، وإيصاله
برعايته ، وأول أولئك - بعد الوالدين - ذو الأرحام .. ومن حديث رسول الله - صل
الله عليه وسلم - « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » « من أحب أن يُسْطِلَّ له
في رزقه ، وينسأ له في أثره - يُطال في عمره - فليصل رحمه » .

ومن حكم النبوة ولطائفها مارواه أبو ذر : « أوصاني خليلي - صل الله عليه وسلم -
بخصال من الخير ...

« أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوق ، وأن أنظر إلى من هو دوني ..

وأوصاني بحب المساكين والدُنْيَا منهم ، وأوصاني أن أصل رحمى وإن أدبرت !
وأوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم ! .

وأوصاني أن أقول الحق ولو كان مرّاً ، وأوصاني أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا
بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة » .

والأقارب ليسوا سواء ، ففيهم السيئُ الخلقُ القريبُ الشرُّ ، وفيهم الودودُ المقربُ بالجميلِ
الناشرُ للمعروف .. عن أبي هريرة « أَنْ رجلاً قَالَ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي قِرَابَةً أَصْلَهُمْ
وَيَقْطَعُونِي ، وَأَحْسَنُ إِلَيْهِمْ وَيُسْبِئُونِي إِلَيْهِ ، وَأَحْلَمُ عَلَيْهِمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ
كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَانُمَا تُسْفِفُهُمُ الْمَلَكُ - الرِّمَادُ الْحَارُّ - وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ
مَادِمْتَ عَلَى ذَلِكَ » .

وقد كان العربي يفخر بتحمله أذى الأقارب بإبقاء على صلة الرحم ، ولا يحمل الضغينة
على قريب .

وإني لأنسى عند كل حفيظة إذا قيل : مولاك ! احتمال الصغار
وإن كان مولى ليس فيها ينوبني من الأمر ، بالكاف ، ولا بالمعاون !
يعنى أنه قريب قليل الخير ، ولكنه يعينه ، وإن كان قليل العون ، لا يسد ثغرة !!!
ونريد أن ننظر إلى دائرة « الأرحام » كما رسماها الإسلام فإنها أوسع كثيراً مما يظنها المرء
لأول وهلة ، إنها تمتد وتنداح حتى تتجاوز الأعماق والأحوال وأبناء الأعماق والأحوال ،
والقرابات من الدرجة الأولى والثانية حتى تشمل الكثرين ! .

الأساس - في نظر الإسلام - أن الناس جميعاً إخوة لأب وأم ، وأن هذه الصلة
المشتركة لا يجوز أن تهمل وإن طال الزمان وكثرت الفروع وزاد البنون والبنات ، والإخوة
والأخوات ، وفي هذا يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ
بِهِ ، وَالْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » .

الناس كلهم ينتميهم أب واحد وأم واحدة ، وهم - رضوا أم كرهوا - إخوة تجري في

عروقهم دماء مشتركة فعلام التقاطع والتناحر والاستكبار والاحتقار؟.

إن الترعرعات العرقية قسمت البشر قديماً وحديثاً ، ولا تزال الفروق القومية تجعل أبناء آدم كأنه لا رحم بينهم ولا قرابة ..

والأوربيون يسررون ويعلنون أن الجنس الأبيض ، أو سكان الشمال هم الأرق والأذكي ..

والمعروف أن القوم لم يبرز لهم تاريخ متفرد إلا من بضعة قرون ..

وهناك الاختلافات الدينية ، فهي من قديم أساس عراك دمويٌّ ظلوم أرخص الأرواح والأموال وورث الأحقاد والثارات .

وقد أهدر القرآن الكريم كل ما توهّمه الناس مبعث انقسام وشجار عندما قال : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عالمٌ خبير» .

إنني باسم الإسلام أقول لغيري من لا يدينون ديني ، لكم عندي المبرة والعدالة ، ولكم عندي حقوق الرحم الإنسانية الجامدة ! وغاية ما أنشده أن تتركوني وما اقتنت به ، وأن تركوا غيري حرًا في اتباعي إذا شاء ...

نحن نؤمن بالله الواحد ، وبجميع الرسل الذين أرسلهم ، وندعو إلى وحدة دينية تتحقق الوحدة الإنسانية وتصبح مسیرتها في هذه الحياة .

فنصدقنا فهو منا ، ومن كذبنا فليتزكنا وشأننا ولا يلجهتنا إلى مقاتلته دفاعاً عن أنفسنا .

قال عبد الله بن عباس في شرح قوله تعالى : «الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل» يريد الإيمان بجميع الكتب والرسال ، يعني يصل بينهم بالإيمان ولا يفرق بين أحد منهم ..

هذا هو الإيمان الجامع للكلمة ، المحقق للوحدة ، الواصل لما بين الأنبياء من رحم وبين أتباعهم من إخاء ...

ومن السهل رؤية الأطاع البشرية وهي تتخفى تحت رداء الوطنية والطائفية قاطعة الأرحام وسافكة الدماء قال تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم » !

وهنا مبحث لغوی طریف ثار عند شرح الحديث : « إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم ، قامت الرحمة فقالت : هذا مقام العائد بك من القطعية ! قال نعم ، أما ترضيـنـ أنـ أـصـلـ مـنـ أـصـلـكـ وـأـقـطـعـ مـنـ قـطـعـكـ ؟ـ قـالـ :ـ بـلـ !ـ قـالـ :ـ فـذـاكـ لـكـ !ـ وـهـوـ معـنىـ آـيـةـ «ـ فـهـلـ عـسـيـمـ ...ـ »ـ إـلـخـ .ـ

قال القاضى عياض : الرحـمـ الـتـىـ توـصـلـ وـتـقـطـعـ وـثـبـرـ أوـ ثـعـقـ إـنـماـ هـىـ معـنىـ منـ المعـانـىـ كـالـعـلـمـ ،ـ وـالـعـدـلـ ،ـ وـالـرـحـمـ ..ـ وـغـيرـ ذـلـكـ ،ـ إـنـهاـ لـيـسـ جـسـماـ ،ـ إـنـماـ هـىـ قـرـابـةـ وـنـسـبـ ،ـ يـجـمـعـهـ رـحـمـ وـالـدـهـ ،ـ فـيـتـصـلـ بـعـضـهـ بـعـضـ .ـ

وـالـمعـانـىـ لـاـيـتـأـتـىـ مـنـهـ الـقـيـامـ وـلـاـ الـكـلـامـ ،ـ فـكـيـفـ يـفـسـرـ الـحـدـيـثـ ؟ـ

قال : إنـماـ هـىـ هوـ ضـربـ مـثـلـ جـرـىـ عـلـىـ عـادـةـ الـعـرـبـ فـيـ الـمـحـازـ وـالـاسـتـعـارـةـ ..ـ وـالـمـرـادـ تـعـظـيمـ شـأنـ الرـحـمـ وـبـيـانـ إـثـمـ قـاطـعـهـاـ ...ـ

وـقـيلـ بـلـ الـمـرـادـ قـيـامـ مـلـكـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ بـهـذـاـ المـوقـفـ يـتـعـلـقـ بـالـعـرـشـ وـيـتـكـلمـ بـلـسـانـ الرـحـمـ ...ـ

وـأـيـاـًـ مـاـ كـانـ الـأـمـرـ ،ـ فـصـلـةـ الرـحـمـ مـنـ أـبـرـزـ شـعـبـ الـإـيمـانـ وـمـنـ أـعـظـمـ الـقـربـاتـ لـدـىـ الرـحـمـنـ ...ـ

العمل لا العدد

قرأت بحثاً لعالم في الجغرافيا البشرية تحدث فيه عن سكان الأرض منذ تمهّدت للأدّم وبنيه حتى اليوم ، ثم أتّبع كلامه ببحث آخر عن سكان الأرض في عالمنا المعاصر وعن أعدادهم وأديانهم ، وختّم البحث بنبوءة علمية عن الصبغة الدينية التي ستغلب على العالم في العصر القادم .

يرى الباحث أنّ الأرض سكّنها من بدء الخليقة إلى الآن ثمانون ملياراً من البشر ، ولست أعرف المقدّمات التي انتهت به إلى هذه النتيجة ! ولم أستكثّر العدد ولم أستقلّه .

كل ما أحسسته أنّ هذه المليارات الثمانين موجودة لم يلتحقها فناء ، وأننا سنلحق بها حتّماً لتزيد عددها على نحو ما قال الشاعر العربي .

لكلّ أنس مقبر بفنائهم فهم ينقصون ، والقبور تزيد !
ويستيقظ السابقون واللاحقون يوماً ليواجهوا مستقبلاً متفاوتاً بالألوان والدرجات كما جاء في الكتاب الكريم : «ربنا إنك جامِنَ النَّاسَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبٌ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ» .

إنّ القشرة رقيقة جداً بين الموت والحياة ، وفي كل طرفة عين يستخفى من بيننا أقرباء وغرباء كانوا ملء السمع والبصر ، والمدهش أننا نكترث لذلك قليلاً ثم يخطفنا تيار الحياة بعيداً فتنسى كل شيء !!

لأترك هذا التفكير ، ولأعد إلى ما يقوله الباحث في الجغرافيا البشرية عن الأحياء من

سكان الأرض إنهم نحو خمسة مليارات الآن موزعة على الإسلام والنصرانية والوثنية والشيوعية واليهودية .

ويرى الباحث أن المسيحيين يزيدون على المليار ، وأن المسلمين يقاربونه ، ومع أنه أعلم أن عبئاً كبيراً يقع في إحصاء المسلمين إلا أنه لم ياهتمام به ، وإنما اهتممت بالبنوة التي سجلها الباحث الجغرافي – ولعله كتب مقاله من أجلها – فقد قال : إن هناك حرصاً على تقليل النسل في أوروبا وأمريكا ، وأن تعداد السكان في أغلب الدول الغربية ثابت ، وقد ينقص قليلاً أو يزيد ، أما في العالم الإسلامي فالنوع في صعود ..

ولا أدري أنسى الكاتب أم أنه تناهى بقایا العفة والطهر في العلاقات الجنسية بين المسلمين ، وطفوان العهر والتسيّب بين جاهير من الأميركيين والأوربيين ! .

إن الناس لايزيدون مع انتشار «الإيدز» وغيره من العلل التّيّنة ! وقد استخدم غزو الفضاء لبحث جرثومة الإيدز ومحاولة استكشاف علاج يقضي عليها ، أى أن التقدم العلمي يستغل في تغطية آثار الجريمة الشاذة .

أما كان أقرب من ذلك كله تحكيم وحى الله وتحريم المنكر من العمل والقول ؟ .
وأعلن بعد ذلك إخواني المسلمين بأن زيادة عددهم إلى ملليارين لا يفرجني ! فالمهم كثرة العمل لا كثرة العدد .

المسخ الذي أصَابنا

أسمع الإذاعات الأجنبية لأعرف أحوال سائر الخلق بعد أن أعرف أحوال قومي ، وقد وقفت أسفًا دهشاً وأنا أتابع ما يطلبه المستمعون من الموسيقى والغناء الغربي ! .

ناس فيهم الذكران وفيهم النساء ، من أحياء وطنية ، وأماكن بدوية ، هذا يتطلب سماع المغنية الفرنسية فلانة وهذا يريد أن يسمع المغني الإنجليزي فلان ، وتلك تهدى الألحان لحبيها وذاك يهدى لها حبيبته الغالية جدا . ! .

وبلغ الضياع القاع عندما عرضت رواية « عايدة » باللغة الإيطالية قريباً من أهرام الجيزة ، وحضر الألوف وانصرفوا وهم بحمد الله لم يفهموا شيئاً غير ب GAM يعلو ويحيط ! ! .

وتذكرت ماحكي عن المغني الزنجي المحقور « مايكيل جاكسون » الذي يكره العرب أشد الكراهة ، فقد قيل له : إن العرب يحبون أن يسمعوا أغانيك ! فقال : لو علمت ذلك ما غنيت ! ! قلت : هذا المغني يخدم اليهود ، وكان جديراً أن يسقط من عين العرب ولكن عشاق الطرف لا دين لهم ولا غيرة ! ! .

لقد فكرت طويلاً في هذا المسخ الذي أصاب طوائف من أمتنا فأصابها ما أصاب اليهود قديماً عندما جعلهم الله قردة وخنازير .. ! .

إن هذا المسخ بدأ بين المثقفين الذين احتقروا لغتهم ، وأهانوا تراثهم الأدبي ، وشعروا ألا كيان لهم إلا إذا تحدثوا بلسان أجنبي ، وتعاملوا بـ تقاليد مستوردة ..

وأخذت شخصية الأمة تفتت ، حتى شعرت أنها كالإسفنجية التي تمتص كل ما حولها لأنها خاوية خالية تجذب ما يعرض لها ..

إن الشعر العربي العامر بالجمال والحكمة اختفى من لغة التخاطب .. وكنا قد يحارب الغزو اللغوى فأمسينا اليوم ننشئ للأطفال مدارس اللغات التى تؤخر العربية أو تهملها لتبقى على أنقاضها اللغات الأخرى ..

وما يحارب معرفة اللغات ولكننا نأسى عندما نرى النطق بالعربية رديئا حافلا بالأغلاط الفاضحة بينما نرى الحديث بالإنجليزية أو الفرنسية مضبوطا لاعوج فيه .. ليس للعربية كرامة ولا للحفظ عليها حراس ولا يخزى من الجهل بها رئيس أو مرءوس ..
والآن أسمع شخصا من بولاق في القاهرة ، أو من الباسطة في بيروت ، أو من القصبة في الجزائر يريد أن يشنف آذانه أو آذان حبيبته بسماع أغنية من أغاني «البوب» أو موسيقى «الروك والرول» ..

جدع الله آذانكم وأنوفكم وأصمّ أسماعكم !!

إن هناك انحدارا تهوى به أمتنا في مجال اللغة والأدب والفن ، وإذا لم نسارع إلى علاجه سقطنا في هاوية لا قرار لها ..

الدين عند «تاتشر» وعندنا

ألفت السيدة «مارجريت تاتشر» خطاباً في «اسكتلندا» شرحت فيه العلاقة الوثيقة بين فلسفتها السياسية وعقيدتها الدينية . وكان خصومها قد اتهموها بأنها أيقظت نوازع الأثرة والطمع في النفوس ، وجعلت الجماهير تركض وراء المال ركضاً جاحداً !.

قالت المرأة الزعيمة : إنها تحب الغنى للجميع ، وترجو لكل فرد ثراء واسعاً ، وأنكرت أنها تدفع إلى عبادة المال ، وبينت أنها تشتد أن يملأ كل فرد ما يكفيه ويريحه ثم ما يجعله قادرًا على العطاء السمح وسد الثغرات في المجتمع ...

وفهمت أنا - من تلخيص الإذاعة الإنجليزية لخطابها - أنها تشرح الحديث النبوى «نعم المال الصالح للعبد الصالح» والحديث الآخر «إن الله يحب التقى الغنى ...» وهي بدهاً لا تعرف هذه الآثار الإسلامية ، إلا بفطرتها وذكائها .

المهم أنها رفضت الاتهام بالخروج على الدين وأنها أعلنت تمسكها بال المسيحية !

وازنت بين تصريحات رئيسة دولة من أعظم دول الأرض ، وبين تصريحات وزير الثقافة عندنا ثم شعرت بالحزن ، فقد قال : «مبادرتي في مواجهة التطرف هي إحلال الخيال المادى مكان الخيال الغيبى ! وجعل أنا المادية في مواجهة الغيبة» !!

ثم زعم وزير الثقافة : أن الهجوم يأتي من الغيبة والصمود يأتي من المادية !!

والكلام كله متهافت سقيم ، فإن رفض الغيب انسلاخ عن الدين كله ، والزعم بأن الدين يهاجم وأن الإلحاد يدافع زعم سقيم باطل ، والصورة التي تمسكت بذهن الوزير

الذى يُزرى على الغيب صورة دميمة لا علاقه لها بأحكام الدين ، ولا بالواقع الذى ثارت
من أجله المعركة !

وإذا كنا قد رفضنا كلام الفتية الذين يحرمون الغناء كله ، فنحن أكثر رفضاً لكلام
رجل يتناول الغيب بهذا الأسلوب العجيب ..

ويينما أنا في دهشتي لصدور هذا اللغو من مسؤول قرأته للأستاذ الكبير مصطفى أمين
هذه العبارات : « نتمنى عندما نعيين وزيراً جديداً أن نقول للشعب : من هو هذا الوزير ؟
فكثيراً ما يفاجأ الناس بتعيين وزير لا يعرفون عنه شيئاً . كأنما اشقت الأرض فجأة وخرج
منها هذا الوزير .. »

فإذا كان الوزير في الماضي عضواً في جماعة « حدتو » الشيوعية فلنا ذلك في صراحة
حتى يعرف الجمهور سر القرارات التي تصدر والقوانين التي تفرض .. وإذا كان الوزير من
التنظيم الطليعى قيل للشعب إنه كان عضواً في هذا التنظيم الذي حكم مصر يوماً ما » .

أقول : حكم مصر في أيام نحسات ! أليس غريباً أن إحدى الدول العظمى كإنجلترا
تؤكد صلتها بالغيب ، وتصطلح مع تراهما الثقافي والروحي ، وأن مصر المشخونة بالجرح
المثقلة بالديون تستند بالغيب - على لسان وزير ثقافتها - إننا نخاصم أسباب الأرض وبركات
السماء في وقت واحد ، فمن أين يجيء الإنقاذ ؟ .

الإيدز وحرّية التختّ

تسع الدائرة التي ينتشر فيها مرض «الإيدز» وتزيد الأموال المرصدة لمحاربته وتنوّع الدول الفقيرة - في أوربا وأمريكا - بعثارم هذه الحرب التي لا تبدو لها نهاية .

ويقول الدكتور «ليونارد مانا» مثل «كاستاريكا» في أحد المؤتمرات الطبية : إن وزارات الصحة في دول أمريكا الوسطى لاتستطيع تطبيق هذا المرض ومنع انتشاره ! وشكراً من أن المرض المعين أصبح مُتوطّناً لا مستورداً ! وذلك لعجز الشعوب عن مطاردة الشذوذ الجنسي ، والبغاء ، اللذين يمثلان بؤرتين أساسيتين لهذا الداء الخبيث !!

ونحن نعلم أن الولايات المتحدة مهددة بهذا الوباء ، ومهتمة باستكشاف دواء له ، وقد بلغ من اكتراها بمكافحته أنها سخرت إحدى مركباتها الفضائية لحمل جرثومة المرض في خلية مصابة لتعرف مايعرفها في طبقات الجو العليا ! فقد تجد وسيلة للتغلب عليها !!

وقد يسرنا أن يفلح العلماء في اختراع مايشق من هذه العلة ، فنحن نرحم كل مصاب ونحاول أن نحمل الجرحى في ميدان الاستقامة حتى نجد لهم الأمان والعافية ، داعين لمرضى الأرواح والأجسام أن يمن الله عليهم بالعافية حتى يعودوا إليه تائبين .

إن مرض الإيدز من أمراض الحضارة التي تَضَخِّم كيانها المادي ، وضمّر كيانها الروحي ضموراً شديداً .

والبلاد الإسلامية أقل البلاد تعرضاً لهذه المصيبة المثيرة للسخط والاشمئزاز ، وذلك لبقاء الإسلام في جنابتها ، والنفور الشديد من جرميّ اللواط والزنا ، وهاتان الجريمتان

تجدان مرتعًا خصبا في أقطار الغرب حيث عجز أهل الكتاب بإمكاناتهم القليلة ومواريثهم
الضعيفة أن يقاوموا نزوان الغرائز ، والخرافاتها الشائنة ..

ونحن - عشر المدعاة - نشعر بقلق عندما نشعر بمطارق الغزو الثقافي المسعور تنهال على
بلادنا ، نريد الإجهاز على بقايا الدين في أرضنا واجتياح ما بقي من طهر لدينا ! !
ولقد وقفت ضائق الصدر أمام عنوان في صحيفة كبيرة جداً تتحدث عن مرض
الإيدز فتقول : إنه مشكلة عالمية لها أبعادها المتعلقة بالحرية الفردية وسلامة المواطن
واستقراره .. إلخ .

أهذه أخطار المرض الخسيس ؟ أية حرية فردية يتحدث عنها الكاتب الماجن ؟ حرية
العهر والتختن وتحول الرجال إلى نساء ؟.

إن الأقلام التي تنسى الله ، والدار الآخرة ، ومدارج الكمال الإنساني آن لها أن
تحتجب أو تنكسر ، فإن بقاءها ذريعة فناء ماحق لكل ماف العالم من خير .

محنة المخدّرات

تشغل المفكرين محنة انتشار المسكرات والمخدّرات وأنواع التبغ والهوايات القبيحة الأخرى ! ورأوا فيها تهديداً حقيقياً لأمتنا وقضاء سهلاً على يومها وغدّها ..

وقد فكرت في أسباب هذه المحنة ، فرأيت أنها إن لم تقع وقع مثلها أو قريب منه ! ذلك أن الأمم قد تصاب بمرض فقدان المناعة الخلقيّة كما تصاب الأجسام بمرض فقدان المناعة الصحيّة ! وفي كلتا الحالتين يمسى الكيان البشري مفتوح الأقطار لكل البلايا التي تعجل بختفه !

وفقدان المناعة النفسيّة أو الخلقيّة يعود إلى ضعف التربية أو سوء التنشئة ونحو الطفل وهو محروم من ضوابط الخلق الراكي والعبادة السامية والعادات والتقاليد التي تحرس عقله وتصون مسلكه وتشعره بأن هذا حسن يستمسك به ، وهذا ردئٌ يبتعد عنه ، وهذا أمرؤ فاضل يُحترم وهذا امرؤ فاشل يُزدرى ...

والأسرة بلا ريب هي المهد الأول لهذا التكوين الأدبيّ ، إن الإنجاب المجرّد ليس وظيفة الأسرة ، فإن الدواب والطيور والزواحف تتناضل وتتكاثر ، وميزة البشر أنهم يلدّون ويعلّمون ويربون ، وعندما تفقد الأسرة قدرتها على حماية الطفولة وتزويدها بالخصائص الرفيعة فلا قيمة لنتائجها ! .

قال لي صديق : هذا صحيح ، ولكن لماذا تفترض أسرة ذات رسالة في أمة نسيت رسالتها ؟ على الأمة أولاً أن تحترم لغتها وصلاتها وانتماءها الديني الصريح وشارتها التي تتميز بها بين شعوب الأرض ، ونحن أمة نسينا لغتنا وأدابها ، ونذكر الإسلام في ذيل

القائمة إن ذكرناه بعد الانتماء الإفريقي أو الآسيوي أو ... فقاطعت صديقى على عجل
 قائلاً : لا أريد البت في قضية هل الدجاجة من البيضة أو البيضة من الدجاجة ! إبني
 مصدقك في أن الاضطراب العام يلقى ظلاله السود على البيت وتأديب الأولاد ..

ينبغي أن نذكر الدولة بما عليها وقبل ذلك يقوم الآباء والأمهات بواجبهم داخل
 البيت ، فإذا عرض التلفاز قصة سخيفة أو منظراً خليعاً قام الأب أو الأم باطئاه للفور ،
 واستنكار ما حدث ..

والآب المدخن لا يلومن إلا نفسه إذا قلده أولاده في تناول سموم الدخان .. ومن الخير
 أن تكون الكلمات المتبادلة نظيفة عالية المستوى فإذا هبطت فلا يستغربن الآباء أن تجري
 على أفواه أولادهم كلمات نابية ..

إننا إلى اليوم نتواضع على إنفاق مال كثير في فستان فاخر أو في وليمة تكون موضوع
 الإعجاب ، أما في إنشاء مكتبة منزلية ثمينة فأمر لا يخطر بالبال ..

ونحن ندع للطريق العام ولأصدقاء السوء فلذات أكبادنا كأن مستقبلهم لا يعنينا ، وقد
 كنت أرافق أقوال الشباب المدمن فراعنى أن كل واحد منهم ذكر أن الذي جرّه إلى تناول
 المخدرات صديق خدّعه بكلمة ثم دفعه بعدها إلى النهاية المشوّمة ...

والمقلق أن اليهود يربون أولادهم على نحو آخر ، فال تاريخ العبرى ، وأحداث العهد
 القديم ، والذكريات التي غابت عنها عشرات القرون ، واللغة التي نزعت عنها الأكفان
 وعادت إلى الحياة ، والحماس الدينى الملتهب ، والتعاون الوثيق بين الزوجين في الحقل أو في
 المصنع أو في الإدارية ، وتحديد ساعات اللهو لتكون عوناً على ساعات مضاعفة من العمل
 الشاق الشمر ... كل ذلك يكتنف التربية المنزلية والمدرسية ، وبعد بنى إسرائيل ليوم حاسم
 مع العرب التائدين ...

الباب الرابع

مفاهيم يجب أن تصحح

- ١ - القوامة لا تعنى الظهر.
- ٢ - المرأة حرّة في اختيار زوجها.
- ٣ - سفر المرأة
- ٤ - الوجه ليس عورة.
- ٥ - حرمة صوت المرأة ..
- ٦ - إشاعة كاذبة.
- ٧ - الدين ليس احتفاء بالصغار.
- ٨ - الإمام يغنى.
- ٩ - النساء بين التجنيد والتدريب.
- ١٠ - هواة خراب البيوت.
- ١١ - في ضرب الزوجات.
- ١٢ - بيت الطاعة: اجتهاد خاطئ.
- ١٣ - الطلاق وقف مؤقت للروحية.
- ١٤ - تقاليد لابد من تغييرها.
- ١٥ - شباب النساء.
- ١٦ - تفكير باطل.
- ١٧ - لا تمنعوهن من المساجد.
- ١٨ - أفحّم الجاهلية يبغون؟
- ١٩ - الزوج من الأجنبيةات.
- ٢٠ - أطفال المستضعفين للبيع.
- ٢١ - يتأمي المسلمين؟
- ٢٢ - المؤاخاة بديل عن النبأ.
- ٢٣ - عن التحكم في جنس الجنين.
- ٢٤ - الجار له عليك حق.
- ٢٥ - فنانون تائهون.

القوامة لا تعنى القهر

هل قوامة الرجل على بيته تعنى منحه حق الاستبداد والقهر؟ بعض الناس يظن ذلك وهو مخطئ! فإن هناك داخل البيت المسلم مأيسمى «حدود الله» وهي كلمة لاحظت في تلاوتي للقرآن الكريم أنها تكررت ست مرات في آيتين اثنتين !!!

والآياتان في دعم البيت المسلم حتى لا يتتصدع ، وفي تدارك صدوعه حتى لا ينهار .. وهم قوله تعالى «الطلاق مرتان ، فإمساك بمعرف أو تسرير بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتتكموهن شيئاً إلا أن يخافوا إلا يقيما حدود الله . فإن خفتم إلا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلقها فلا تخل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعاً إن ظناً أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون » .

ما هذه الحدود التي تكررت ست مرات خلال بضعة سطور؟ إنها الضوابط التي تمنع الفوضى والاستخفاف والاستضعفاف ، ضوابط الفطرة والعقل والوحى التي تقيم الموازين القسط بين الناس ، إن البيت ليس وجاراً تسكنه الشعالب ، أو غاباً يضم بين جذوعه الورعوش .

لقد وصف الله مكان المرأة من الرجل ومكان الرجل من المرأة بهذه الجملة الوجيزة «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» إن هذا التمازج بين حيائين يكاد يجعلهما كياناً واحداً ، وليس الغريزة هي الجامع المشترك ، فالنزوء العابر لا تصنع حياة دائمة ! وقد عنى المفسرون الكبار بجوّ البيت المسلم وهم يشرحون حدود الله التي تكررت كثيراً فيما سقنا من

ـيات ، وكان أهـم ما حذروا منه الظلم ! قال صاحب المنار رضى الله عنه : « والظلم آفة العمران ومهلك الأمـ، وإن ظـلـم الأـزـواـج للأـزـواـج أـعـرـق الإـفـسـاد وأـعـجل فـي الإـهـلاـك من ظـلـم الأمـير للـرعـية ، فإن رابـطة الزـوجـيـة أـمـنـ الرـوابـط وأـحـكـمـها فـتـلـاـ في الفـطـرة الإنسـانـيـة ! فإذا فـسـدـتـ الفـطـرةـ فـسـادـاـ اـنـكـثـ بـهـ هـذـاـ الفـتـلـ ، وـانـقـطـعـ ذـلـكـ الحـبـلـ ، فـأـيـ رـجـاءـ فـيـ الـأـمـةـ مـنـ بـعـدـ يـمـنـعـ عـنـهـ غـضـبـ اللهـ وـسـخـطـهـ .. إـنـ هـذـاـ التـجاـوزـ لـحدـودـ اللهـ يـشـقـ أـصـحـابـهـ فـيـ الدـنـيـاـ كـمـاـ يـشـقـهـمـ فـيـ الـآـخـرـةـ ... وـقدـ بـلـغـ التـراـخـيـ وـالـانـفـصـامـ فـيـ رـابـطةـ الزـوجـيـةـ مـبـلـغاـ لـمـ يـعـهـدـ فـيـ عـصـرـ مـنـ الـعـصـورـ إـسـلـامـيـةـ ، لـفـسـادـ الفـطـرةـ فـيـ الزـوـجـيـنـ وـاعـتـدـاءـ حـدـودـ اللهـ مـنـ الـجـانـبـيـنـ » .

والـوـاقـعـ أـنـ دـاـخـلـ الـبـيـتـ يـتأـثـرـ بـخـارـجـهـ ، وـتـيـارـاتـ المـيـوـعـةـ وـالـجـهـاـلـةـ وـالـإـسـرـافـ إـذـاـ عـصـفـتـ فـيـ الـخـارـجـ تـسـلـلتـ إـلـىـ الـدـاخـلـ فـلـمـ يـنـجـ فـيـ بـلـائـهـ إـلـاـ مـنـ عـصـمـ اللهـ ... !

إـنـاـ نـرـيدـ أـنـ نـنـفـقـ أـوـلـاـ عـلـىـ إـقـامـةـ حـدـودـ اللهـ ، كـمـاـ رـسـمـهـاـ الـكـتـابـ الـكـرـيمـ . وـشـرـحتـهـ السـنـةـ الـمـطـهـرـةـ وـأـرـىـ أـنـ اـرـتـفـاعـ الـمـسـتـوـىـ الـفـقـهـيـ وـالـخـلـقـيـ وـالـسـلـوكـيـ لـكـلـاـ الـجـنـسـيـنـ سـيـوـطـدـ أـرـكـانـ السـلـامـ دـاـخـلـ الـبـيـتـ وـخـارـجـهـ ، وـسيـجـعـلـ الـمـرـأـةـ تـبـسـطـ سـلـطـانـهـاـ فـيـ دـائـرـتـهـاـ كـمـاـ تـتـيـحـ لـلـرـجـلـ أـنـ يـمـلـكـ الزـمامـ حـيـثـ لـاـ يـصـلـحـ غـيـرـهـ لـلـعـمـلـ فـيـ زـحـامـ الـحـيـاةـ وـعـرـاـكـهـاـ الـمـوـصـولـ ...

إـذـاـ كـانـ الـبـيـتـ مـؤـسـسـةـ تـرـبـوـيـةـ أـوـ شـرـكـةـ اـقـتصـادـيـةـ فـلـابـدـ لـهـ مـنـ رـئـيـسـ ، وـالـرـيـاسـةـ لـاـتـلـغـيـ الـبـيـتـ الـشـورـيـ وـالـتـفـاهـمـ وـتـبـادـلـ الرـأـيـ وـالـبـحـثـ الـخـلـصـ عنـ الـمـصـلـحةـ .

إـنـ هـذـاـ قـانـونـ مـطـرـدـ فـيـ شـئـونـ الـحـيـاةـ كـلـهـاـ ، فـلـمـاـ يـسـتـشـنـيـ مـنـ الـبـيـتـ ؟

وـقولـهـ تـعـالـىـ فـيـ صـفـةـ الـمـسـلـمـيـنـ « وـأـمـرـهـ شـورـيـ بـيـنـهـمـ » نـزـلـ فـيـ مـكـةـ قـبـلـ أـنـ تـكـونـ هـنـاكـ شـئـونـ عـسـكـرـيـةـ أـوـ دـسـتـورـيـةـ ! وـعـمـومـ الـآـيـةـ يـتـنـاـوـلـ الـأـسـرـةـ وـالـمـجـتمـعـ ، وـيـقـولـ الـأـسـتـاذـ أـحـمدـ مـوسـىـ سـالـمـ : « إـنـ القـوـامـةـ لـلـرـجـلـ لـاـ تـرـيـدـ عـنـ أـنـ لـهـ بـحـكـمـ أـعـبـائـهـ الـأـسـاسـيـةـ ، وـبـحـكـمـ تـفـرغـهـ لـلـسـعـىـ عـلـىـ أـسـرـتـهـ وـالـدـفـاعـ عـنـهـاـ وـمـشـارـكـتـهـ فـيـ كـلـ مـاـ يـصـلـحـهـاـ .. أـنـ تـكـونـ لـهـ الـكـلـمـةـ الـأـخـيـرـةـ - بـعـدـ الـمـشـورـةـ - مـاـلـمـ يـخـالـفـ بـهـ شـرـعـاـ أـوـ يـنـكـرـ بـهـ مـعـرـوفـاـ أـوـ يـجـحـدـ بـهـ حـقـاـ أـوـ يـجـنـحـ إـلـىـ سـفـهـ أـوـ إـسـرـافـ ، مـنـ حـقـ الـزـوـجـةـ إـذـاـ انـحـرـفـ أـنـ تـرـاجـعـهـ وـأـلـاـ تـأـخـذـ بـرـأـيـهـ ، وـأـنـ تـخـتـكـمـ

فـ اعترافها عـلـيـهـ بـالـحـقـ إـلـىـ أـهـلـهـ وـأـهـلـهـ أـوـ إـلـىـ سـلـطـةـ الـجـمـعـ الذـىـ لـهـ وـعـلـيـهـ أـنـ يـقـيمـ حدـودـ اللهـ ». .

وهـذـاـ كـلـامـ حـسـنـ ،ـ وـأـرـيدـ هـنـاـ إـثـبـاتـ بـعـضـ المـلـاحـظـاتـ :

أـولـاـ :ـ أـنـ النـفـقـةـ مـعـصـوبـةـ بـجـبـينـ الرـجـلـ وـحـدـهـ ،ـ وـأـنـ إـنـفـاقـ المـرـأـةـ فـيـ الـبـيـتـ مـسـلـكـ مـؤـقـتـ وـتـطـوـعـ غـيرـ مـلـزـمـ ،ـ وـعـلـيـهـ أـنـ تـجـعـلـ أـثـمـ أـوـقـاتـاـ لـتـرـبـيـةـ أـوـلـادـهـ وـالـإـشـرـافـ الـعـلـمـيـ وـالـأـدـبـيـ عـلـيـهـمـ . .

ثـانـيـاـ :ـ أـنـ دـورـ الـخـضـانـةـ مـأـوـىـ مـوقـوتـ تـلـجـيـ إـلـيـهـ ضـرـورـاتـ عـابـرـةـ وـأـنـ الـأسـاسـ فـيـ الـإـيـوـاءـ وـالـتـرـبـيـةـ هـوـ الـبـيـتـ الأـصـلـيـ وـدـفـءـ الـأـمـوـمـةـ وـحـنـانـهاـ !

ثـالـثـاـ :ـ حـرـمـاتـ اللهـ حـوـلـهـ فـيـ إـلـسـلـامـ أـسـوارـ عـالـيـةـ يـجـهـلـهـاـ كـلـ سـكـرـانـ أوـ دـيـوـثـ ،ـ وـتـقـالـيدـ الـغـرـبـ الـتـيـ تـتـيـحـ لـأـىـ اـمـرـئـ أـنـ يـرـاقـصـ أـىـ اـمـرـأـةـ بـإـذـنـ أوـ بـغـيـرـ إـذـنـ مـنـ زـوـجـهـاـ يـرـفـضـهـاـ دـيـنـنـاـ كـلـ الرـفـضـ ،ـ وـلـيـسـ لـرـجـلـ أـوـ اـمـرـأـةـ أـىـ حـرـيـةـ فـيـ اـنـتـهـاـكـ حـدـودـ اللهـ وـاعـتـدـاءـ حـرـمـاتـهـ

رـابـعـاـ :ـ الـأـسـرـةـ مـلـكـةـ ذاتـ حـدـودـ قـائـمـةـ تـشـبـهـ حـدـودـ الدـوـلـ فـيـ عـصـرـنـاـ وـطـبـيـعـهـ هـذـهـ الـحـدـودـ الـحـيـاةـ وـالـحـافـظـةـ ،ـ فـلـيـسـ الـبـيـوتـ مـبـنـيـةـ عـلـىـ سـطـحـ بـحـرـ مـائـجـ التـيـارـاتـ ،ـ وـلـيـسـ بـاـباـ مـفـتوـحـاـ لـكـلـ وـالـجـ وـخـارـجـ ...

وـلـعـقـدـ الزـوـاجـ أـبعـادـ فـقـهـيـةـ وـاجـتمـاعـيـةـ وـتـرـبـيـةـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـعـرـفـ وـأـنـ تـعـرـفـ مـعـهـ قـوـامـةـ الـرـجـالـ ...

وـكـانـ مـنـ السـهـلـ أـنـ يـتـضـحـ ذـلـكـ لـوـسـارـعـنـاـ إـلـىـ إـنـشـاءـ «ـعـلـمـ اـجـتمـاعـ»ـ إـسـلـامـيـ .ـ تـلـقـيـ فـيـهـ قـضـاـيـاـ الـأـسـرـةـ كـلـهـاـ إـلـىـ جـانـبـ ضـرـوبـ التـعاـونـ وـالتـلـاقـ بـيـنـ طـوـائـفـ النـاسـ الـمـخـلـفـةـ ..ـ وـلـكـنـنـاـ مـاـنـزـالـ نـحـبـوـ فـيـ هـذـاـ الـمـجـالـ مـكـتـفـيـنـ بـالـتـرـجـمـةـ وـالـتـقـلـيدـ ،ـ مـعـ أـنـ الـعـلـومـ الـإـنـسـانـيـةـ فـيـ بـرـاجـمـهـاـ الـجـدـيـدةـ تـمـسـ كـيـانـ الـأـسـرـةـ مـنـ زـوـاـيـاـ كـثـيـرـةـ ،ـ بـلـ إـنـ عـلـومـ التـرـبـيـةـ وـالـأـخـلـاقـ وـالـاقـتصـادـ وـالـاجـتمـاعـ .ـ قـبـلـ عـلـمـ الـقـانـونـ .ـ تـتـصـلـ بـشـئـونـ الـأـسـرـةـ .

وـقـدـ غـضـبـتـ نـسـوـةـ غـيـرـاتـ لـمـ اـعـرـفـ الـفـقـهـاءـ عـقـدـ الزـوـاجـ بـأـنـهـ «ـعـقـدـ يـبـعـدـ حلـ المـتعـةـ

بالمرأة » ! وظاهر أن التعريف قاصر عن المعنى الكبير للعلاقة بين الزوجين ! إنه تناول الجانب الذي يدخل منه القانون ، ولم يتناول الجوانب التي تدخل منها بقية العلوم الإنسانية ، والزواج أكبر من أن يكون عقد اتفاق بجسد امرأة ... « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا . وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون وبنعم الله هم يكفرون » ؟

قالت لي امرأة غاضبة : (إذا غضب مني زوجي في حوار ، قد أكون فيه صاحبة حق حُرمتُ رضوان الله ، ولعنتني الملائكة و... و...) فقاطعتها على عجل ، وأفهمتها أن الحديث الوارد في شأن آخر بعيد عما تتوهمن .. الحديث ورد في امرأة تعرض زوجها للفتنة لأنها تمنعه نفسها ، وهو لا يستغنى عنها .. ذاك هو المراد !!

إن الإسلام يقوم على حقائق الفطرة والعقل ، لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها .

المرأة حرّة في اختيار زوجها

هناك سباق قائم بين عدة أديان كي يثبت كل منها أنه أولى بالحياة وأجدر بالبقاء ! والغريب أن بعض المتممرين إلى الإسلام يجهل هذا الواقع ويرتكب حماقات تسيء إلى دينه بل تنفر منه وتصدّ عنه ! ولعله مطمئن - من الناحية النفسية - إلى صدق عقائده وسلامة تعاليمه ، فعلى الناس أن يؤمنوا به فإذا شاعوا أو يذهبوا إلى حيث ألت !

وهذا جهل وطيش ، فإن السلعة النفسية قد تكسد لسوء العرض وقصور الإعلان وتسبّبها سلع أخرى أحسن أصحابها الدعاية لها واجتذاب الأ بصار إليها ...

والحضارة المعاصرة جعلت الإنسانية شعارا لها ، وجعلت من حقوق الإنسان محورا للعلاقات الدولية ، ونوهت بقيمة العدالة الاجتماعية والمستويات الصحية والثقافية العالية .. وقد تكون هذه الحضارة غاشة أو مدعية أو مقصرة ، فإن هذه التهم لا تمحو ما تواضعت عليه المحافل العالمية واتفقت على احترامه ..

فلحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام ويصورنه بعيدا عن مقررات الفطرة ، وأشواق الإنسانية الكاملة ؟

ولحساب من يعلو صوت الإسلام في قضايا هامشية ويخفّت خفوتا منكرا في قضايا أساسية ؟ ولحساب من يرى بعضهم الرأى من الآراء ، أو يحترم تقليدا من التقاليد ثم يزعم أن الإسلام الواسع هو رأيه الضيق ، وأن تقاليد بيته هي توجيهات الوحي ، وبقايا التعليم السماوية على الأرض ؟

قلت لنفر من أولئك المتحدثين : إن وجه الإسلام جميل ولكنه من خلال كلماتكم

يبدو دمياً متوجهماً ، وإنه لمن حسن العبادة أن تسكتوا فلا يسمع لكم صوت !
إن أتى كلام يفياً منه الاستبداد السياسي ، أو التظلم الاجتماعي أو العطن الثقافي أو
التخلف الحضاري لا يمكن أن يكون ديناً ، إنه مرض نفسي أو فكري والإسلام صحة
نفسية وعقلية ..

كنت أناقش رجلاً كندياً يسائلني بضيق عن موقف الإسلام من المرأة ، فجاء في
حواري : المرأة حرّة في اختيار زوجها ، ولا يمكن اكرافها على قبول من تكره ، وهذا لأن
تبادر عقدها أو توكل فيه كما تشاء ...

وكان هناك من يرقبنا وهو ساخط وحمدت الله أنه لاذ بالصمت ! فلما انتهى الحوار
اقترب مني المعارض المؤدب قائلاً : لا يجوز أن تبادر المرأة عقدها ، بل الدين ضد هذا !

قلت له :رأيك ضد هذا ، قلدت فيه بعض المذاهب الفقهية ، ورجحت أنا وجهة
النظر الأخرى ، واعتقدت أنها أقرب إلى عقول الأوروبيين والأمريكيين ، والعمل عليها
يجري في أقطار إسلامية محترمة ، ومن مصلحة الإسلام أن تسع دائرة هذه الأقطار ...

إن شرًا مستطيراً يصيب الإسلام من تقعّع بعض أتباعه في آراء فقهية معينة شجرت
في ميدان الفروع ، ويراد نقلها من مكانها العتيق لتعتبر عقائد ، وقيمه الكبيرة .
والرجل الذي يخسر السوق كلها لأنّه يفضل دكاناً على دكان أو سمساراً على سمسار
لا يسمى تاجرًا .

سَفَرُ الْمَرْأَةِ

سفر المرأة وحدها يحتاج إلى التزوّي ، ودراسة الرحلة كلها من الذهاب إلى الاستقرار ، وليس ذلك من قبيل التطهير والتهمة واتباع الظنون ولكنه من قبيل الحبطة والصون والاطمئنان ، وقد روى الشیخان أن رجلاً قال : يارسول الله إن امرأتي خرجت حاجة ، وإنى أكتب في غزوة كذا وكذا ؟ قال : انطلق فحجّ مع امرأتك !

وتعطيل رجل عن الجهاد ليصحّب امرأته في حجّها أمر له دلالته ! والقاعدة الشرعية « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » وانطلاق امرأة على ناقتها تطوي الطريق بالليل والنهر وحدها مظنة تهجم السفلة وقطع الطريق عليها ، ولم تخل الدنيا قدّيما ولا حديثاً من أولئك الأوباش الذين يستضعفون النساء ويتهزرون فرصة لاغتصابهن ! !

هل يتغير هذا الحكم إذا ساد الأمان ؟ من الأئمة من رأى جواز سفر الحاجة في رفقه مأمونة فإن القافلة المأمومة تنفي القلق والوسوس ، ولعله يشهد لهذا ما صحّ عن عدى بن حاتم ، قال : بينما أنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ أتاه رجل فشكّا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكّا إليه قطع السبيل - وكان ذلك قبل أن تستقر دولة الإسلام وتتبسط الأمان في أرجاء الجزيرة كلها - فقال الرسول يا عدى ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد أنبثت عنها ! قال : فإن طالت بك حياة لترى العينين ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لاتخاف أحداً إلا الله ! .

قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعّار طيئ الدين سعرووا البلاد ؟ - كأنه يستبعد انقطاع دابر المفسدين - ثم قال الرسول لعدي : ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز

كسرى ! قلت : كسرى بن هرمز ؟ - استعظاما للخبر - قال كسرى بن هرمز ! - قال عدّي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة - على شاطئ الخليج - حتى تطوف بالبيت لاتخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتحت كنوز كسرى بن هرمز » .

اقطع من الحديث النبوي ما يتصل بموضوعنا ، وبقى تعليق مامنه بدّ ! إن حضارة أوربا شرقها وغربها واهية العلاقة بالله ، ذاهلة كل الذهول عن لقائه ، وهي مسورة وراء مطالب الدنيا ورغبات الجسد ، وتکاد تستبعد الحلال والحرام عن ميدان الشهوات الجنسية ، ولها منطق مغرق في الإسفاف .

وقد رأيت العالم الإسلامي مهزوم الشخصية أمام الحضارة الغازية مفتونا بمبادرتها قبل أن يكون معجباً بآثرها ، ومن هنا فقد أقررت الجماعات الإسلامية على رفض الرحلات المختلطة التي تنظمها الجامعات للطلاب والطالبات ، وقلت : كل جماعة تكون على حدة !

وإذا سافرت الطالبات في رحلة كشف واستطلاع وثقافة وجب أن تكون عليهن حراسة قوية من مشرفات يقظات ذكيات ..

لقد سمعت شكايات مفزعة لطالبات أمريكيات من ذئاب حاولوا اغتصابهن ! كما أني
متشائم من وسائل الإعلام التي تدغدغ الغرائز ، وتوقظ الحيوان الرابغ وراء جلود
البشر ! وديننا يجعل سلامه الأعراض من دعائم الإيمان ، ويجعل الخنا والقتل والشرك
سواء في استنزال المقت الإلهي والعذاب الأليم .

الوجه ليس عورة

لقيني رجل فوق الأربعين يتحدث وكأنه يافع غر ! قال لي بصوت مهتاج : أنت الذى تفتى بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة ؟ قلت بهدوء : نعم ! قال : أما تتقى الله ؟ قلت : أوصيك ونفسى بتقوى الله .. قال : إنك مخطئ فيما تذكره للناس ويجب أن تتوب ! قلت له : لست وحدى الملوم ، فإن كبار المفسرين سبقوني إلى هذا الخطأ ، كما سبقنى إليه رواة عشرة من الأحاديث الصحاح ، وشاركتنى في خطئي أيضاً أئمة المذاهب الأربعة ، وعدد من المذاهب الفقهية الأخرى .

أولئك جمیعا هم الذين استقیت منهم قولی أو تابعهم في غلطهم ، ولا أشعر بغضاضة إذا كنا جمیعا أصحاب تهمة واحدة ..

قال الرجل وهو دھش : ماذا تقول ، أهؤلاء جمیعا يفتون بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة ؟ قلت : نعم ! ولكنكم تؤثرون التقاليد السائدۃ وتتشبّثون بآراء مرجوحة .. ولنفرض جدلاً أن في المسألة قولين اخترت أنا أحدهما فلم الغضب ولم التحامل والشتم ؟ هل سمعت حديث سليمان وأبي الدرداء ؟ قال : لا ! قلت له اسمع :

روى البخاري عن أبي جحيفة قال : « أخي النبي - صلى الله عليه وسلم - بين سليمان - الفارسي - وأبي الدرداء ... فزار سليمان أبو الدرداء فرأى أم الدرداء متبدلة - عليها ثياب لاجمال فيها - فقال لها : ما شائلك ؟ - لماذا هذا المنظر ؟ - قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في النساء (!) .

وجاء أبو الدرداء وصنع طعاما وقال لسليمان كل فإني صائم فقال : ما أنا بأكل حتى

تأكل ! فأكل - أفتر لأداء حق الضيف - فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، فقال له نم فنام ! ثم ذهب يقوم فقال له نم فنام ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن فصليا جميما . وقال سلمان إن لربك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا وإن لأهلك زوجاك - عليك حقا فأعطي كل ذي حق حقه .

فأتنى - أبو الدرداء - النبي فذكر له ذلك ، فقال النبي - صل الله عليه وسلم - : صدق سلمان . والذى يعني من سرد الحديث الحوار الذى جاء فى صدره ، فلو أن هذا الحوار وقع فى عصرنا لضرب الزائر ، وقتلت المرأة !

ولقى للرجل : ماذا يعنىك من النظر إلى ملابس الزوجة ؟ ولماذا تتغافل بهذه الملاحظة ، ولقى للزوجة : كيف تشكين زوجك وتكتشفين للآخرين انصرافه عنك ؟ لكن سلامه الفطرة في عصر الصحابة تنفي كل شبهة ولا تدع لظنون السوء مكانا ، فلما الثالث النفوس جاء قول الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم وعلى هذا الأساس وجدنا الطياع المريضة تصف كشف الوجه بأنه فجور ، وأنه حرام لأنه في مشاعرهم المعتلة بباب إلى الكبائر والعياذ بالله ...

حُرمة صَوت المرأة .. إشاعة كاذبة

هذه قصة رقيقة نقتطف منها ما يتصل بإشاعة علمية كاذبة عن صوت المرأة والزعم بأنه عورة فقد ذكر ابن إسحاق «أن أبو العاص بن الربيع - وكان صهراً لرسول الله - أقام بمكة كافراً بعد أن منّ عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأطلقه بغير فداء من بين أسرى بدر .. واستمرت زينب عند أبيها بالمدينة ، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لنقريش إلى الشام فلما قفل عائداً بما معه لقيته إحدى السرايا ، فاستولت على القافلة وفر أبو العاص تحت جنح الليل إلى بيت زوجته السابقة زينب مختبئاً بها ومستجيراً ، فأجارته . !

فلا خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لصلاة الصبح ، وكثير الناس وراءه ! صاحت زينب من صفة النساء فقالت : أيها الناس إنني قد أجرت أبو العاص بن الربيع !

فلا فرغ المسلمون من صلاتهم أقبل النبي - صلى الله عليه وسلم - عليهم قائلاً : «أيها الناس ، هل سمعتم الذي سمعت ؟ قالوا : نعم فقال رسول الله : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم ! وإنه يجير على المسلمين أدناهم !» ثم انصرف رسول الله فدخل على بنته زينب وقال لها : أى بنتي أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إلينك فإنك لا تحلين له » !

ونهاية القصة معروفة في السيرة النبوية فقد أسلم الرجل ، وعاد إلى قريش ليرد إليهم ودائعهم ثم تحول إلى المدينة ليجاهد مع المجاهدين ..

والشاهد في القصة حديث زينب إلى الناس ، هل قال مسلم : إنه عورة ! ! وقبل ذلك توبیخ فاطمة لزعماء قريش عندما تصاحکوا لرؤیة وَعَدٍ يضع فرثا على ظهر الرسول وهو ساجد ، لقد سفهتْ أحلامهم ونحَّتْ القدی عن ظهر أبيها وهي تناول منهم ، هل قال مسلم : إن صوتها عورة ؟ .

وتعرّض موسى لأبنتي الرجل الصالح في مدین قائلًا : « ما خطبکما ؟ قالتا : لا ننسق حتى يصدر الرعاء وأبونا شیخ كبير » وبعد قليل جاءت إحداهما تقول لموسى « إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقیت لنا » فهل قال مسلم : إن صوت المرأة عورة ؟ وذكرنا من قبل أن أمراً إلهياً صدر بامتحان المؤمنات المهاجرات ، وكان عمر يتولى ذلك الامتحان فهل قال أحد : إن صوت المرأة - حين تُسأَل فتجيب - عورة ؟ اللهم إلا أن يزعم متقرّ أن الامتحان كان تحریرياً لا شفوياً !!

كان النساء على عهد الرسول - صلی الله عليه وسلم - يروین الأحادیث ويأمرن بالمعروف وينهین عن المنکر ، فما زعم أحد أن صوت المرأة عورة .

العورة في أصوات النساء - وأصوات الرجال أيضاً - أن يكون الكلام مريباً مثيراً له رنين ردئ !

ولا يوجد بين رجال الفقه من قال : صوت المرأة عورة ، إنها إشاعة كاذبة .

الدّين ليس احتفاءً بالصغار

أخبرني صديق إن إحدى المجالات الدينية هاجمتني لأنني قلت : إن الغناء كلام حسنة حسن وقيحة قبيح ! ورأت أن الغناء شركله ! قلت للصديق : قد يكون الخطأ قريبا مني فلست معصوماً وعدر هؤلاء أن أغلب الأغاني الشائعة خليع ماجن ، وأن البيئة الفنية هابطة المستوى .

قال : كأنك تقترب منهم ، وددت لوجمعتكما ليزول الخصم ! فأجبت على عجل : لا أحب هذا اللقاء ! هناك مثل غربي يقول : إن ضعف العقول كالنظارات المكروبة تضخم الأشياء الصغيرة ولا ترى الأشياء الكبيرة .

وكان جديراً بأصحابك هؤلاء أن يكرثوا لصالح المسلمين الداهمة بدل أن يشغلوا الناس بقضية الغناء ! .

إن غول الاستبداد السياسي استهلك شعوبنا من أمد بعيد ، ولم نسمع لهؤلاء نواحاً على حرية موهودة ، ولا بكاء على شورى مفقودة ، إن صمتهم حيث يجب الصياح وصياحهم حيث يجب الصمت يجعلني أزهد في رؤيتهم والاستماع إليهم ويجعلني أدعوا الله أن يريح الإسلام من علومهم ودعاؤاهم ...

ومن بضعة شهور توافق على عدد من الرجال والنساء بدا لي من دراسة أحواهم أن أعصابهم مرهقة وما سببها ثقيلة وأنهم بحاجة إلى علاج مادي ومعنوي .

وزعم لي أكثرهم أن به مسًّا من الجن ، فأنكرت مزاعمه وأشارت عليه بما يحدى في معافاته ! ولكنهم أخوا في الرزعم بأن الجن خالطتهم ! فقلت كلمة شاعت وتناقلتها

الإذاعة : هل الجن تخصصت في ركوبكم وحدكم ؟ لماذا لم يشُّكُ الناس في العالم الأول من عبث الجن بهم ؟

وازدلت شرحاً لرأي في أمرهم ، وهنا جاءني واحد من قراء الكتب الدينية يقول في غضب شديد : أتخالف ابن تيمية ؟ فأسرعـت أقول له : كلا ! إنـي أـيدـته كلـ التـأـيـدـ حينـ خـالـفـ الأـئـمـةـ الـأـرـبـعـةـ وـرـفـضـ الطـلاقـ الـبـدـعـيـ وأـمـضـىـ الطـلاقـ السـنـيـ وـحـدـهـ !

قال : لا أعني هذا ، إنه كان يستخرج الشيطان من جسم الإنسان ، ويقول له : اخرج عدو الله ! فيهرب ! قلت له : ليكن ما تقول صحيحاً أو سقرا ، مالي أراك حمرَ الوجه متغـصـخـ الأـوـدـاجـ شـدـيدـ الـبـأـسـ مستـعـداـ لـلـقـتـالـ ؟ إنـ شـيـاطـينـ الإـنـسـ اـحـتـلـواـ دـارـ الإـسـلامـ عـسـكـرـيـاـ وـسـيـاسـيـاـ ، فـلـمـ يـتـجـهـمـ وـجـهـكـ ، وـلـمـ تـطـلـبـ نـزـالـاـ وـلـاـ سـمـعـنـاـ لـكـ وـلـاـ لـأـمـثالـكـ مقـالـاـ... !!

إنـ هـنـاكـ مـتـدـيـنـينـ ضـعـفـاءـ الـعـقـولـ ! فـقـهـهـمـ ضـمـورـ شـدـيدـ ، وـفـكـرـهـمـ خـللـ مـبـينـ .
وـصـلـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ الـمـحـالـسـ التـشـريعـيـةـ ، فـكـنـاـ نـبـذـلـ جـهـودـاـ مـضـنـيـةـ لـنـوـارـىـ سـوـءـاـتـهـمـ
الـعـقـلـيـةـ ! وـأـحـكـامـهـمـ الطـفـولـيـةـ .

أـلـاـ فـلـيـعـلـمـ النـاسـ أـنـ الدـيـنـ عـقـلـ مـؤـمـنـ ، وـ ثـقـافـةـ مـحـكـمـةـ وـ لـيـسـ اـحـتـفـاءـ بـالـصـغـائـرـ ،
وـ تـجـسـيـاـ لـلـأـوـهـامـ .

الإمام يغنى

لا أعرف أحداً من الفقهاء رفض الغناء الدينيّ ، فمن الذي يكره بواعث الحبّ لله وتحمّل تمجيد أسمائه والثناء على آله؟ ومن الذي يكره الفرار إليه والبكاء على التفريط في جنبه والإضاعة لحقه؟

إنما رفض الفقهاء ما يسمى بـ « حلقات الذكر » التي يكثر فيها الضجيج والصياح . والمكاء والتصدية والتبايل والاطراح ، وهي في الواقع أحفال نسيان لا أحفال ذكر ، وحلقات رقص قبيح حافل بالبدع والخرافات ، ما يساعدها عاقل ..

وفي تراثنا المحترم ما يستحق الإشادة والإحياء ، حكى أبو الحسن القرافي الصوف عن الحسن ، أن قوماً أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين إن لنا إماماً إذا فرغ من صلاته تَعَزَّ - والقصة ذكرها الإمام الشاطبي في الجزء الأول من كتابه « الاعتصام » - فقال عمر : من هو؟ فذكروا له الرجل . فقال : قوموا بنا إليه . فإننا إن وَجَّهْنَا إِلَيْهِ - بالحضور - يظن أننا تجسسنا عليه أمره .

انظر احترام حقوق الإنسان ورعاية كرامات الناس - فقام عمر مع جماعة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى أتوا الرجل وهو في المسجد ! فلما نظر إلى عمر قام يستقبله وهو يقول يا أمير المؤمنين ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ إذا كانت الحاجة لنا كنا أحقّ بذلك منك أن نأتيك ، وإن كانت الحاجة لك ، فأحقّ من عظمتنا خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

قال له عمر : ويحلك ! بلغني عنك أمر ساعني ، قال : ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال :

أَتَشَمَّجُونَ فِي عبادتك - من المُجَانَةُ ؟ - قال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنها عظة أعظَّ بها
نفسِي ، قال عمر قلها فإن كانت كلاماً حسناً قلْتَهُ معي ! وإن كان قبيحاً نهيتُ عنه ؟
قال :

وَفَوَادِ كَلَامَ عَاتِبَتِهِ فِي مَدِي الْهَجْرَانِ يَبْغِي تَعْبِي .. !
لَا أَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا لَاهِيَا
يَا قَرِينَ السَّوْءِ ، مَا هَذَا الصَّبَا
وَشَبَابِي بَانَ عَنِّي ، فَضَى
مَا أَرْجَى بَعْدَهُ إِلَّا الْفَنَا
وَيَحْ نَفْسِي لَا أَرَاهَا أَبْدَا
نَفْسِي لَا كُنْتُ وَلَا كَانَ الْهَوَى

قال عمر رضي الله عنه :

نَفْسِي لَا كُنْتُ . وَلَا كَانَ الْهَوَى
عَلَى هَذَا ، فَلِيغُنَّ مِنْ غَنَّى ..

إِنِّي أَعْشَقُ الْمُشَاعِرَ الصَّادِقةَ ، وَاللَّحنَ الْمُوحَى بِالْخَيْرِ الْخَادِمِ لِلْحَقِّ ! فَنَّ أَبِي ذَلِكَ فَلَهُ
إِباؤهُ . وَلَا يُعَرَّضُنَّ غَيْرَهُ بِاسْمِ الدِّينِ .

النساء بين التجنيد والتدريب

أرفض مع كل مسلم أن تؤلف فرق للمجنّدات على النحو الذي يقع في أوروبا ، فإن هذه الفرق يتم تكوينها لغايات دينية ، والمعروف أن الأوروبيين ينظرون إلى الشهوات الجنسية نظرة رضا واستباحة كما ينظرون إلى حاجات أجسامهم كلها ..

ومن الممكن أن يكون للنساء المؤمنات وجود شريف في ميدان الجهاد الإسلامي أساسه علاج الجرحى ، وإعداد الأدوية ونقل المرضى إلى الجبهات الخلفية . وتهيئة الأطعمة والأشربة . وكتابة بعض الرسائل والنهوض ببعض الأعمال الإدارية ...

ولا بأس أن يكن مُسلحات مدربات فقد تقضي الضرورة بأن يشتبن مع العدو فلا يجوز أن يقعن في يده لقمة سائغة .. روى مسلم عن أنس أن أم سليم رضي الله عنها اخْتَذَت يوم حنين خِنْجِرًا فكانت معها - تحمله باستمرار - فرأها أبو طلحة ، فقال : يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر ! فقال لها رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ما هذا الخنجر ؟ فقالت : اخْتَذَتْهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِّنَ الْمُشَرِّكِينَ بَقَرْتُ بَطْنَهُ ! فجعل رسول الله يضحك . !!

وأخرج الطبراني عن مهاجر أن أسماء بنت يزيد - وهي من المبايعات في العقبة - قتلت في معركة اليرموك تسعة من الروم بعمود خيمتها .. !!

وروى البخاري عن الرُّبِيعِ بْنِ مَعْوِذَ قَالَتْ : كَنَا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَغْزُونَا ، فَنَسْقُ الْقَوْمَ وَنَخْدِمُهُمْ وَنَرْدُ الْقَتْلِيِّ وَالْجَرْحِيِّ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وروى مسلم عن أم عطية الأنصارية ، قالت غزوت مع النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

سبع غزوات ، أخلفهم في رحالمهم وأصنع لهم الطعام وأداؤى الجرحى وأقوم على الرَّمْتِي -
أصحاب الأمراض الطويلة .

ومن الممكن لأجهزة الهلال الأحمر أن تضع نظاما إسلاميا دقيقا للانتفاع بجهود
المجاهدات المسلمات تلاحظ فيه حدود الله ، وترعى آداب العفاف والتقوى التي ينشدها
الدين !

ولعل المرأة تكون أصبر وأقدر في مجال التمريض من غيرها .. ونحن نلاحظ أن
الإسلام اليوم في معارك دفاع عن وجوده وتعاليمه ، وأن جبهة القتال متداة في قارات
كبيرة ، أى أن المسلمين مغزوون في عقر دارهم وليسوا غزا ..

وقد أباح الرسول العظيم لأم حرام أن تطلب الغزو في البحر ، وقد ركبت سفينه مع
زوجة معاوية عندما اتجه إلى فتح قسطنطينية . وماتت ودفنت في قبرص ..

وجهاد النساء عسكريا واجتماعيا معروف في تاريخ السلف الصالح ولكن البعض
يصيبه مَسٌّ عندما يسمع به ! وإذا بق قياد الإسلام الثقافي في يد هؤلاء المتطيّرين
القاصرین ، فإننا سنلقى هزائم شتى في ميدان الدعوة الإسلامية !

إننا أوفياء لسنة نبينا ، ونحب أن نوفر كل الضمانات لتطبيقها على خير وجهه . ونأبى كل
الإباء أن نأخذ تعاليم الإسلام من جهلة بمصادره عبيد لتقاليدهم ...

هواة خراب البيوت

طرق بابي رجل مذعور يتحدث حديثاً متوراً في أهله وماله ، وأحسست أنه يتطلب مني النجدة ! قلت له في هدوء : مابك ؟ قال : في ساعة غضب فقدتُ وعيي وقلت لامرأتي أنت على حرام .. وأفني الشيخوخة بأنني قد فقدتها فلا تخل لي أبداً ...

قلت للرجل أتصل بالخمس ؟ قال : نعم ، قلت : وامرأتك ؟ فتردد قليلاً ، ثم قال : تصل بالخمس ! قلت : وأولادك ؟ قال : بعضهم يصل وبعضهم لا يتم بالصلاحة ..

فترىشت طويلاً كأني أبحث له عن حل ثم قلت له نرجوك زوجتك إليك على شرط ! قال : ما هو ؟ قلت : تحافظ أنت وزوجتك على الصلوات ، وترقب علاقة أولادك بالمسجد حتى تطمئن إلى أنهم يؤدون الفرائض الخمس ، وعليك كفاررة يمين ، تطعم عشرة مساكين إن كنت غنياً ، أو تصوم ثلاثة أيام إن كنت فقيراً .. واستبقي زوجتك في بيتك !

وخرج الرجل ، وبعد أيام جاءني الشيخوخة الذين أفتوه بأن امرأته طلقت طلاقاً بائنا ، سألهني كيف أفتيت بحل هذه الزوجة ؟ إننا هنا مالكيه نعد مأواه بيسوننة كبرى ؟ قلت : مذهبى غير ذلك ، نحن نرى تحريم الحلال يمين وكفارته كفاررة يمين . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها ، وفي رواية أخرى أن رجلا جاءه وقال له : إنني جعلت امرأتي على حراماً ، فقال له ابن عباس : كذبت ، ليست عليك بحرام ! ثم تلا قوله تعالى : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تتبعى مرضاه أزواجه ؟ والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحملة أيمانكم ... » عليك كفاررة يمين !!

ويبدو أن كلامي لم يقنع ساميـه فقلـت لهم لماذا تتحمـسون لخـراب بـيت ، وجعلـ المرأة

أيما والأولاد يتامى وأبواهم حىّ؟ إن المذاهب تختلف في فروع الفقه ، وفي الأحكام التي تصدرها على أعمال الناس ، وعلينا أن نختار الأرعى لمصلحة الأسرة ومستقبل الأولاد واستقرار المجتمع ! علينا أن نحسن الإسلام من تهم الأعداء ، وأنحقاد المتربيين !!
وما دام هناك رأى إسلامي محترم ، فلا ينبغي أن نتعصب لما نألف ! إذا كان ما نجهله خيراً وأجدى على الناس ...

قال لي رجل مريض : كأنك لاتحب مالكا ومذهبة ! قلت : أعوذ بالله من كراهية الصالحين ، إنني في صلالي أتبع مالكا فأصمت في الجهرية وأقرأ في السرية مع أن أبا حنيفة الذي تعلمت مذهبته يحرّم القراءة في السرية والجهرية على سواء !! رأيت مالكا هنا أولى بالاتباع ! .

إنني أكره التعصب الأعمى ، وفيما يتعلق بشئون الأسرة وأحوال المجتمع أوثر كل رأى يحقق المنفعة العامة والخاصة ، ويؤمن ماتصبو إليه الإنسانية المعاصرة من احترام للفطرة ولحقوق الإنسان !

إنني لست مغرماً بجرّ الشبهات إلى سمعة الإسلام .

في ضرب الزوجات؟!

يملكني الغضب والأسى عندما أجد رجال الحديث النبوى ضعفاء الوعى بالقرآن الكريم ! يقرؤون على الناس الحديث غير شاعرين بقربه أو بعده من هذه الآيات القرآنية .

في الجزء الثالث من تيسير الوصول إلى جامع الأصول جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «لا يسأل الرجل : فِيمْ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ؟» أخرجه أبو داود .

قال الشيخ محمد حامد الفقى في تعليقه على هذا الحديث : وأخرجه النسائي ! أى أنه قوى سند الحديث ، وترك المتن وكأنه صحيح لا غبار عليه . ! .

وهذا الظاهر باطل ، فالمتن المذكور مخالف لنصوص الكتاب ، ومخالف لأحاديث أخرى كثيرة ! وعدوان الرجل على المرأة كعدوان المرأة على الرجل مرفوض عقلاً ونقلأً وعدلاً ولا أدرى كيف قيل هذا الكلام ونسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ..

إن من قواعد الجزاء الأخرى قوله تعالى : «فَنَّ يَعْمَلُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» فهل الزوجة وحدها هي التي تخرج عن هذه القاعدة فلا يسأل الرجل «فِيمْ ضَرَبَهَا؟» له أن يضرها لأمر ما في نفسه ، أو لرغبة عارضة في الاعتداء ؟ فأين قوله تعالى : «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» وقوله : «أَمْسَكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» وأين قوله عليه الصلاة والسلام : «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسُ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ ..» .

ما يقع هو النشوز ، ومعنى الكلمة الترّفُع والاستعلاء ، أى أن المرأة تستكِن على الزوج وستنكشف من طاعته ويدفعها هذا إلى كراهيَة الاتصال به في أمْسٍ وظائف الزوجية ، فيبيت وهو عليها ساخط ! وقد يدفعه هذا إلى ضرها . !

وهناك أمر آخر أفحش أن تأذن في دخول بيته لغريب يكرهه مع ما في ذلك من شبهات تزلزل العلاقة الزوجية وتجعلها مضيعة في الأفواه ..
ولم أجد في أدلة الشرع ما يسِيغ الضرب إلا هذا وذاك ..

ومع ذلك فقد اتفقت كلمة المفسرين على أن التأديب يكون بالسواك مثلاً ! فلا يكون ضرباً مبرحاً ، ولا يكون على الوجه ! ففي الحديث «... ولا تضرب الوجه ، ولا تقبّح أى لا تقل لها قبّح الله» !.

ثم قال تعالى في الزوجات المستقرات المؤديات حق الله وحق الأسرة ، «إِن أطعنكم فلا تبغوا عليهم سبلاً إِن الله كان علیّاً كبيراً» .

وختام الآية جدير بالتأمل ، فقد تضمّن صفتين من صفات الله تعالى هما العلو والكبرياء وهما صفتان تنافيان الإسفاف في التصرف ، والاستئساد على الضعيف ، والسلوك بعيد عن الشرف ، وفي ذلك كله لفت أنظار الرجال إلى أن تكون سيرتهم مع أهليهم رفيعة المستوى ، متسمة بالرفق والفضل ، وليس يتصور مع هذا كله أن يعدو الرجل على امرأته كلما شاء ، وأنه لا يسأل عن ذلك أمام الله ...

ومن ثم فالحديث الذي رواه أبو داود والنسائي في ضرب النساء لا أصل له ، منها تمحلوا في تأويله ...

على أن من احترام الواقع ألا نظن النساء كلهن ملائكة ، والرجال جميعاً ثياباً ،
هذا ضربٌ من السخف ، والانحياز في الحكم إلى أحد الجانبين ليس من الإنصاف ..
وال الأولى أن ندرس العلاقات العائلية بتجدد ، وأن نحسب آثار الطياع والأزمات
والأحداث الطارئة ، وألا نترك لسبب تافه القضاء على الحياة الزوجية ..

إن انهدام بيتٍ شيء خطير ! وقد رأى الإسلام - حتى بعد وقوع طلاق - أن يجعل

كلا الزوجين يواجه الآخر ، لعل الذكريات الحلوة تغلب الذكريات المرّة ، أو لعل الإيلاف يطرد الفراق على نحو ما قال أبو الطيب :

خُلِقْتُ أَلْوَفًا ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارِقَتْ شَيْجٍ مَوْجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيًّا
وَمِنْ ثُمَّ وَجَبَ تَدْخُلُ الْمُجَمَعِ لِفَضْحِ الْأَشْتِبَاكِ عَلَى مَهْلٍ وَإِعْادَةِ الْمِيَاهِ إِلَى مَجَارِيهَا ،
وَأَوْلَى النَّاسِ بِأَدَاءِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ أَقْرَبُ الزَّوْجِينِ ، فَهُنَّا أَرْغَبُ فِي الصَّلَحِ وَأَبْصَرُ بِالْمُصْلَحَةِ
وَأَقْدَرُ عَلَى التَّنْفِيذِ ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِنْ خَفْتُمْ شَقَاقَ بَيْنَهُمَا فَابْعَثُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ
وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوفِّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهِ خَبِيرًا » .

وقد روى الشافعى بسنده عن علی بن أبي طالب - رضى الله عنه -، أنه جاءه رجل وامرأة ، ومع كل واحد منها فثام من الناس - جماعات - قال : ما شأن هذين ؟ قالوا : وقع بينهما شقاق ! قال على فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلهما .
ثم قال للحكمين : تدريان ما عليكمَا ؟ إن رأيتا أن تجتمعوا جمعتنا ! وإن رأيتا أن تفرقنا فرقتنا ، فقالت المرأة : رضيت بكتاب الله بما على فيه وبما لي ! .

وقال الرجل : أما الفرقة فلا .. ! قال على كذبت حتى تقر بمثل ما أقرت به ..
ومعنى اعتراف الزوج أنه لا يعطى للحكمين حق ايقاع الطلاق باسمه .. أى أن لها
الجمع لا التفريق ! ولكن عليا كذبه ! مبيناً أن للحكمين التوفيق أو التطبيق أو المخالعة ،
وهذا هو كتاب الله ..

والفقهاء يختلفون في سلطة الحكمين ومداها ، ولا ندرس الموضوع هنا ، وإنما نشعر
بالغرابة لأن الرجل الذى استفحلا الشقاق بينه وبين زوجته حتى بلغ ما بلغ لم يفرط في
عقد الزوجية ، ورغبة في بقائه .. ! .

وشيء آخر نتوقف عنده ، أن المجتمع باسم الله تدخل لجسم النزاع ، واستدامة
العلاقة العائلية ! أما اليوم فقد تطلق المرأة في رطل لحم يعلق الرجل بقاء امرأته على
شرائط ! .

الحق أن قضايا المرأة تكتنفها أزمات عقلية وخلقية واجتماعية واقتصادية ، كما أن

الأمر يحتاج إلى مراجعة ذكية لنصوص وردت ، وفتاوي تورثت وعادات سيئة ترك
طابعها على أعمال الناس .

لابد من دراسة متأنية لما نشكو منه ، ودراسة تفرق بين الوحي وما اندسَ فيه ، وبين
ما يجب محوه أو إثباته من أحوال الأمة .

بيت الطاعة : اجتهاد خاطئ

مع ثبوت الخلع في الكتاب والسنّة فقد رأيت جملة من المستغلين بالفقه يتجاهلونه ، ويرفضون إنتهاء عقد الزوجية به سواء بالفسخ أو بإيقاع الطلاق . وبعضهم يدخله في الطلاق للضرر ! ويأتي أن يكون لمشاعر البغضاء عند المرأة وزن !.

وقد عاصرت عهداً كان القضاء «الشرعى» يأمر بإرسال الشرطة إلى أسرة الزوجة لإرغامها على الذهاب إلى بيت الطاعة كي تعاشر زوجها ، وكانت الأسرة تقوم بتهريب الزوجة إلى مكان بعيد فراراً من تنفيذ حكم القضاء .. !.

وكنت أسأل نفسي : هل هذا هو تفسيرنا لقول الله سبحانه : «أمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا»؟.

إن من أبغض الأمور عندي تعريض الإسلام كله للرّد والجحود بسبب اجتهاد خاطئ أو تعصب مذهبىٰ ضيق !.

وإذا كنا في عصر تلتمس العيوب فيه لدينا الحنيف ، ويقال عنه : إنه قضى على شخصية المرأة ، واجتاز حقوقها المادية والأدبية ، فلماذا بالله نستبعد حكم الخلع من شريعتنا - وهو حق - وتزعم أن المرأة يقاضن عليها لتساق إلى بيت هي له مبغضة ؟

أعرف أن هناك رجالاً يحتقرن مشاعر النساء ، ويأبون تلبيتها أو الوقوف عندها ، فهل أولئك الرجال هم الممثلون للوحى الأعلى ؟ إنهم أصحاب أمزجة جديرة بالمعالجة !.

وقد يرجى القضاء العادل الرحيم إجابة المرأة إلى ما تبغي من خلع إيثاراً لمصلحة الأسرة

والأولاد ، وقد يتضرر نتيجة تحكيم يتدخل الأهلون فيه ابتعاد الإصلاح ! لكن المرأة إذا أبَت إِلَى الفراق ، ورَدَتْ ما سبق إِلَيْها من مال ، فَمَا بَدُّ من تسرِّحها والاعتراف بمشاعرها ، وليس لنا أن نسأل عن الأسباب الخفية لهذه الرغبة ، لنقبلها أو نرفضها ! .

إن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عندما رَقَ زَوْجَهُ . بُرِيرَةً ، وَقَدَّرَ مُحِبَّتِهِ لَهَا ، ذَهَبَ إِلَيْهَا بِحَدِشَتِهِ فِي أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ ! فَسَأَلَهُ : جَئْتَ آمِراً أَمْ شَافِعاً ؟ قَالَ : جَئْتَ شَافِعاً .. ! قَالَتْ : فَلَا أَعُودُ ! وَلَمْ يَتَهَمِّهَا النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي دِينِهَا ، وَلَا فِي طَاعَتِهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ..

وأمِرَّةٌ ثَابِتَ بْنُ قَيْسٍ لَمْ تَهَمْ زَوْجَهَا بِأَنَّهُ يَشْتَمِّهَا أَوْ يَضْرِبُهَا أَوْ يُضْيِّقُ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا شَكَتْ بِأَنَّهَا تَكْرَهُهُ كَرَاهِيَّةً شَدِيدَةً ، وَصَرَحَتْ بِأَنَّهَا مَا تَعْتَبُ عَلَيْهِ فِي خَلْقٍ وَلَا دِينٍ !! إِنَّهَا تَكْرَهُهُ وَحْسَبَ ، فَمَا مَعْنَى الزَّوْجِيَّةُ وَالحَالَةُ هَذِهِ ؟

وَمَا دَخَلَ رَجُلُ الشَّرْطَةِ هَنَا ؟ وَكَيْفَ يَحْكُمُ الْإِسْلَامُ بِاسْتِبْقاءِ الزَّوْجَةِ فِي بَيْتِ تَعْدَهُ سَجَنًا وَتَعْدُ صَاحِبَهُ شَخْصًا بَغِيَاضًا ؟

وَإِذَا قَدَّمْتُ مَا أَخْذَتْ مِنْ مَالٍ فَدَاءً لِنَفْسِهَا فَلَمْ لَا يَؤْخُذْ مِنْهَا وَتَسْتَرِدَ حَرِيَّتِهَا ؟ وَهُلْ تَقَامُ حَدُودُ اللَّهِ فِي بَيْتِ يَسُودُهُ هَذَا الْجُوَالُ الْخَانِقُ ؟ وَأَيْ شَرْفٌ لِلرَّجُلِ فِي هَذِهِ السُّيُّطَرَةِ ؟ إِنَّ الَّذِينَ يَتَجَاهِلُونَ الْخَلْعَ لَا يَفْقَهُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى : «إِنْ خَفْتُمُ أَلَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تَلْكَ حَدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حَدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» وَالْوَاقِعُ أَنَّ ازْدَرَاءَ عَوَاطِفَ الْمَرْأَةِ ، وَاسْتِخْدَامَ الْقَسْوَةِ لِتَرْضِيَتِهَا بِمَا لَا تَرْضِي لِيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا مِنَ الْفَقْهِ ... !

إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الْعَدْلَةِ وَالْمَرْحَمَةِ ، وَمَنْ تَصَوَّرَ أَنَّهُ يَأْمُرَ بِاستِرْقَاقِ الزَّوْجَةِ وَالْإِطَاحَةِ بِكَرَامَتِهَا فَهُوَ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَيُؤْسِفُنِي أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَتَحدَثُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ شَائِهُ الْفَطْرَةِ قَاصِرُ النَّظَرِ ، وَالْأَدِهَى أَنَّهُ يَتَطاوِلُ عَلَى أَهْلِ الذِّكْرِ وَالْإِسْتِبْنَاطِ ، وَمَصِيَّةُ الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أُولَئِكَ الْأَدْعِيَاءِ ..

ولا يجوز للرجل أن يخرج امرأته ليكرهها على طلب الخلع ، أى يسىء عشرتها لطلب الفكاك من أسره بأى شمن ، قال الشيخ سيد سابق في كتابه الجليل «فقه السنة» : يحرم على الرجل أن يؤذى زوجته بمنع بعض حقوقها حتى تضجر وتخليع نفسها ، فإن فعل ذلك فالخلع باطل والبدل مردود ولو حُكِم به قضاءً .

وإنما حرم ذلك حتى لا يجتمع على المرأة فراق الزوج والغرامة المالية ، قال الله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْلُّ لَكُمْ أَنْ ترثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْصُلُوهُنَّ - العضل التضييق والمنع - لِتَذَهَّبُوا بِعِصْمَانِ مَا أَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَ» .

ويرى الإمام مالك أن الخلع ينفذ على أنه طلاق ، ويجب على الزوج أن يرد البديل الذي أخذه من زوجته ..

على أن الإسلام الذي صان كرامة المرأة وأعلى مكانتها يرفض رفضاً شديداً أن تستغل المرأة ذلك للعبث والنشوز ، فإن البيت المسلم لا ينهض برسالته التربوية والاجتماعية إلا بالتعاون والتراحم وتبادل الحقوق والواجبات ..

وإذا كان الرجل يكدر سحابة يومه ليقوم بأسرته ، فإن على أهله توفير السكن النفسي الذي يريح الأعصاب ، ويمسح المتاعب ! .

أما أن تطلب الزوجة الخلع لغير علة إلا البطر والأثرة فهذه جريمة وفي الحديث «أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير بأس لم تُرَحْ رائحة الجنة» وفي رواية لأبي هريرة : «إن المختلعتات هن المنافقات» ! .

فلنعرف طبيعة شريعتنا ، ول يكن وعيينا بأحكامها صوناً لحياتنا الخاصة وال العامة .

التشدد في إيقاع الطلاق

لا أكترث طويلاً لاختلاف الفقهاء في العبادات الشخصية ! من شاء قرأ وراء إمامه ومن شاء صمت ، لكل منها أجره ، وإن كنت أضيق بالللغظ الذي يحدّثه الشافعية عندما يبدؤون قراءة الفاتحة حال ما يقرأ الإمام السورة بعدها ..

إننا نكترث للخلاف الواقع في الدماء والأعراض ! فهو خلاف لا بد أن تتدخل الدولة لحسمه ، تبئي مذهب محدد فيه !!.

هناك من يرى فسخ الزواج بين عربية وأعجميّ (!) وهناك من يرى القصاص بين مسلم وغير مسلم ، بل هناك شئون دولية خاض فيها الفقهاء تتصل بالحرب والسلام .. وأعتقد أن هذه القضايا هي مجال الاجتہاد الجماعي لا الفردی ، وهي كذلك مجال الاجتہاد المفتوح أمام وجهات النظر المختلفة ، وأظن هذا الخلاف لن تنقضي أسبابه .. وعندى أن شئون الأسرة من هذه الحالات المفتوحة ، وأن الاختيار الحرّ من شئي المذاهب الاجتہادية أدنى إلى الحق ، وأعود بالنفع على الأمة . وإذا كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله فأفضل ما نفعل أن نضيّق الخناق على الآراء التي توقعه لأدنى شبهة .

هناك فقهاء تحسّبهم متربصين بكلمة الطلاق تقال أو تفهم أو تُوهم فإذا هم يحكّمون على الحياة الزوجية بالموت كأنما يشنون تمزيق الشمل وبعثرة الكيان الجميع .. !.

وقد سرني من ابن تيمية ردّه لطلاق البدعة ، وبصره الذكي بالنصوص وحكمتها . واستغربت من أتباعه أن يتوجهّموا لهذا الجانب الذكي من فقه الرجل .

وكان استبخار ابن حزم في حفظ المرويات وراء رفضه لكثير من أحكام الطلاق التي أفتى بها غيره بيد أن ظاهرته المفرطة أوقعته في ورطات مضحكة ، وأظنها حالت دون الانتفاع بعلمه الغزير ، وقدرته المعجبة ..

إنه رفض الطلقة الواحدة في الحيض مثلاً ، والطلقتين ، ولكنه أوقع الطلاق الثالث ، وذاك في غاية العجب والتناقض والمخالفة لظواهر النصوص وفحواها .

إنه يرفض طعنة وطعنتين ويقبل ثلات طعنات ! .

الإسلام يريد التريث في معالجة ما ينشب بين الرجل وامرأته لعل المياه تعود إلى مجاريها ، وهذا ما يفهمه كل عاقل من ختام آية الطلاق « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .

وقد قال تعالى في سورة البقرة : « الطلاق مرتان فامساك بمعرف أو تسرير بإحسان » هناك ثلاثة إمساكات بمعرف ، وهناك ثلاثة تسريرات بإحسان ، والتسرير الأخير هو الحاسم لعلاقة الزوجية أو ما يسمونه اليقونة الكبرى .

وما يقع الطلاق بهذه الصورة إلا بعد أيام متطاولة أو محاولات فاشلة ، أما إمضاء الثلاث بلفظ واحد في وقت واحد فلون من اللعب بدين الله دفع المؤمنون ثمنه غالياً من سعادتهم واستقرارهم .

وقد جادل ابن حزم طويلاً في إمضاء الطلاق الثلاث ، ولكن ابن تيمية كان أولى منه بالحق وأبصر بمصلحة الأمة .

ويعجبني الحديث المرسل الذي ردَّه ابن حزم « أخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ جَمِيعًا ، فَقَامَ غَضِبًا ! ثُمَّ قَالَ : أَيْلُعَبُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ؟؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَقْتُلُهُ ؟ » وعن أنس بن مالك كان عمر إذا ظفر بن طلق ثلاثاً أوجع رأسه !! .

ومع ذكرنا عن ابن حزم فإن الرجل خالف جمهرة من الفقهاء أوقعوا الطلاق بطرق ملتوية ، وأساليب غامضة ، واقرأ معنى قوله : « من خَيْرِ امْرَأَتِهِ فَاخْتَارَتْ نَفْسَهَا ، أَوْ

اختارت الطلاق ، أو اختارت زوجها ، أو لم تخترش شيئاً فكل ذلك سوء ، لا شيء فيه . ولا تحرم عليه . ولو اختارت الطلاق ألف مرة .. وكذلك لو ملّكها أمر نفسها أو جعل أمرها بيدها .. إلخ .

ويقول ابن حزم ... « ومن قال لأمرأته أنت على حرام ، أو زاد على ذلك كالميّة والختّر ، فهذا كله باطل وكذب ولا تكون عليه حراماً . وهي امرأته كما كانت نوى بذلك طلاقاً أو لم ينور !! »

ونتساءل علام اعتمد الرجل في هذا الحكم ؟ يحيب ابن حزم : إن الله يقول لنبيه : « يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ » فأنكر الله تعالى عليه تحريم ما أحله له ! .

وفي الآية الأخرى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » فمن قال لأمرأته الحلال له بحكم الله هي حرام فقد كذب وافتوى ، ولا تكون عليه حراماً .. !

وللتحرّم طرق حددتها الشارع فلا نقبل طرفاً آخرى اخترعها الناس لقول النبي عليه الصلاة والسلام « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » أي فهو مردود عليه ، قال : وتحريم الحلال إحداث حدث ليس في أمر الله عز وجل فيجب أن يرد .. إلخ . قال : « ولا يقع الطلاق إلا بلفظ من ثلاثة ألفاظ : هي الطلاق ، أو السراح ، أو الفراق ، وما يشتق من هذه المصادر !! ». وهذا التحديد حسن ! وكل قيد يوضع لاستبقاء الزوجية فنُرحب به وقد توسع العلماء في ألفاظ حقيقة أو مجازية للإجهاز على عقد الزوجية .

وهذا التوسيع ينافي اتجاه الشارع إلى إعطاء فرص للإصلاح ، ولا مساغ لتلقيف الكلمة من هنا أو من هناك لهدم البيت وتشريد من فيه ...

من المتناقضات الباعثة على الحزن ، أن المسلم ينفق أوقاتاً وأموالاً في الخطبة والمهر والأثاث والهدايا والعرس قد تكون ألف الجنيهات في أيام طوال .

ثم بعد ذلك كله يقول عليه الطلاق إن عاد إلى التدخين ، ثم يدخن وتذهب امرأته

ف سجارة وينهار بيت أفق في إقامته الكثير !! .

لقد رفض ابن حزم جميع أنواع الطلاق المعلق ، واضطر المشرع في مصر من ستين سنة خلت إلى التدخل لوقف هذا البلاء ، فوضع هذه المادة : « لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه لا غير » .

وجاء في المذكرة الإيضاحية لهذه المادة « إن المشرع أخذ في إلغاء اليمين بالطلاق برأس بعض علماء الحنفية والمالكية والشافعية ، وأنه أخذ في العاء المعلق الذي في معنى اليمين برأس على بن أبي طالب وشريح القاضي وداود الظاهري وأصحابه » .

وأستطيع أن أضم إلى ذلك رفض الطلاق الذي ليس عليه إشهاد ، فالشاهدان لابد منها لقبول العقد ، والرجعة ، والطلاق ، على سواء .. وخير لنا نحن المسلمين أن نقتبس من تراثنا ما يصون مجتمعنا ، ويحميه من نزوات الأفراد .

أما الزهد في هذا التراث كله فهو الذي فتح الطريق لمحاولات تنصير قوانين الأسرة .

الطلاق وقف مؤقت للزوجية

قد يرى الفقيه أن يأخذ الحكم من الظاهر القريب للنص ، وقد يتجاوز هذا الظاهر لأسباب تلوح له من أدلة أخرى لها وزن أرجح ! .

غير أننا نشعر بالدهشة عندما نرى حكمًا فقهياً يترك النص الظاهر القريب دون نظر إلى مصلحة أرجح أو دليل أقوى !! .

وقد رأيت ذلك في كثير من قضايا المرأة ، ولا ضرب مثلاً يوضح ما أريد ! .
إنهاء الحياة الزوجية لا يتم بضريمة قضائية – كما يقال في ألعاب الملاكمة – وكلمة الطلاق في نظر الإسلام هي وقفٌ مؤقتٌ لعلاقة تحتاج إلى إعادة نظر ، وليس حسماً صارماً لهذه العلاقة ..

ومن هنا لا يرضي الإسلام هذه الكلمة في كل وقت بل جعل لها أوقاتاً خاصة .
وبعد وقوعها كما رسم ، استبقى الحياة الزوجية داخل البيت مدة طويلة لعل المياه تعود إلى مجاريها ، لعل مشاعر الجفاء تبرد وعواطف الحنان تغلب .

واستنفر الإسلام أقارب الزوجين لمنعوا تفاقم الأزمة ووفاة الحياة الزوجية !! وآيات القرآن في هذا الصدد كثيرة ، وأنقل هنا أول آية في سورة الطلاق : «يأيها النبيُّ إِذَا طلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطْلَقُوهُنَّ لَعْدَتِنَ - لَا فِي أَىٰ وَقْتٍ - وَاحْصُوْا الْعِدَةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ . لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِّن بَيْوْهُنَّ وَلَا يُخْرِجُنَ - يَحْرُمُ خَرْجُوْ زَوْجَهُ مِن بَيْتِهَا أَوْ إِخْرَاجُهُ مِنْهُ عَنْدِ سَمَاعِ الطلاق - إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَ بِفَاحِشَةٍ مُّبِيِّنَةٍ . وَتَلِكَ حَدُودُ اللَّهِ . وَمَنْ يَتَعَدَّ حَدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعْلَ اللَّهُ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» .

والجملة الأخيرة تشير إلى حكمة بقاء المرأة في البيت ، فهو لا يزال بعد الطلاق بيته .
كما تشير إلى سبب جعل الطلاق في وقت محدد ، فهو لا يحلّ وقت الحيض ، ولا يحلّ في
طهـر تـمـّ فيه الاتصال بين الزوجين ! إن له زماناً محدداً يحلّ فيه .

والترام هذه المعالم عبرت عنه الآية بهذه الجملة « تلك حدود الله » ..

وهذه الجملة في بيان الأسلوب الذي يُنهى الحياة الزوجية تشبه الختم الذي تمت به
آيات المواريث « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويَتَعَدَّ حدوده يدخله ناراً حالذا
فيها » .

وقد أجمع المسلمون على أنه ليس لبشر أن يغيّر شيئاً من أنصبة المواريث ، وأن من
فعل ذلك حكمنا ببطلان تصرفه ، وأمضينا التقسيم الإلهي كما جاء به النصّ وكما عُبر عنه
بأنه حدود الله . !! .

وأما حدود الله في أحكام الطلاق فقد واجهت موقفاً آخر ، فإن العلماء اتفقوا على أن
الطلاق قسمان : سنىًّا وبدعى ! فأما الطلاق المشروع الذي جاءت به السنة ودلّ عليه
القرآن فهو أن يطلق المرأة طلقة واحدة في طهر لم يمسسها فيه ، وتبقى المرأة في بيته طوال
أيام عدتها .. وأما الطلاق البدعى فهو أن يطلق في أثناء الحيض ، أو في طهر مسّها فيه ،
أو يوقع أكثر من طلقة في طهر واحد ! .

وهذا المسلك حرام باتفاق العلماء ، وهو بدعة لا يعرفها الدين ! وكان المفروض أن
يرمى هذا الطلاق في سلة المهملات ، وأن يُنظر إليه كما ينظر إلى مسلك رجل غير نظام
المواريث ووضع أنصبة جديدة من عنده ، فهذه وتلك حدود الله التي لا يسوغ
إهدارها ..

لكن الذي وقع للأسف غير ذلك ! فإن عدداً من الفقهاء قبل الطلاق البدعى
وأمضاه وأنفذ جميع آثاره ، إنه عدد كبير ! والذى صدع بالحق في هذه القضية من أهل
السنة هو ابن تيمية وابن القيم وابن حزم - تقريراً - وثلة من الآخرين تمردوا على تيار
الخطأ وقاوموا الانحراف معه .

وقد تصدعت أركان الأسرة عقب الاعتراف بطلاق البدعة ، ووَقَعَتْ مهازل تثير الغثيان والأسى ، فهذا رجل ينفق عند زواجه عشرات الألوف ليبني بامرأته ، ثم تسمعه في السوق يحلف بالطلاق صادقاً أو كاذباً على رطل من اللحم يساوي دراهم معدودات ! وتهدم الأسرة ! .

وهذا فقيه يكتب في تأليف مدرسي لطلاب العلم الدينى : من قال لامرأته أنت طالقة نصف تطليقة ، وقعت طلقة واحدة ! ! أى عبث هذا ؟ هذه مسالك حشاشين ! .

روى ابن حزم في المخلّى أن رجلاً جعل امرأته عليه حراماً ، فسأل عن ذلك حميد بن عبد الرحمن الحميري ؟ فقال له حميد : إن الله قال لنبيه : «إِذَا فرَغْتَ فَانصِبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغِبْ» وأنت رجل تلعب ! فاذهب فالعب ..

إن التحليل والتحريم ليسا إلى أهواء الناس وفتواهم «ولا تقولوا لما تصف أُسْتَكْمِ الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ...» .

إننى أريد الرشد والاستقامة للأسرة المسلمة ، ولى ولغيرى أن نلقى نظرة فاحصة على أحكام الطلاق ، ولن نجىء بشيء من عندنا ، ولكننا نختار من أقوال الفقهاء أدناها إلى الكتاب والسنة ، وأغیرها على مصلحة الوالدين والأولاد ومستقبلهم ..

وأعرف أن هناك من يحرّر وجهه غضباً كى تبقى للطلاق البدعى مكانته العملية ! ورضأ هؤلاء أو سخطهم لا يعنينى .

إن اهتمامى الأول والآخر بتعاليم الإسلام ومصلحة المسلمين .

تقاليد لابد من تغييرها

أغلب البيوت يستقبل رمضان بقلق لأن ميدان التجارة يغزوه الكساد ، وميدان الزراعة يغزوه الجفاف ، والأسعار جائحة إلى الغلاء ! وتقاليد المسلمين جعلت شهر الصيام شهر الطعام ، وجعلت النفقة فيه أربى من غيرها فيسائر الشهور ..

ما العمل؟ لنكن صرحاء ولنقل: إن على المسلمين تغيير تقاليدهم القائمة على الإسراف! ويجب أن تعود صبغة العبادة لشهر العبادة، وأن يبرز في الصيام معنى الجهاد والقدرة على مقاومة شتى الرغبات!.

كنت أحب من صرعتهم عادة «التدخين» أن ينتهزوا الفرصة فينسليخوا عن هذه العادة
إما بإرادة قاهرة ناجحة ، وإما بتدرج مقرن بالعزم !! .

كنت أحب من يغلبهم الفتور في الدراسة أو في الإنتاج لأن يتبعوا القراءة والتدبر والإجاده الشمرة لكل عمل ...

إن البيت الإسلامي يقوم على إعداد الطعام لأهله ، وليس مهمته أن يكون عادات البطنة والتشرب ، أو أن يدخل في منافسات مادية سفينة تقديم الأشهى والأغلى . والظروف السياسية والعسكرية التي تمر بأمتنا تفرض علينا ألواناً من التقشف لا ألواناً من اللذات .

وكان الفتى والفتات يشبون على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقول الحق ورعاية العهود والأمانات فكان البيت - بهذه الوظيفة - الرافد الأول لمجتمع راشد طاهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ..

وكان الطفل يتعلم في سنينه الأولى كيف يصلّى مُؤْمِناً بأهلـه ، فإذا اشتَدَّ عودـه بدأ يصوم ! والمرحلة الأولى في العمر هي أساس ما بعدها من مراحل ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا المـء أعيـته المـروـة نـاشـئا فـطـلـبـها كـهـلا عـلـيـه شـدـيد !
وـلـمـ الـأـخـلـاقـ يـفـيـدـنـا أـنـ الصـفـاتـ الـحـمـيـدـةـ لـاـ تـولـدـ فـيـ الإـنـسـانـ فـجـأـةـ ،ـ وـلـاـ تـوـجـدـ
كـامـلـةـ .

والبيت المتخصص في تقديم العَلَفِ للأجساد إنما يخرج حيوانات ، أما البيت الذي يحرس الشرف والطاعة والأدب فهو ينشئ بشرًا سوياً ..

ما أجمل أن ترى في الوجوه الحياة النبيل وفي الألسنة الأدب الجم ، وفي المسالك كلها تقوى الله والتزام حدوده .. وما أجمل أن تلمع الترفع ، والابتعاد عن المزاليق ، كما يقول الشاعر :

وأغـرضـ عـنـ مـطـاعـمـ قـدـ أـرـاهـاـ فـأـرـكـهـاـ ،ـ وـفـ بـطـنـيـ انـطـوـاءـ !
فـلـاـ وـأـيـكـ مـاـ فـيـ العـيـشـ خـيـرـ !ـ وـلـاـ الدـنـيـاـ إـذـاـ ذـهـبـ الـحـيـاءـ !ـ
يـعـيشـ الـمـءـ مـاـ اـسـتـحـيـ بـخـيـرـ وـيـقـ العـودـ مـاـ بـقـ اللـحـاءـ !ـ
وـفـ شـهـرـ الـرـوـحـانـيـةـ وـالـجـهـادـ وـتـلـاوـةـ الـقـرـآنـ أـرـيدـ أـنـ أـذـكـرـ بـضـعـةـ أـحـادـيـثـ فـيـ قـيـامـ الـلـيلـ
أـحـتـاجـ قـبـلـ سـرـدـهـ إـلـىـ تـمـهـيدـ طـوـيلـ ..

كـنـاـ وـنـحـنـ طـلـابـ فـيـ الـمـراـحلـ الـابـتدـائـيـةـ وـالـثـانـوـيـةـ نـذـاكـ درـوسـنـاـ بـجـمـاسـ وـرـغـبةـ ،ـ
وـتـقـاضـانـاـ ذـلـكـ أـنـ نـسـهـرـ جـزـءـاـ مـنـ الـلـيـلـ نـجـدـ مـاـ نـخـافـ نـسـيـانـهـ وـنـؤـكـدـ مـاـ اـسـتـحـضـرـنـاـ ،ـ فـيـنـاـ
مـنـ يـخـافـ الرـسـوبـ وـفـيـنـاـ مـنـ يـرـيدـ التـفـوقـ !ـ

ولـكـ لـلـنـومـ سـلـطـانـاـ يـمـيلـ بـالـرـعـوسـ بـيـنـ الـحـيـنـ وـالـحـيـنـ .ـ هـاـذـاـ نـصـعـ ؟ـ كـانـ كـثـيرـونـ

يذهبون تحت صنابير الماء البارد ليطردوا النوم من الجفون ، ويعودوا أشد نشاطاً ! .
وأستحضر الآن هذه العهود وأقول : لو وجدتُ موجهين مهرة لحفظت في تلك الأيام
كتاب كذا أو ديوان فلان ! إن التحصل في أيام اليفاعة زاد يقى طول العمر ! .
وفي عباد الله من يتأهب للقاء الله بكنوز من الباقيات الصالحات تتحول يوم القيمة إلى
نور يسعى بين يديه وعن يمينه ولعل التهجد بالقرآن الكريم في طليعة تلك الصالحات !! .
وفي حديث سليمان الفارسي قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «عليكم بقيام
الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنها عن
الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد » ..

غير أن قيام الليل يحتاج إلى تعاون بين الزوجين كلّيهما لا ليتناوبا بل ليشاركا !! .
فعن أبي هريرة وأبي سعيد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إذا أيقظ
الرجل أهله من الليل فصلّيا ركعتين جمیعاً كتابا في الذارکین والذارکات» .
وهذا مسلك لا يحسنه إلا بيت مؤمن ، سكن اليقين والخشوع قلوب أهله وحفزهم إلى
مغالبة النعاس ! .

إن هذه الركعات قد تحفظ مستقبل الأولاد ! فقد كان عبد الله بن مسعود يصلي من
الليل ، وابنه الصغير نائم ، فينظر إليه قائلاً : من أجلك يا بني ! ويتلوي وهو يذكر قوله
تعالى : «وكان أبوهما صالحًا ...» .

وقد ذكر القرآن الكريم حال أولئك المتهجدين الساهرين وما أعاد لهم في بلاد الأفراح
فقال : «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمئناً وما رزقناهم ينفقون .
فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» .

على أن هذا القيام المنشود تعرضه صعاب ، ولحظات استرخاء وفتور ، وقد بين
الرسول الكريم أن الزوجين يستطيعان الانتصار على لذة الرقاد ببعض الماء !! .
و قبل أن أذكر الحديث أؤكد أن هذا لا يصلح لكل بيت ، ولا بين أي زوجين !!

إنه عمل أساسه قبل كل شيء الرغبة السابقة في القيام ، والاتفاق في النهار عليه ، وعلم كل من الزوجين بأن صاحبه سوف يسرّ بالصحو لمناجاة الله ، والتصرع إليه ..

هل أذكر الحديث بعد هذه المقدمة ؟ ليكن ، ولو أني أذكره على وجل خوفاً من سخط مدمني النوم ! يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ، وأيقظ امرأته فإن أبى نصح في وجهها الماء ! ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبي نصحت في وجهه الماء » !! .

وف رواية أخرى « ما من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته فإن غلبها النوم نصح في وجهها الماء ، فيقومان في بيتهما ، فيذكرا الله عز وجل ساعة من الليل إلا غُفر لها » .

هذه البيوت التي صنعتها صاحب الرسالة العظمى هي التي غيرت وجه العالم ، ونقلته نقلة هائلة من الخضيض إلى الأوج .. أين من هذه البيوت المنيرة بيوت تسهر على أحفال التلفاز اللاحية الساهية ، ثم ترتمي في فرشها كأنها جثث لا حراك بها ، فلا تستيقظ إلا لأكل جديد أو سعي بليد ؟ .

إن رمضان يقبل الآن وتقبل معه هموم النفقات المطلوبة للولائم المنصوبة ! وأحفال التسلية حلّ الغاز البطالة ! والتسكع على أفاريز المدينة الصاخبة بالآثام !! .

إن أمتنا تعاني من هزائم علمية وخلقية وصناعية وتجارية ، فهل نصحو من الخدر الذي جمد أفكارنا وأطراافنا ، وألقى بنا وراء قوافل الأمم السائرة ؟؟

ثياب النساء ؟

الملابس لابد منها للإنسان رجلاً كان أو امرأة ، فهى كسوة تحتاج إليها صحته ، وهى غطاء يوارى ما يستحبى أن ينظر الآخرون إليه ، ثم هى زينة تستحبها الفطرة دون حرج . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سواتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير» فالريش ما يكسب صاحبه لوناً من الجمال ، وكلا الجنسين يستريح ولكن ما قيمة ثوب وسيم على خلق دميم ؟ وما معنى أن يكون المرأة قبيح الباطن جميل الظاهر ؟ لذلك أوصى القرآن بلباس التقوى ونبه إلى أنه أشرف وأذكى ...

ويُنصح النبي - صلى الله عليه وسلم - المسلم بهذه النصيحة الجديرة بالدراسة : «كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأت خصلتان ، سرف ومحيلة» أى اجتنب الإسراف والخيال وكل ما تشاء والبس ما تشاء مما أحل الله لك ...

والأطباء يرددون أغلب الأمراض إلى الإسراف في المأكل ، والجراءة على المحرمات ، والواقع أن الاعتدال خير كلهم ، فإذا تجاوزنا ميدان الطعام إلى عالم الملابس رأينا الإسراف والاختيال يفترسان نفقات هائلة وأموالاً طائلة ويخفيان وراء طائفة من الأخلاق الكريهة والمسالك الشائهة ..

وقد فكرت في الملابس العسكرية فوجدتها ثابتة على اختلاف الليل والنهار ، لا تكاد تتغير إلا بالرتب المتفاوتة وما يصاحبها من شارات ، أما الملابس المدنية فقلما تثبت على حال ، خصوصاً ملابس النساء فإن أشكالها وألوانها لا تنتهي ، قد تطول وقد تقصر ، وقد تضيق وقد تتسع ، وللفصول الأربع أزياءها متشابهة وغير متشابهة ، وللسهرات

ملابس - أو شبه ملابس - وهناك سباق مسحور بين مجال الأزياء لتقديم صيحات جديدة تستهوى النساء وترضى غرائزهن . وعند التأمل نجد أن وراء هذا النشاط المحموم الخصلتين الكريهتين : الإسراف والخيال .. !! .

من حق المرأة أن تكون جميلة المظهر ، بعد أن تكون تامة العقل كريمة الشمائل . هل «السارى» الهندي الذى يكشف قدرًا من البطن والظهر يكفل هذا الجمال ؟ هل الفستان الأوروبي الذى يكشف أدنى الفخذين ، وينحرس - عند الجلوس - عن أواسطها يكفل هذا الجمال ؟ الحق يقال أن حائكتى هذه الملابس لا يوفرون للمرأة كرامتها ، ولا يرجون لها وقاراً وإنما يهيجون ضدها غرائز السوء ..

ويبدو أن الحضارة الحديثة تقصد إلى هذا قصدًا ، فقد كنت أسير على أحد الشواطئ فوجدت رجلاً وامرأة يسيران جنبًا إلى جنب ! هو يلبس سراويل كاملة «بنطلون طويل» وهي تلبس ما يكشف عن نصف أفخاذها «شورت» لماذا هذا الاختلاف ؟ أيراد به خير للمرأة ؟

إن تعريه المرأة حيناً ، وحشرها في ملابس ضيقة حيناً آخر ، عمل لم يشرف عليه علماء الأخلاق وإنما قام به تجار الرقيق ، ولكى نوفر تربية شريفة للجنسين يجب أن نعرض هذا الموكب الساخر من الكاسيات العاريات ..

وقد قلنا : إن من حق المرأة أن تتجمّل ، ولكن ليس من حقها أن تتبرج ! ولا أن ترتدى ثوب سهرة تختال فيه وتستلتفت الأنوار بل إن الإسلام رفض ذلك من الرجال والنساء جميعاً . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لا ينظر الله يوم القيمة إلى من جر ثوبه خيلاء» وإنها لطفولة عقلية سخيفة أن يرى امرؤ مَا مكانته في حذاء لامع أو رداء مطرّز بالحرير أو الذهب ! .

إذا لم يتحصّن المرء في نصابٍ كبيرٍ من العلم أو الخلق فلن يعني عنه جمال الثياب ولن الإهاب ! وللملابس وظيفتها المقررة ، ولا يسوغ أن تكون وسيلة للإغراء المكرور ، أو التطاول المعيب ، روت عائشة أم المؤمنين «أن أختها أسماء دخلت على رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - وعليها ثياب راقق فأعرض عنها ! وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلاح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه » وهذا الحديث له شواهد كثيرة من سنن صحاح وحسان . .

ورأى النبي - صلى الله عليه وسلم شاباً اسمه ضمرة بن ثعلبة معجباً بنفسه وهو يرتدى حلتين فاخرتين من حلل اليمن ، فضاق به وقال له : يا ضمرة أترى ثوبيك هذين مدخليك الجنة ؟ فأحس الشاب خطأه ، وأسرع يقول لرسول الله لئن استغفرت لي لا أقعد حتى أنزعها .. ! فقال النبي : اللهم اغفر لضمرة ، فانطلق سريعاً حتى نزعها عنه .. ». إتنا لا نحرم زينة الله التي أخرج لعباده ، ومن حق كل إنسان أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، وأن يحافظ على هيئته مصونة ، ذلك شيء غير التكلف والإسراف وإثارة الفتنة ومحاولة التسامي بقطعة قماش .

وقد شعرت بأن من النساء من تجمعت في غرفتها سبعين فستاناً ، وأخبرت بأن بعضهن في أثناء الأحوال تخرج لتبدل ثوباً بدل ثوب حتى تعرض جسدها في ألوان شتى ! هلا عرضت على الناس ثقافتها وفضائلها بدل هذا الإسفاف !!.

إن التزوع إلى الترف والسرف أحيى في عواصم الغرب صناعات كثيرة ، وكون ثروات ضخمة ، وما تزال بلادنا تعاني تخلفاً حضارياً مذلاً .

ومع سيادة الحضارة الحديثة رأيت عادة جديدة لا يقبلها الدين ، هي ارتداء النساء ملابس الرجال حتى ليكاد المرء يعجز عن التفريق بين الجنسين ! وهذه أحوال مرضية يبرا منها النساء العظيمات !

وقد رأيت رئيسة وزراء إنجلترا في ملابسها النسائية بين قادة العالم ، تحمل حقيبة يدها وتتحرك راسخة شاحنة ، تساندها مواهبها وفضائلها وحدها ... إن محاولة محى الفروق الطبيعية بين الجنسين لون من العبث ، والتفاوت الذي يستحيل محوه هو التفاوت العلمي وما تستند إليه الشخصية الإنسانية من ملكات وقيم ، وفي هذا المجال قد تسبق نساء بجدارة وقد يسبق رجال .. ولا علاقة للأقمشة بهذا التفوق .

وقد صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله : «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال» وفي رواية أخرى «لعن رسول الله المختلين من الرجال ، والمتزلجات من النساء» .

وظاهر أن هذا عوج في السلوك ، ولعله مرض نفسي يستحق العلاج .. أما السباق العام في مرضاة الله بالإيمان والعمل فيidan مفتوح للرجال والنساء ، يتتصدر فيه الأتقي والأذكي «من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييئه حياة طيبة ولنجزئهم أجرهم بأشحسن ما كانوا يعملون» .

وأذكر أخيراً طرفة علمية تعليقاً على ما شدت به المدنية الحديثة من إنشاء نواد لل العراة أو مستعمرات لل العراة يشترك فيها طلاب اللذة ، أو أصحاب الأهواء المنحرفة ، وهي مؤسسات تتغاضى عن سيئاتها الحكومات التي ترحب بالساحرين والساحرات ! .

قال لي أحد المستغلين بعلوم الأحياء : إن هناك تناقضًا كبيرًا بين مواضع التلقيح في عالم النبات والحيوان ! قلت له : كيف ؟ قال : في الحقول والحدائق ترى أماكن التلقح في ذواب الشجر وأوراق الورد ، وترى المناظر رائقة ، والرياح تميل بها ناقلة عناصر الحياة والبقاء ... أما في عالم الحيوان - خصوصاً البشر - فأماكن التلقح مطوية مستخفية يتخطها النظر على عجل واستحياء ، وربما كانت ممراً لإفرازات الأجهزة الدنيا في البدن !! .

قلت : لعل ذلك ما جعل أبوينا آدم وحواء يسارعان إلى تغطيتها بما استطاعا من الورق «فلما ذاقا الشجرة بدت لها سواتها وطفقا يخصنان عليها من ورق الجنة» .
وقلت : إن الميالين للعرى من شباب اليوم أقرب إلى الحيوان منهم إلى الإنسان .

تفكيير باطل

منذ افتتاح المسجد النبوى بعد الهجرة إلى أن لحق النبي - عليه الصلاة والسلام - بالرفيق الأعلى والنساء يصلين فيه ، والباب المخصص لهن لم يغلق قط ! أى أنهن أدئن فيه بين سبعة عشر ألف وثمانية عشر ألف صلاة ، وهذا من المتواتر المستيقن الذى تساقط حوله أخبار الآحاد فلا يكترث بها أو يقام لها وزن .

قال بعضهم : لقد روى عن عائشة أم المؤمنين : «لورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل » ! فيجب منعهن لهذا الحديث ولغيره ! .

ونقول : إن ما وقع على عهد رسول الله امتد أيام الخلافة الراشدة ، وبقى المسجد النبوى معموراً بهن دون نكير ؛ بل إن عمر بن الخطاب أمر سليمان بن أبي حشمة أن يوم النساء في مؤخرة المسجد في شهر رمضان ، وروى ابن حزم أن على بن أبي طالب كان يأمر الناس بالقيام في رمضان فيجعل للرجال إماماً وللننساء إماماً ، قال عرفجة - الراوى - فأمرني فأمنت النساء ! .

وروى الزهرى أن عاتكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب كانت تشهد الصلاة فى المسجد ، وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا !! فقالت : والله لا أنهى حتى تنهنى ! قال عمر : فإنى لا أنهاك !! فلقد طعن عمر يوم طعن وإنها لن المسجد !! .

أما ما روى عن عائشة من رفض صلاة المرأة فى المسجد فهو يفتح باباً لإلغاء شعائر

الإسلام خشية الأوهام ، ومن الممكن أن يقول أى إنسان : لو علم رسول الله ما تجرّه إقامة الحدود من تهم للإسلام لأنّي الحدود !! .

وتلغى الحدود على نحو ما قيل : لو رأى رسول الله ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد ...

إن هذا القول يعني أن بعض أحكام الإسلام موقوت ، يبقى لظروف خاصة ، فإذا انتهت تلك الظروف أُغتئت ، والظروف الجديدة الطارئة لا يعلمها صاحب الرسالة في حياته ولذلك لم يحدث لها تشريعا ...

وهذا التفكير باطل كله ، فإن الله يعلم ما كان ويكون ، وقد أذن للنساء بالصلاحة في الجماعات ، وأمرهن بالذهاب إلى المسجد مختشيات قانتات عابرات .. فإنهن لم يخرجن لأحدى مسابقات الجمال ، أو أحد عروض الأزياء .

ومن خرجت على حدود الأدب ومطالب الحياة منعت من دخول المسجد ، وكان ذلك عقاباً لها ، أما الحكم على جميع النساء بعدم الصلاة في المساجد لأن إحداهم قد تكون متبرجة فهذا تعميم مرفوض ...

والغريب أن النساء منعن المسجد وحده ! أما غشيان الأسواق والانطلاق في الشوارع ، فهذا لا حرج فيه ! .

إن تحريم المساجد على النساء كما تفعل شعوب إسلامية كثيرة من وراء الانهيار الخلقي وقد ان التربة الذي أودى بأمتنا في هذه الحياة ...

لَا تَمْنَعُهُنَّ مِنَ الْمَسَاجِد

صلة المسلم بالمسجد تنبع من أعماق ضميره ! فهو البيت الذي يرنو إليه ويتعدد صباحاً ومساء عليه ، وفي ساحتها الطهور ينادي ربه ، وتشرق على روحه أشعة من تكبير الله وتحميده ، ويلتقي برجال مثله جمعتهم أخوة الإيمان وطاعة الرحمن ...

إن الجماعات المتصلة في المساجد واحات من الحق والخير على ظهر الأرض ، ومثابة يأرِزُ المؤمنون إليها هاربين من زحمة الأثرة والشهوة ، وسعار المأرب العاجلة ، مقبلين على الله راجين الدار الآخرة ... !

فلا عجب إذا كان بين السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيمة رجل « قلبه معلق بالمسجد » .

على أن أعمال الحياة قد تفرض على الناس أن يؤدوا الصلاة فرادى أو جماعات في البرية إذا كانوا رعاة غنم ، أو في الحقول إذا كانوا فلاحين ، أو في المصنع والمداوين .. ولا بأس عليهم في هذا الانقطاع عن المسجد : لأنهم يقومون بفرض آخرى ، وعندما ينتهيون منها تتجدد علاقتهم بالمسجد كما كانت ..

والنساء والرجال سواء في الارتباط بالمسجد ، والعرض لرحمات الله غدوا ورواحا ، ليلاً ونهاراً .. بيد أن هناك فرقاً لا مانع من شرحه ، إن العمل الأول للمرأة في بيتها وهي أمّا الله راعيتها ومسئولة عنه .

وهو فرض في عنقها ، أما الجماعة فهي سنة .. ! ولا يجوز تحت مظلة هذه السنة إهمال

البيت ، وتعطيل مصالح الزوج والأولاد ، ومن ثم قدّم الشارع رعاية الأسرة على شعيرة الجماعة ، فإذا أدت المرأة واجبها لزوجها وأولادها ، فمن حقها أداء الصلاة في جماعة والحرص على الثواب ، ولا يجوز لرب البيت أن يمنعها بعد ما وفَّت بحقه ، وفي ذلك يقول رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله !! !!

ولا ريب أن تختلفُها عن المسجد لمسؤوليات البيت يجعلها أمام الله أهلاً لثواب الجماعة وإن لم تحضرها ، فعذرها المقدور يعطيها ثواب الحضور !

وقد أخطأ نفر من أهل العلم فظنوا الجماعة للرجال لا للنساء ، بل زعم بعضهم أن البيت أفضل للمرأة من المسجد . ونقلوا مرويات تافهة منكورة ، مؤهلاً بها على الأغوار ، وأخفقاً ما تواتر على طريق القطع أيام النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي عهد الخليفة الراشدة ، من احتشاد النساء في المساجد وانتظام صفوفهن عشرات السنين ..

روى مسلم عن عبد الله بن عمر : قال : سمعت رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استاذنكم إليها » فقال له بلال ابنه : والله لنمنعهن ، فأقبل عليه عبد الله بن عمر ، فسبَّه سبًا سيئًا ما سمعته سبَّه بمثله قط ! قال : أخبرك عن رسول الله ، وتقول : والله لنمنعهن !!! .

وروى مسلم كذلك : لا تمنعوا النساء من الخروج بالليل إلى المساجد .. ! .

وبديه أن على المجتمع تأمين الطريق من كل شائبة ، وجعل العبادة متوجهة عن كل ريبة ..

وأمر آخر نؤكده ! أن الذهاب إلى المسجد ليس ذهاباً إلى معرض أزياء ، أو مسابقة جمال ، إنه خطوات لإرضاء الله ونشدان الآخرة وقمع الشيطان ولزوم التقوى ! .

وفي الصحاح عن زينب إمرأة عبد الله بن مسعود ، قال لنا رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إذا شهدت إحداكن المساجد فلا تمس طيباً .. ». .

والطيب نوعان : نوع مظهر يقتل الجراثيم والروائح الكدرة ، وهذا لا حرج فيه . .
ونوع نفاذ الرائحة لافت للأنظار والمشاعر وهذا مرفوض .

كما أن المساجد وضعت للعبادة الحالصة لا للقاء المريب ، فلا يجوز لامرأة ذهبت

للمسجد أن تتقدم إلى الأمام لترى الرجال أو ليراهما الرجال ، كما يحرم المسلك نفسه على الرجال ، وقد تكاثرت الأحاديث في هذا المعنى «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» .

إن الله يريد لعباده التقوى والأدب والبعد عن مظانسوء ، ولعل من ذلك تخصيص باب للنساء يلجن منه ويخرجن لا يزاحمهن أحد من الرجال ، وقد ورد أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن يدخلَ من باب النساء ..

وقد ناقش ابن حزم ما روى أن صلاة النساء في البيوت أفضل ، وأبان بأدلة دامغة أنه قول مدخول وأثر مرفوض ، وتساءل : لماذا تركهن الرسول في الحر والبرد والليل والنهار يعانين التردد على المسجد إذا كانت بيتهن أفضل ؟ هل هذا من نصحه لأمتة ؟ ولماذا أمرهن بالخروج تفلاط - غير متبرجات ؟ أما كان يستطيع منعهن ؟

ذلك ، وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بإخراج النساء إلى مصلى العيد حتى الحوائض ، وأمر من لا جلباب لها أن تستعير جلباباً من جارتها وتخرج ، فكيف يتفق هذا مع بقائهن في البيوت حتماً ؟

قال بعضهم : لعل أمر رسول الله بخروجهن يوم العيد إنها كان إرهاباً للعدو لقلة المسلمين يومئذ وليكثروا في عين من يراهم ..

قال ابن حزم : وهذه عظيمة ، لأنها كذبة على رسول الله ، وقول بلا علم ! فقد بين النبي أن أمره بخروجهن : ليشهدن الخير ودعوة المسلمين ، ويعتلن الحَيْض المصلى ، فأفَّ
لم كذب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - وافتري برأيه .. ثم إن هذا القول مع كونه
كذباً بحثاً فهو بارد سخيف جداً ، لأنه - عليه السلام - لم يكن بحضور عسکر فيرهم ،
ولم يكن معه عدو إلا المنافقون ويهود المدينة الذين يعرفون أن الحاضرات نساء ...» .

الحق أن منع المسلمات من المساجد بدعة سيئة ، وبلاء نكب المجتمع الإسلامي به ،
فأورثه الجهل وسوء التربية وشروع التقليد .

ولا شفاء إلا بالعودة إلى سيرة الرسول الكريم وصحابه الأولين .

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟

رأيت صورة تظاهرة كبيرة تمر بشوارع باريس ، فيها جماهير غفيرة من الرجال والنساء . كان الكل يطلب إعادة عقوبة الإعدام ، ويرفع لافتات تستنكر إبقاء الحياة للقتلة والمفسدين ! .

وتفرست في ملامح امرأة غاضبة تتقدم الصفوف ، وقلت : لعلها والدة الطفلة التي اغتصبها أحد الذئاب ثم قتلها بعد ما قضى وطره منها ! .

إنه الآن يُعلَفُ في أحد السجون بعدما حُكم عليه القضاء بسبعة عشر عاما ! ! .

وهذا الرجل الذي يلوح بذراعيه ! لعله والد الشرطي الذي قُتِلَ وهو يطارد لصًا يفرّ بسرقه ، إن اللص القاتل يُعلَفُ الآن مع زميله في هدوء ! .

إن القوانين التي وضعها الناس لأنفسهم ، والتي رفضت القصاص ، وتهاونت مع المجرمين بدأت تؤتي نتائجها المرة .. لأنها قوانين - من الناحية الإنسانية - فقدت التمييز بين الخير والشر والحسن والقبح ، والعدل والظلم ، ولأنها من الناحية الدينية نسيت الله وبحدت حقه في الحكم بين عباده ...

إذا انحرف مزاج امرئٍ مَا فقتل صاحبه في ساعة غضب فلا قصاص ! لأنه مع تعمد القتل لم يرتكبه بعد تفكير طويل ! ! هذا هو التشريع الذي نقلناه عن أوروبا ، ثم ارتفت أوروبا إلى أسلف فقررت إلغاء عقوبة الإعدام ! .

وقد سمعت بعض صعاليك الفكر من العرب المهزومين يردد الصيحة نفسها ! ! إنه لا إيمان ولا عقل ! .

لقد حاولت رئيسة وزراء إنجلترا أن تعيد عقوبة الموت للقتلة ، ولكن مجلس العموم خذلها ، ولا عجب فمجلس العموم ومجلس اللوردات هما اللذان أباحا اللواط مادام بالتراصى ! .

ومع فساد الفطرة واستبعاد الوحي واستغنان الناس بهواهم فسوى الأعاجيب ...
وعندى أن رجال اليهودية والنصرانية في أوروبا وأمريكا مسئولون عن هذا الارتکاس الخطير ، لقد فقدوا البصائر الهدية وأمسى ارتباطهم بالوحى الإلهي أوهى من خيط العنكبوت .

لا مكان للوصايا العشر ، والناموس الذى قرر عيسى أنه لم يحيى لنقضه ، والذى أوجب القصاص والرجم وحارب الفساد والفوضى هذا الناموس قد صار أثرا بعد عين ..
وهذا سرّ نعى القرآن على من سبقوه من أهل الكتاب «لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ليئس ما كانوا يصنعون» .

وبدل أن يُحيي هؤلاء أمر الله الذى أماتوه يطلبون من المسلمين مشاركتهم في الإثم ، والتواطؤ معهم على ألا يقوم للسماء حكم ! .

إذا طالب أحد بالعودة إلى الأحكام السماوية هاجت أوروبا وماجت ، وأنذرت بأن العودة إلى الرجعية ستقابل بالويل والثبور وعظام الأمور ..

«أفحكم الجاهلية يبغون؟» نعم ما يبغون غيره !! .

الزواج من الأجنبيات

نصحته عندما أزمع الهجرة إلى خارج البلد أن يتزوج قبل سفره من امرأة مسلمة !
وقلت له : تحفظ بذلك دينك وتصون مروءتك وتحصن من الفتن التي تنمر في مدن
أوروبا وأمريكا لا يكاد ينجو منها أحد . !.

أجابني بفتور : ما على من بأس إذا خرجمت وحيداً ثم التقى هناك من تصلح زوجة
لي ، وهناك مسلمون كثيرون تزوجوا من أجنبيات وعاشوا معهن سعادة ! وبعض من
هاجر تزوج بأمريكية فاكتسب بهذا الزواج الجنسية ، وربح مزاياها الأدبية والمادية !.

قلت : ما ربح شيئاً ، وأحسب أنه خسر دينه ودنياه ، وذلك ما أخافه على
أمثالك ! إن أكثر العرب النازحين ، بل إن أكثر المسلمين الضاربين في الأرض طلباً
للرزق تملّكهم عقدة الضعف أو ما يسمى مركب النقص ، يرمدون هؤلاء الأجانب من
أدنى إلى أعلى ويسارعون في هوامهم ويتركون لغة إلى لغة وعادات إلى عادات وسيرة إلى
سيرة ، ويتم ذلك كله على حساب الإسلام وشعائره ووصاياته ، فلا يمضي أحد بعيد
حتى يدع عقيدته وتمسى في نفسه ذكرى خافتة .. !.

قال : هناك مسلمون محافظون نجوا من ذلك المصير الذي وصفت .. ومبّلغ علمي أن
الدين يبيح الزواج من أهل الكتاب هوداً كانوا أو نصارى ، فلا داعي لما تحذر !.

قلت : إن الإسلام أباح الزواج من الكتابيات للمسلم الذي يعرف دينه ويعمل به ،
ووفق صفات لا توجد اليوم بين جمهرة الأوروبيات والأمريكيات . !.

إنك مسافر تطلب القوت ، وأختى - إذا وجدت من ترضى بك لأمر ما - أن ينشأ

أولادك لا يعرفون صلاة ولا صياما ، بل أخشى أن يشبووا غير مؤمنين بالله ولا بالأيمان الآخر ، وستكون زوجتك أقوى منك شخصية وسوف تستعين بسلطان البيئة على إبعادهم كل البعد عن دينك ...

ثم إن كلمة أهل الكتاب أبعد ما تكون عن وصف الرجال والنساء في أوروبا وأمريكا ، إن التوراة والإنجيل فقدا سلطانهما على الناس ! والدين في مظهره العملي لا يدعو أن يكون عطلة الأحد ، أو أحفال عيد الميلاد ، ثم السخط على الإسلام والنيل من محمد بسفاه غريب ..

أما الخمر فسيل لا يغيب وأما الغريزة الجنسية ، فإن مجرها في المجتمع متدا لا يعوقه شيء ، وفي الشذوذ متسع لمن سئم الزنا ! ومن يدرى فقد تعود إلينا مصاباً بالإيدز ... ! . إن الزواج بالكتابية المحسنة كان جائزاً لمسلم قادر على الإمساك بزمام بيته ، وتربيه أولاده وفق تعاليم ربه ... فأين هذا الآن؟؟

يا بنى إنني أقدر بوعاث الهجرة ، وأحترم الرغبة في مستقبل حسن وقدি�ما قال

الشاعر :

يقيم الرجال المكثرون بأرضهم وترمى النوى بالمقترن المرامي
لكن مع وزنك لمطالبك في هذه الحياة لا تنسى دينك ، ولا تنس أن سنتك الإسلامية
هي شرفك الأول والأخير .

أطفال المستضعفين للبيع

على وجه الحضارة الحديثة غشاء ناعم رقيق يخفى قسوتها الدفينة على خصومها في الدين ، وعلى جماهير المستضعفين ! ولذلك لم أدهش عندما قرأت نبأ تجارة الأطفال التي ظهرت أخيراً في بعض الدول العظمى .

والخبر - كما نشرته صحيفة الشعب الجزائرية ، تحت عنوان «أطفال العالم الثالث للبيع» هو - تزيد بلدية «فرانكفورت» اتخاذ الاجراءات لمنع أنشطة مؤسسة تقوم بشراء أطفال من العالم الثالث وبيعهم إلى أسر تبناتهم في ألمانيا الغربية ... ويقدر متوسط سعر الطفل من البلد الفقير بـ ٧١٠٠ دولار ! على حين تبلغ قيمة الطفل المجلوب من الشرق الأقصى ٨٩٠٠ دولار ، وضعف هذا الثمن للطفل المجلوب من الشرق الأدنى . ويمكن أيضاً شراء طفل ألماني بمبلغ ٢٦٥٠٠ دولار . وتختلف الأسعار حسب ما تطلب الأمهات تعويضاً عن أطفالهن .

وصرحت مؤسسة «هميل وكيلير» لانشاء الأسر (!) أنها أبرمت إلى الآن عقوداً بيع ثمانية أطفال ، وصرح المدير المسؤول أن مؤسسته تقوم بأعمال جد ضرورية وأنه لو لا نشاطها لكان مصير هؤلاء الأطفال الضياع ، وأن تهديد البلدية له لن يمنعه من المضي في عمله ! ويقبض مدير المؤسسة ٢٠٠ دولار عن كل طفل يتم بيعه ، وباقى المبلغ تتقاسمها الأم والسمسار الذى يتم معها الصفقة .

إنى أعلم أن القانون الإنجليزى حتى القرن الماضى كان يبيع بيع الزوجات (!) وكل ما صنع أنه حدد سعر البيع حتى يمنع المغالاة ... !

هل الفقر من وراء هذه الصفقات المخزنة ؟ وهل المتاجرة بالآلام تهبط إلى هذا الدرك ؟ أعرف في سنة نبينا - صلى الله عليه وسلم - ما يأبى هذه المسالك كلها فعن أبي أιوب قال سمعت رسول الله يقول : «من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيمة» وروى عن أبي موسى «لعن رسول الله من فرق بين الوالدة وولدها وبين الأخ وأخيه» إن الإسلام عندما ظهر في العالم وجد الرق واقعاً ينتظم الحضارات الهندية واليونانية والرومانية وتقره الديانات اليهودية والنصرانية ... وقد بذل جهوداً لتجفيف منابعه وتحفيض أوزاره لكن الدول الأوروبية أبت إلا استبقاءه وترويج تجارتة وارسال الأساطيل التي تحطّف الألوف المؤلفة من شواطئ إفريقيّة وترسلها إلى أوروبا وأمريكا ..

والذى يلفت نظرنا هو الوجه الصفيق الذى يجعل أوروبا تخفي آثامها وتوجه الشائم المقدعة إلينا !

يقول «لويس برتران» : الشرق ؟ إنكم لا تعلمون حقيقته ! إنه القذارة والسرقة والانحطاط والاحتياط والقساوة والتعصب واللحافة ... نعم إن أكره الشرق أكره أولئك الذين يرتدون الطرايش ويعيشون بالسبح^(١) .

ويقول «روبير دوتراز» : «الإسلام اليوم نوع جف مأوه ، فما زالت باستطاعة المسلمين أن يلقنونا ؟ إذا كنا مرضى فهم في حالة التزع ! إنهم أصحاب حضارة ساقطة ، ودياناتهم ولغتهم عقيمتان . الأمثلة الوحيدة التي نأخذها من المسلمين هو أن انحطاطهم يجب أن يعلمنا كيف نتجنب الوصول إلى هذا الدرك ! !^(٢) .

ذاك رأيهم فيما وعملهم معنا فماذا نقول وكيف نرد ؟؟
وكيف نحمي أنفسنا ونحمي العالم من هذا الطغيان ؟

(١) «السراب الشرقي» ص ٢٨ .

(٢) «غربة الشرق» ص ٨٧ .

يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ؟

لَمْ يَخْلُ قَطْرٌ عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ مِنْ يَتَامَى إِنَّ الْمَوْتَ يَطْرُقُ الْبَيْتَ فِي كُلِّ طَرْفَةٍ عَيْنَ مِنْ لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَوَفَّ دُونَ أَنْ يَرَى وَلَدَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْلُفُهُمْ ذُرِيَّةٌ ضُعَفَاءُ أَفَقَرُ مَا يَكُونُونَ إِلَى الْكَافِلِ الرَّحِيمِ ..

وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ النَّاسِ يَتَامَى لَأَنْ مَغَارِمَهُمْ فِي حَرْبِ الْعَقَائِدِ فَادِحَةٌ ،
وَالظَّامِعُونَ فِي فَتْنَتِهِمْ عَنِ الدِّينِ لَا يَنْتَهُونَ ، قَالَ تَعَالَى : «وَلَا يَزَالُونَ يَقَاوِلُونَكُمْ حَتَّى
يَرْدُوكُمْ عَنِ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ...» .

ثُمَّ بَدَأْتِ أَنْ حَرُوبَ الْعُدُوَانِ فِي الْأَرْضِ لَا تَجْفَفُ بِرْكَتَهَا ، وَقَدْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ
الْآخِيرَةِ خَمْسُونَ مَلِيُونًا ، وَسَيِّلُ الْقَتْلِ فِي الْحَرُوبِ الْمُخْلِيَّةِ لَا يَتْوقَفُ ، وَالْأَيْتَامُ يَكْثُرُونَ
وَلَا يَقُلُونَ ..

ثُمَّ جَاءَتْ كَوارِثُ الْزَّلَازِلِ وَالْفَيْضَانَاتِ فَحَصَدَتِ الْأَخْضَرَ وَالْيَابِسَ ، وَخَلَفَتِ
أَعْدَادًا مِنَ الْأَرَاملِ وَالْيَتَامَى ! فَلَا عَجَبٌ إِذَا حَثَّ الدِّينُ عَلَى رِعَايَةِ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، وَإِيَّوَاءِ
الْأَيْتَامَ ، وَتَرْقِيقِ الْقُلُوبِ لَهُمْ ، وَإِرْصادِ الْأَمْوَالِ لِمُسَاعِدَتِهِمْ .

وَفِي الْحَدِيثِ : «كَافِلُ الْيَتَمِّ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ - أَى قَرِيبًا أَوْ غَرِيبًا - أَنَا وَهُوَ كَهَاتِينِ فِي
الْجَنَّةِ ، وَأَشَارَ إِلَى إِصْبَعِيهِ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى» .

وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ مُسْلِمِيْنَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِي عَنْهُ وَجَبَتْ
لَهُ الْجَنَّةُ أَلْبَتُهُ» .

وعن أبي أمامة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «من مسح على رأس يتيم - لم يمسحه إلا الله - كان له في كل شعرة مرت عليها يده حسناً» .

وجاء أن رجلاً شكى إلى رسول الله قسوة قلبه ! فقال له : «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين» إن مشاركة ذوى الآلام متابعتهم والاقتراب منهم يعيد التوازن إلى من أسكرتهم لذات الدنيا ، وأذهلهم نعيمها ...

على أن المسلك الفردى إن أغنى حيناً فهو فاشل في أغلب الأحيان ، لا سيما عندما يعم البلاء ، وتزداد الآلام ...

في البلاد التي نكبت بالجفاف تشردت الألوف المؤلفة ، وأجهز الموت على جماهير من الضحايا ، وفي الحرب بين العراق وإيران مثلاً زهقت أرواح لا حصر لها .. وفي القتال الدائر من بضعة عشر عاماً في لبنان وبين الحبشة وإيرترانيا ، وبين أقطار شتى في وسط إفريقيا ... إلخ هنا وهناك يتامى كثيرون ، يبلغون مئات الألوف ، أو يتجاوزون المليون ، ماذا حدث لهم ؟ وماذا يحدث ؟ .

أعرف أن البعثات التنصيرية تلقفهم على عجل ، وفتحت لهم المدارس والملاجئ ، وقامت في صمت بأداء واجبها الذي تكونت من أجله ! .

بل إن ثريا إيطاليا تبني أكثر من ألف طفل منهم اسمه وماليه !! .

ماذا صنع المسلمون ؟ هل تلاوتهم آيات البر وأحاديث الرحمة تغنى فتيلًا ، أو تطعم من جوع أو تومن من خوف ؟ إنه لابد من جهاد جماعي مكثف متصل حتى يمكن إغاثة الملهوفين وتأمين حياتهم وحماية عقائدهم ..

إن الفكر البليد والقلب القاسى أقصر طريق إلى الضياع والعار والنار ، «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله ول يقولوا قولًا سديداً» .

المؤاخاة بديل عن التبني

ينظر الناس عادة إلى اللقيط نظرة ازدراء ، ويتوهمون أنه لن يكون شخصاً طيباً مستقيماً في مستقبل عمره ! وهذا حكم جائز ، وليس له ظهير من نقل أو عقل .. فالدين كشف عن طبائع الناس جميعاً عندما قال : «كل مولود يولد على الفطرة» فهذا اللقيط برب إلى الدنيا بالحالة النفسية التي يولد بها سائر الناس ، ليس أحسنَ منهم معدناً ولا أقل استعداداً للخير ! .

المهم هو الوسط الذي يتربى فيه ، ويتلقى فيه التوجيه الذي ينمّي عوده ، ويصلح وجوده ..

وقد لاحظت قديماً وحديثاً أن هناك لقطاء وصلوا إلى مناصب رفيعة ، وتولوا الحكم فأحسن من أحسن وأساء من أساء ! .

هل التبني وسيلة لضمان غد أشرف أو أرغم لهؤلاء الذين هرب منهم آباءهم الحقيقيون ؟ عند الدراسة نجد أن الأم البديلة أو الأب البديل يؤديان دوراً لا يلبث أن يتبعثر أو يزول ! .

لقد تبنت امرأة العزيز يوسف ، بعد ما بيع رقيقاً لا يعرف له أهل ! فلما نصح شبابه وطابت رجولته تحركت في المرأة أنوثتها ، وتلاشت الأمومة المزعومة ! ورأت امرأة العزيز أن تكون عشيقة لفتى أغراها خلقه وخلقها ..

هل مبيت المتبني مع إخوته المزعومين وأخواته المزعومات ينشئ رحمةً ماسةً أو حرمة طبيعية ؟

من الصعب أن يقع ذلك ، والذى سيقع أن علاقات أخرى قد تجد .. ! .
الواجب أن يجد اللقيط رعاية تصونه مادياً ومعنوياً دون أن تقع مضاعفات غير
منظورة لاختلاط مبنيٌ على الكذب ..

ولا أقبل تصرفات الأوروبيين في الأمور الجنسية فقد عرفت من أيام أن « الدانمرك »
قبلت ما سميّ عقد زواج بين شاذين ، ونظمت شئون البيت والنفقة وغير ذلك ، فلا دين
ولا آخرة ولا شرف ولا تقاليد ! .

إن الإسلام حريص على طهارة الأسرة صارم في منع الريبة ، حريص على ضبط
الأنساب وقد قال الله تعالى في قضية التبني كلها « ... وما جعل أدعيةكم أبناءكم ،
ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهם لآباءهم هو أقسط
عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإن خوانكم في الدين ومواليكم ». .

هناك نظام آخر عنوانه الأخوة في الدين والموالة .

لماذا عجزنا عن إقامته ورسم معالمه وتقدير نتائجه وإزالة العوائق من طريقه ؟ إن تحُول
الدين إلى مجادلات فارغة واهتمام بالفروع التافهة صرفاً عن أعمال إيجابية كثيرة ! ! .

صحيح أن اللقطاء في التاريخ القديم كانوا نزراً يسيراً ، أما في الحضارة الحديثة فقد
قاربت نسبتهم في بعض البلاد عدد المواليد الشرعيين ، وليس هذا عذراً لتکاسلنا ، يجب
إعداد العدة لبلاء كثير إلى أن يستطيع الإسلام بسط حضارته العفيفة ، وإشاعة تعاليمه
السماوية فإن محمدًا عليه الصلاة والسلام بعث رحمة للعالمين .

عن التحكم في جنس الجنين

الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزقنا الأولاد ، يتولى ذلك بعلمه وقدرته ؛ كما ذكر في كتابه فهو «... يخلق ما يشاء ، يهب من يشاء إناثاً ، ويهب من يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عالم قدير» .

ومشیته هي العنوان الديني للسنن التي يسر عليها الكون وتحكم ما نبصر وما لا نصر من شؤون الحياة والأحياء ..

وقد اهتدى العلماء في هذا العصر إلى بعض هذه القوانين التي تضبط الوراثة ، وتنشأ عنها الذكورة والأنوثة ، ولهن تدخلات سوف تحدث عنها بيد أنها نقدم بين يديها حديثاً لابد منه عن عوج أخلاقي ساد الناس قديماً ولا يزال يسودهم إلى الآن ..

نعم كان الأقدمون يكرهون الأنثى ، ويضيقون بمولدها ، ويكرهون الزوجة التي تلد البنات ! وما زلت أذكر شعراً حفظته وأنا صغير تشكوك فيه زوجة هجرها رجلها إلى أخرى لأن الله لم يرزقه منها إلا البنات ! قالت المسكينة :

ما لأبي حمزة لا يأتيها ؟ يذهب للبيت الذي يلينا ..!
غضبان ألا نلد البنينا ! وليس ذلك في أيدينا !
 وإنما نأخذ ما أعطينا ...

والناس يكرهون الأنثى لضعفها ، وهم الذين استضعفوها ، وضُئلوا عليها بما ينصح مواهيبها ويساعدها على إعطاء الشمر الطيب !!.

وقد عاصرت أيامًا كان تعلم الأنثى فيها جريمة ! وكان ذهابها إلى المسجد منكرًا !
وكان الملتصقون بالدين يبخسون حقوقها المادية والأدبية جهرة ! .

ولا تزال بقايا من أولئك المتدلين الجهلة تظلم الإسلام بسوء الفهم والعرض في شتى
الميادين ، ويسلقونني بألسنة حداد .. ! .

الغريب أن إثمار الذكورة على الأنوثة لا يزال شائعاً بين أجيال كثيرة وهو من وراء ما
يسمى بالهندسة الوراثية ! .

لقد عرف العلماء بيقين أن الرجل هو الذي يحمل الحيوانات المنوية المذكورة والمؤنثة ،
 وأن المرأة في هذا المجال قابل لا فاعل ، وإن كانت هناك ظروف مكانية وزمانية لا نستطيع
شرحها تتدخل في تغليب أحد النوعين على الآخر ..

وقد تمت تجارب لتقليل الحيوانات المؤنثة في ماء الرجل ، كما تمت تجارب لتهيئة
ظروف خاصة عند المرأة تميل بالإنجاب إلى أحد النوعين ، ولم يصل العلماء إلى نتائج
حاسمة بعد ، وما زالوا يحاولون ...

ولا بأس أن ننقل ما تمت مناقشته في منظمة الصحة العالمية حول التحكم في جنس
الجنسين حيواناً كان أم إنساناً .

لقد جرت تطبيقات واسعة في علم الحيوان تمكّن فيها العلماء من تحضير كمية كبيرة
من السائل المنوي لعدد من الفحول ؛ ثم فصل السائل بالتبذيد إلى قسمين : أحد هما ترجم
فيه الحيوانات المنوية المفضية إلى الذكورة ، والآخر ترجم فيه الحيوانات المنوية المفضية
إلى الأنوثة .

وباستعمال أحد القسمين في التلقيح الاصطناعي لإإناث الحيوانات أمكن أن يميل
ميزان أحد الجنسين عن النسبة الطبيعية التي تقارب (٥٠٪) لكل منها إلى حوالي (٧٠٪)
في اتجاه الجنس المطلوب ، ولم يتمكن العلم حتى اليوم من الفصل الكامل لنوعي
الحيوانات المنوية بعضها عن البعض الآخر لأسباب عديدة ومعقدة .

والسؤال المطروح هنا : ما هو موقف الشريعة الإسلامية من تطبيق هذه التقنية على

البشر؟ وهل يجوز أن تلبّي رغبة الزوجين في تغليب الحصول على جنين ذكر أو العكس ، أو أن يتم تغليب أحد الجنسين على الآخر في طائفه من الناس ؟

وبالرغم من وجود صعوبات في نطاق التطبيق البشري ، وخاصة في تجميع الكمية الكبيرة من السائل المنوي من الزوج وإجراء التلقيح الاصطناعي بمعرفة الطبيب ، وأن يخل هذا محل الجماع الطبيعي الذي تتجلى فيه صفة المودة والرحمة والسكنينة والألفة المقصودة لذاتها في الحياة الزوجية ، ومع هذا لا تعتبر هذه التقنية مستحبة في التطبيق البشري مع وجود العقبات وارتفاع التكاليف .

ناقشت المجتمعون في الندوة هذا الموضوع ، وطرحوا بعض التساؤلات ، منها ما إذا كان التحكم في جنس الجنين يمكن أن يعتبر تدخلاً في الإرادة الإلهية ، وهل يجوز للإنسان أن يتحكم في عناصر المعادلة التي تغير من نسبة الذكور أو الإناث ، وهل يتصادم هذا مع الحسن الديني ؟

الواقع أن كل ما يفعل في هذا الجانب يتم بقدرة الله تعالى ومشيئته ، وفي حدود دائرة الأسباب وال السن التي أقام الله عليها هذا الكون « وما تشاءون إلا أن يشاء الله . إن الله كان عليماً حكيمًا » .

وتمت في الندوة مداولات متعددة حول هذا الموضوع ، وخلصت في النهاية إلى التوصية التالية :

اتفقتو وجهة النظر الشرعية على عدم جواز التحكم في جنس الجنين إذا كان ذلك على مستوى الأمة ، أما على المستوى الفردي فإن محاولة تحقيق رغبة الزوجين المشروعة في أن يكون الجنين ذكراً أو أنثى بالوسائل الطبية المتاحة ، لا مانع منها شرعاً عند أغلب الفقهاء المشاركين في الندوة ، في حين رأى غيرهم عدم جوازه خشية أن يؤدي ذلك إلى طغيان جنس على آخر .

أقول : لو استجبينا لأهواء الناس في إيثار الذكور وسخروا الطب لبلوغ ما نشتهي ،

ماذا سيقع ؟ سيهلك العالم على عجل أو على مُكْثٍ ! إننا بدل أن نتقن الهندسة الوراثية
يجب أن نتقن هندسة الأخلاق والتقاليد وأن نفقه قول الله تعالى : « ولو اتبع الحق
أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

الجار له عليك حق

لولا أن الخبر نشرته الصحف ، وأعقبته تحقيقات دقيقة ما صدقته ! إمرأة تموت وتبقى جثتها على سريرها بضع سنين ولا يشعر بغيابها أحد من سكان العمارة الكبيرة إلا مصادفة عندما شب النار في البيت الواسع ورئي إخراج السكان بسلام المطافئ .. !
لقد وجدت رفات المتوفاة هيكلًا عظيمًا بالياً هو نهاية المطاف بعد حياة حافلة بخلاف الأعمال أو صغارتها ... !.

ما سأل عن المرأة أحد بضع سنين ! ما شعر بغيابها جار قريب ولا بعيد ! هذا ما صنعته بنا الحضارة الحديثة ، لا يعرف أحد أحدًا ولا يهتم بشؤونه ، يمرق كل امرئ من بيته إلى عمله ثم يعود أو لا يعود ، وجاره غير مكترث ولا ملتفت

لا العروبة تعرف هذه التقاليد إن كنا عرباً ، ولا الإسلام يقبلها إن كنا مسلمين ! إن عاهة عفنة أصابت هذه الأمة فأذرت بها وجعلتها أدنى إلى الوحش منها إلى البشر .
في الجاهلية القديمة كان الجار مسؤولاً عن كرامة جاره وعن حمايته ، بل كان ذلك مبعث فخره عندما يقول :

وما ضرنا أنا قليلٌ وجارنا عزيز ، وجار الأكثرين ذليل !
وفي مواريثنا الإسلامية ، أن الجار بقية الأهل من ولد ووالد ونسب وصهر ، كما جاء في الحديث الشريف «ما زال جبريل يوصي بالجار حتى ظنت أنه سيورثه» أى سيجعل له نصيبياً في تركة الميت !! .

فإذا حدث حتى وجدنا في أحد البيوت فرحاً وعند جاره ترحاً هذا يики وهذا يضحك ! لا علاقة بين الbeitين ولا صلة بين الفريقين .. !.

في مجتمع المدينة المنورة قديماً كان هناك جفاء بين المسلمين واليهود ، ولكن حق الجوار غالب الفرقـة الدينـية روـي مـجاهـد أـن عـبد اللهـ بن عـمـرو ذـبـحـت له شـاة فـي أـهـلـه ، فـلـمـا جاءـ قال : أـهـديـت لـجـارـنـا اليـهـودـيـ أـهـديـت لـجـارـنـا اليـهـودـيـ ! سـمعـت رسـول اللهـ يـقـول : «مازال جـبـرـيلـ يـوـصـيـ بـالـجـارـ حـتـىـ ظـنـنـتـ أـنـهـ سـيـورـثـهـ» وـعـنـ أـنـسـ قالـ رسـول اللهـ - صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ - : «وـالـذـى نـفـسـى بـيـدـهـ لـاـ يـؤـمـنـ عـبـدـ حـتـىـ يـحـبـ لـجـارـهـ ، أوـ قـالـ لـأـخـيـهـ ما يـحـبـ لـنـفـسـهـ» .

والواقع أن أقرب طريق إلى تماسك المجتمع كله هو أن يتثبت كل إنسان بجراه ، فإن العقد لا ينفرط إذا ارتبطت كل حبة بأختها وهل الأمة إلا مجموعات من الجيران ؟ فإذا لزم كل امرئ جاره وغالي به لم يضع أحد في طول البلاد وعرضها ، وفي توثيق هذه العرى جاء في الحديث : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » ! وفي روایة « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع » !

ترى ما يكون الوصف عندما يموت الجار ، فلا يشعر بموته أحد عدة سنين حتى تكتشف جشه مصادفة ؟ أى مصيبة تلك ؟ إن المصائب الاجتماعية كثيرة في دنيا الناس ، وينبغي أن تتكاثف الجهود لمحوها ، ومن أصدق ما أحصى هذه المحن حديث يقول : « ثلاثة من الفواقر ، إمام - حاكم - إن أحسنت لم يشكر ، وإن أساءت لم يغفر ، وجار سوء إن رأى خيراً دفنه وإن رأى شراً أذاعه ، وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك » !!

نَسأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ مِنْ هَذِهِ الْبَلَاءِ.

فَنَانُونْ تَائِهُون

الكلمات الماجنة عندما يغنيها فنان مشهور تفتح باباً واسعاً من أبواب الانحلال والرذيلة ! ومن زمان غير قريب غنى عبد الوهاب أغنية الدنيا « سيجارة وكاس » فكان لها في النفوس أسوأ وقع ، ثم صدر قرار بمنعها !! .

ولكن أصوات التغزل في الحمر لا تزال تسمع ! ففي أغنية كيلو باترة يردد الفنان المنتشي مثني وثلاث « ليلنا حمر » !! .

ويصف الحبيب التائه الذي يبحث عنه بأنه « أسمر الجبهة كالحمرة في النور المذاب » .

وقبل أن يموت كامل الشناوى قدّم عبد الوهاب أغنته التي يقول فيها : « قدر أحمق الخطأ ... وهذا الكلام طبعاً من دلائل الإيمان العميق !! كما أن من دلائل الإيمان التغنى بكلمات الشاعر المهجري « جئت ، ولا أعرف من أين أتيت ؟ ووجدت قدامي طريقاً فضيت ! أو كما قال الشاعر التائه ! وهو المعنى الذي ردّده عبد الوهاب في آخر أغانيه ، باللغة العامية جايin الدنيا ما نعرف ليه ؟ ولا رايحين فين ولا عاوزين إيه ! ».

وإذا كان الفنان المصرى لا يعرف لماذا جاء ؟ وماذا عليه أن يفعل ؟ فإن الفنانين اليهود يعرفون جيداً الإجابة على هذه الأسئلة ! ويتحققون تحت نعائمهم أمانىّ العرب في حياة حرة كريمة ويمضون إلى غایتهم وحملة الأقلام الصاحبة يشجعونهم .. أما العرب فإن سماسته الغزو الثقافي يتحركون في صفاقة نادرة لتشجيع الفن الخليع ، وتضليل سعي الأمة الحيرى ..

وإذا كان الدفاع عن الإسلام تهمة ، فإن حبل الاتهام يجب أن يطول حتى يمكن أن

يختنق به كل داع إلى الشرف والجدّ والحق ، وذلك ما يرضى به الضمير العلماني في أرجاء الأمة العربية !!.

قلت يوماً : ألا يمكن أن يقدم الفنّ عندنا شيئاً يدعم به أبطال الانتفاضة ؟ ويهبّ به أبطال الجهاد الناجح في أفغانستان ؟ وتصفحت الشعر العربي الحديث فوجدت لبدوى الجبل قصيدة تستطيع بها أن نساند هذا الكفاح ، يقول فيها الشاعر :

قد استرد السبايا كل منزه لم تبق في أسراها إلا سبايانا
وما رأيت سياط الظلم دامية إلا رأيت عليها لحم أسرانا !
ولا نموت على حدّ الظبا أńفاً حتى لقد خجلت منا منابانا !

الشعر يحتاج إلى معنٌّ رجل ، ولا أقصد بالرجلة الذكورة ، بل أقصد فحولة الأخلاق وصلابة المعدن وشراسة المقاومة إلى آخر رقم .

فهل لدينا في الميدان الفني رجال من هذا الصنف ؟

وإذا غتّه امرأة جادة الأداء محروقة الكبد هزائم قومها فهل نجد واحدة تصلح لذلك العمل ، أم لا نقع إلا على باكية هجر الحبيب متأوهة لصده الطويل !!.

إن الميدان الفني في العالم العربي خبيث التربة ، مختلف الموازين ! إلا من عصم الله ..

والغريب أن يخدوه في طريقه الزائف حملة أقلام تحالفوا مع الشيطان على حرب الإسلام ونسيان الله والشغب على كل جديد نقىّ ، وعلى كل قديم زكيّ ، لأنهم تحت عنوان العلمانية يتآمرون على قتل أمة ، تنشد الحياة في ظلال الإيمان والتقوى ، بعيداً عن الإلحاد والغهر .

الفهْرِس

٥	مقدمة
١١	الباب الأول : لفهم الإسلام أولاً
١٢	مصدر الاعتقاد الحق
١٥	حسّنوا صورة المرأة المسلمة ..
١٧	رهينة المحسين : الجهل والفقر ..
٢١	الإسلام يحمي الأسرة ..
٢٣	العلماء مسؤولون ..
٢٦	غورو أصحاب الأديان ..
٢٨	لحساب من يتحدثون ؟ ..
٣٠	خطيئة الأصدقاء الجهلة ..
٣٢	الدور الغائب للمرأة ..
٣٤	المساواة ثابتة في القرآن ..
٣٨	مراجعة الوظائف واجبة ..
٤١	لكى يتظاهر المجتمع ..
٤٥	خطر القنبلة الجنسية ..
٤٨	الإسلام في بلاد المهاجر ..
٥٢	حوار مع ماركسى ! ..

الباب الثاني : صفحات مطوية	55
هكذا كان قدرها	56
هل دلّل الإسلام المرأة ؟	58
الأم مدرسة	60
في الجاهلية القديمة	62
الجاهلية العربية أشرف	64
المرأة في عصور الانحطاط	66
لتعرف الموقف الصحيح	68
مرويات مسيئة للإسلام	70
زوجات الرسول (١)	72
زوجات الرسول (٢)	77
ماذا تفعل نساؤنا ؟	81
امرأة بآلف رجل !	85
امرأتان نادرتان	89
الصديقة الأديبة	91
المرأة في العلم والأدب	93
في مواجهة الكذاب	95
قانون «الحمد»	97
الباب الثالث : من البيت نبدأ	101
الزواج عبادة	102
«تحببوا لطفكم»	104
قواعد ضرورية للزواج	106
الزواج وسيلة لا غاية	108
الكهف الوحيد للرجل والمرأة	110
ثواب الإنفاق على البيت	112

116	لا تهونوا من وظيفة ربة البيت
119	التي فقدت زوجها
121	للعرض قداسة
125	البيوت تبنى على الحب
129	تضحيات الرجال والنساء
131	أين وظيفة البيت ؟
135	الآباء في زماننا
139	صلة الأرحام من الإيمان
143	العمل لا العدد
145	المسخ الذي أصابنا
147	الدين عند «تاتشر» وعندها
149	الأيدز وحرية التختنث
151	محنة المخدرات
153	الباب الرابع : مفاهيم يجب أن تصحح
154	القوامة لا تعنى القهر
158	المرأة حرة في اختيار زوجها
160	سفر المرأة
162	الوجه ليس عورة
164	حرمة صوت المرأة .. إشاعة كاذبة
166	الدين ليس احتفاءً بالصغرائر
168	الإمام يعني
170	النساء بين التجنيد والتدريب
172	هواة خراب البيوت
174	في ضرب الزوجات
178	بيت الطاعة : اجتهاد خاطئ

١٨١	التشدد في إيقاع الطلاق
١٨٥	الطلاق وقف مؤقت للزوجية
١٨٨	تقاليد لابد من تغييرها
١٩٢	ثياب النساء
١٩٦	تفكير باطل
١٩٨	لا تمنعوهن من المساجد
٢٠١	أفحكم الجاهلية يبغون؟
٢٠٣	الزواج من الأجنبيات
٢٠٥	أطفال المستضعفين للبيع
٢٠٧	يتامى المسلمين؟
٢٠٩	المؤاخاة بدليل عن التبّنى
٢١١	عن التحكم في جنس الجنين
٢١٥	الحار له عليك حق
٢١٧	فتّانون تائرون